

تاريخ النص

(دراسة في تأريخ القرآن الكريم)

الكتاب الأول

المجتمع العربي قبل الإسلام

محمد عبد العال

دار الكنزي للنشر والتوزيع



رئيس مجلس الإدارة

محمد صلاح شديد

المدير العام

إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحلیم

مدير النشر

مهند يحيى

الكتاب : تاريخ النص
تأليف : محمد عبد العال
تصنيف الكتاب : دراسة في تاريخ القرآن الكريم
إخراج : أحمد عبد الحلیم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٣٦٩ / ٢٠٢٠
التقييم الدولي : 3 - 66 - 6660 - 977 - 978

All Rights Reserved

Alkanzy for Publishing and Distribution

+01062104822

Alkanzy.co@gmail.com

info@alkanzy.net

محفوظ
جميع الحقوق

﴿إِنْ تَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا يَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾

[سورة الجاثية: آية: ٣٢]

«رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَأَنْسَلَّتْ»

(مثل عربي قديم)

المقدمة

شبه نصر حامد أبو زيد القرآن بأنه نصٌ لغويٌّ يمكن أن نصفه بأنه يمثل في تاريخ الثقافة العربية نصًّا محوريًّا، فحلَّص من هذا بأن وضع القرآن كنصًّا يمكن دراسة محتواه ومعرفة مفهومه. وكما انطلق أبو زيد لدراسة مفهوم هذا النص من كونه عالمًا لغويًّا، أريد أن أنطلق من هذه العبارة لدراسة تاريخ هذا النص بصفتي باحث في التاريخ. وانطلاقًا من كون القرآن كتاب الفن العربي الأقدس - كما قال أبو زيد - سواء نظر إليه الناظر على أنه كذلك في الدين أم لا، ارتأينا معرفة تاريخ هذا النص. على أن أية محاولة للجزم بتاريخ النص القرآني الذي هو بين أيدينا الآن هي محاولةٌ مُقدَّرٌ لها بالفشل؛ فالأمر ملتبسٌ ملغزٌ يصعب حصره وتأطيره، وذلك ناتجٌ عن كثرة القراءات القرآنية وتباينها واختلاف ألفاظها ومعانيها، والبون الشاسع وطول المدة التي قُدِّر للنص القرآني أن يقطعها مع قلة مخطوطاته وصعوبة إمامنا بها. والاعتقاد الشائع أن النصَّ القرآنيَّ ذو قراءةٍ واحدةٍ ناجمٌ جزئيًّا عن تبجُّح الفقهاء ليضلُّوا به العوام، وناجم عن تبجُّح العوام أيضًا لعدم

إلمامهم به كلياً أو جزئياً؛ فهم نادراً ما يعبرون عن شكهم في هذه الأمور، ولكنني سأحاول التقريب ما وسعني.

وكما كان البحث عن مفهوم النص لدى نصر أبو زيد ليس في حقيقته إلا بحثاً عن ماهية القرآن وطبيعته بوصفه نصّاً لغوياً، أراد الباحث البحث عن تاريخ النص بوصف القرآن نصّاً تاريخياً، وإن ذكرت أنه نصّ تاريخي لا أعني به مصدرًا أو مرجعاً تستقى منه المعارف التاريخية؛ ولكنني أعني به المحتوى التاريخي للنص والإطار التاريخي له حتى وصلنا على مدار خمسة عشر قرناً، بصرف النظر عما هو ديني يُرجع إليه في التشريع والاعتقاد^(١).

وللباحثين من عرب ومستشرقين كتب مختلفة في تاريخ القرآن أدت كثيراً من الفائدة والنفع منذ ظهورها، غير أنه من الحق أنه ليس بين هذه الكتب ما يبسط الحديث في تاريخ قرآننا كترائنا الأدبي الأشهر على مر التاريخ منذ لحظة نطق النبي ﷺ بلفظه إلى عصرنا الحالي بسطاً مفصلاً دقيقاً. وأغرز هذه الكتب وأحفلها مادة كتاب «تاريخ القرآن» لتيودور نولدكه، وهو دائرة معارف جامعة، لا تقتصر على الحديث عن تاريخ القرآن كنص تراثي أو أدبي أو مقدّس، بل تفيض في الكلام عن

١- نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص - دراسة في علوم القرآن، بيروت - الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠١٤م، ص٩-١٠.

فلسفة هذا النص التاريخي وحول أصل القرآن ونبوة محمد ﷺ والوحي، ونشوء وتركيب السور القرآنية وأصل أجزاء القرآن المفردة وما لا يتضمنه القرآن مما أوحى إلى محمد ﷺ، ثم عملية جمع القرآن وتدوينه والمصاحف المختلفة ثم جمع عثمان بن عفان، وعلاقة القرآن المحمدي بالكتب المقدسة المسيحية واليهودية، ومن أثاروا في تاريخ هذا النص كالقراء والرواة، ومخطوطات القرآن، ومحاولته قبوله هذا النص بعيداً عن (الإسلاميات) وما يحفُّ بها من محاذيرٍ ومحظورات وموانع وما يحايتها من مساجلات ومواجهات ومجاهات ترجع في المقام الأول لعيمة مرازبتها وسدنتها للتجمُّد والجمود والنفور من أي تجديد وخاصة في المنهج، وعلائهم لكثيرٍ من فروعها بقداسات زيوف وهالات مصطنعة؛ وذلك تشبيهاً لمصالحهم، وتحقيقاً لمكاسبهم، وتوثيقاً لمكانتهم التي غدت في هذه الأيام - لأسبابٍ كثيرةٍ ليس هذا موضع بسطها أو إيجازها - غليظة مجال بعد أن كانت منذ عقود قريبة ضاوية مهزولة ضامرة.

والحقُّ أن عناية تيودور نولدكه ومَن تابعه في عمله - وأعني بذلك فريدرش شفالي وأوغست فيشر وغوتهلف برغشترسر وأوتو بريتل - من وصف التراث القرآني جميعه جعلتهم لا يُعنون عنايةً مفصَّلةً ببحث العصور والظواهر الأدبية والتاريخية ولا ببحث شخصيات مَن أثاروا في

تاريخ هذا النص بحثاً نقدياً تحليلياً؛ إذ شغلتهم عن ذلك مواد كتابهم المتنوعة الكثيرة. ومن ثم، فإنني لا أبالغ إذ قلت: إن المصادر التي تبحث النص القرآني بصفته نصّاً تاريخياً يفتقر إلى طائفة من الأجزاء المبسوطة تُبحث فيها عصوره من لحظة نطق النبي ﷺ بلفظه إلى عصرنا الحاضر، كما تبحث مصادر هذا النص القرآني بصفته تراث أدبي تاريخي بحثاً مسهباً، بحيث ينكشف أثر كل عصر انكشافاً تاماً، بجميع حدوده وبيئاته وآثاره وما عمل فيها من مؤثرات ثقافية وغير ثقافية، وبحيث تنكشف شخصيات القرآنيين - وأعني بهم اللغويين في المقام الأول والنحويين والمفسرين - انكشافاً كاملاً، بجميع ملاحظاتها وقسماتها النفسية والاجتماعية. وقد حاولت النهوض بهذا العبء، وأنا أعلم ثقل المتونة فيه، فإن كثيراً من المصادر القرآنية التاريخية والأدبية والمصحفية قد اندثر، وكثيراً من الموجود فيه لا يزال مخطوطاً لما يُنشر، وكثيراً مما نُشر في حاجةٍ إلى أن يُعاد نشره نشرًا علمياً.

والدراسة لها واجهةٌ براقَةٌ ومظهرٌ خلّابٌ وسطحٌ حَبٌّ وبشرةٌ خدّاعةٌ؛ إذ توحي أنها بحث لغوي صرف، والحال على خلافه؛ إذ أن النسيج اللساني مجرد وسيلة، وإن شئتُ قلتُ إنه معبرٌ فحسب إلى لُبِّ الموضوع، وهو الكشف عن الذهنية الثقافية لأصحاب ذلك اللسان والمستوى الحضاري والأهم البنية النفسية إزاء مسألة على درجة قصوى

من الخطورة والخطر هي: اللغة أو اللغات التي نزل بها القرآن. والحقُّ هذا تبسيطٌ مَحَلٌّ أو هو اختزالٌ مبالغٌ فيه لا يفي بالمطلوب ولا يحقق القصد ولا يصيب الهدف إصابَةً شافيةً وافيةً؛ لأنَّ النظرة إلى اللغة فقط هي جزءٌ من كلِّ أو هي شطرٌ من مجموعٍ أو شظيةٌ من فرع الشجرة. لأننا نعتقد أن تلك النظرة إلى لغة القرآن فقط نظرة قاصرة جدًّا، تحول دون معرفة المصدر الذي نحن بصدده بحثه.

وقد كنتُ في البداية قد عزمْتُ على أن يكون هذا الكتاب صغيرًا موجزًا في البنية والفصول، ولكن وجدُّني كلما تعمَّقتُ في الكتابة وقلتُ: نزلت هذه الآية بقراءة كذا، أو لغة كذا. وجدُّني أتلوُّم بين أن أحيلك أيها القارئ الكريم في الهامش لأعرِّفك بهذه القبيلة أو تلك ومواطنها وهجراتها قبل الإسلام حتى كادت الإحالات تطغى على المتن حتى لكانها كتابٌ آخرٌ، فقلتُ في نفسي إذا كانت الإحالات بهذا الشكل لم لا أفصلها وأفردها في كتابٍ أعرِّفك فيه بالمجتمع الذي نزل فيه القرآن وتكلَّم في شأنه، وبالقبائل التي تحدَّثت بهذه اللغة أو تلك من لغات العرب، ومظاهر وطبيعة العقلية العربية التي نزل القرآن في شأنها؛ فالقرآن - كما يعرف عامة الناس - لم ينزل جملةً واحدةً، وإنما نزل منجَّمًا مفرَّقًا على مدار ثلاثٍ وعشرين سنة، فتزل في شأن بعض القبائل أو تلك؛ فنرى مثلاً مستهل سورة الحجرات يقول تعالى: ﴿إِنْ

الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(١). فلو قرأنا الآيات على هيأتها دون أن نعرف في أي قبيلة نزلت ولماذا نزلت ومن هم الذين نادوا الرسول ﷺ من وراء الحجرات فجعل القرآن أكثرهم لا يعقلون. إن غير المتمعن للتفسير ومعرفة أسباب النزول لن يدرك - بطبيعة الحال - هذه التفصيلات التي يُجملها القرآن ويهمل الحديث عنها.

فلو أننا لم نتعاط مع هذه المعطيات والأسباب لوجدت أيها القارئ الكريم من الإحالات الكثير والكثير بما يشتت الذهن بالطبع. فعقدت العزم على أن أبتدئ هذا الكتاب متحدثاً في تمهيدٍ جغرافيٍّ لشبه الجزيرة العربية، أردفه بعدة فصولٍ عن طبيعة العقلية العربية والمجتمع العربي، فيُعرفك على طبيعة العربي الجاهلي الذي نزلت فيه هذه الآيات المحكمات، فإذا قلتُ لك - فيما بعد - هذه الآية تُقرأ بلسان قبيلة هذيل كذا، عرفت نسب هذيل وموطنها، فلا تلتبس عليك الأمور بين هامشٍ ومتنٍ، فقط أقول لك: انظر كتاب كذا صفحة كذا، بما يسهل عليك إدراك ذلك، فلا تلتبس عليك كل هذه المعطيات والأسباب.

١ - سورة الحجرات: آية: ٤-٥.

وللأسف تفتقر مكتبتنا العربية إلى هذا النوع من الدراسات، فلم يصدر عن تاريخ العرب قبل الإسلام من المصنّفات الحديثة سوى عددٍ قليلٍ من البحوث تُعدُّ على أصابع اليد، ويكاد يكون أبرزها جميعاً عشرة أجزاءٍ ضخمةٍ قدّمها جواد علي، وعُدَّت المرجع العلمي الأول بتاريخ العرب قبل الإسلام، فضلاً عن بحوثٍ أخرى قليلة منها كتاب أحمد إبراهيم الشريف «مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول»، وكتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام» للسيد عبد العزيز سالم، وكتاب «محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام» لصالح أحمد العلي، وكتاب «دراسات في تاريخ العرب القديم» لمحمد بيومي مهران، فضلاً عن دراساتٍ أخرى لكنها قليلة المحتوى، وإذا استثنينا «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» لجواد علي، فإن أهم ما يميّز هذه المراجع تناولها لتاريخ العرب السياسي تحديداً دون الأخذ بالحسبان تاريخ العرب الاجتماعي الذي هو مناط بحثنا هذا، وما زال البحث في تاريخ العرب قبل الإسلام ميداناً بكرّاً يتسع المجال فيه لكثيرٍ من الدراسات. وقد تهيّب بعضُ الباحثين الخوض في حقبة الجاهلية^(١)؛ لبعُد

١ - جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام - يبحث في أصل العرب وتاريخهم ودولهم وتمدُّنهم وآدابهم وعاداتهم من أقدم أزمانهم إلى ظهور الإسلام، القاهرة، مطبعة الهلال، ط٢، ١٩٢٢م، ص٨.

غورها ووعورة مسالكها وضآلة الأضواء الكاشفة المسلّطة على بعض جوانبها المعتمة نتيجة قلة الآثار والمصادر، ولعرقلة الصحارى جهود الباحثين وعلماء الآثار. ففترة الجاهلية - كما ذكرتُ آنفاً - "أضعف قسم كتبه المؤرخون العرب في تاريخ العرب يعوزه التحقيق والتدقيق والغرلة. وأكثر ما ذكروه أن تاريخ هذه الحقبة هو أساطير، وقصص شعبي، وأخبرٌ أُخِذت عن أهل الكتاب ولاسيما اليهود، وأشياءٌ فيها وضعها الوضّاعون في الإسلام لمآرب اقتضتها العواطف والمؤثرات الخاصة". وظلّ الناس يتداولون هذه الأخبار على أنها تاريخ الجاهلية حتى انتهت إلى المستشرقين، فتناولوها بالنقد استناداً إلى طرق البحث ومناهجه، وتفتّحت بذلك آفاقٌ واسعةٌ في عالم التاريخ الجاهلي لم تكن معروفة^(١). وقد دفعني هذا النقص - بالإضافة إلى السبب الذي ذكرته أولاً - إلى توجيه عنايتي لدراسة هذا التاريخ بدءاً بمجتمع العرب قبل الإسلام.

١ - جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١٠ ج)، بيروت، دار العلم للملايين، ط ١٠، ١٩٧٠م، ج ١، ص ٤٢.

الباب الأول

البنى الاجتماعية للعرب قبل الإسلام

الفصل الأول

جغرافية بلاد العرب

على الرغم أن موضوعنا في منطلقه هو بحثٌ تاريخيٌّ صرفٌ إلا أن ارتباط هذا البحث التاريخي بمعارف اللغة وثيقٌ، ومن ثمَّ عقدنا العزم على أن نبتدئ دراستنا التاريخية بمبحثٍ لغويٍّ، ولَمَّا وجدنا أنه سيطول أثرنا أن نُفرد بالبحث ليكون مستهلاً لدراستنا. على أن دراستنا اللغوية لن نلجَّ فيها من مذهب أهل اللغة من حيث هي لغةٌ جامدةٌ مرتبطة بنحوٍّ وصرفٍ أو نحوهما، ولكن مدخلنا فيها لن يتأتى إلا من تاريخ هذه اللغة من حيث هي كائنٌ حيٌّ متطورٌ إلى أن تنتهي بأخر مبحث في هذه الدراسة وهو شكلُ النسخة المطبوعة من نصِّ القرآن الذي بين أيدينا الآن.

ومن أبرز أسس علوم اللغة عند المحدثين من أهل اللغة ربط هذه العلوم بالعلوم الأخرى، كعلم النفس، والاجتماع، والأجناس، والجغرافية، والتاريخ.. وغيرها من العلوم الإنسانية. ويتنامى هذا الاتجاه نحو ربط العلوم اللغوية بالعلوم الحديثة التقنية والتطبيقية وما يتصل بذلك من الآلات والمعارف والأجهزة الدقيقة.. ولقد أدرك مؤرِّخونا الأقدمون طبيعة علاقة اللغة بالتاريخ؛ فوصفوا أحوال اللغة العربية وما يطرأ عليها في فصاحتها ولهجاتها ولحنها في الأقاليم والأمصار، وأحوال متكلميها من عربٍ وغير عربٍ، ومما يُشار إليه من ذلك على سبيل المثال ما كتبه البلاذريُّ في كتابه «فتوح البلدان»

والهمدانيُّ في كتابه «صفة جزيرة العرب» والمقدسيُّ في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم». فلقد عرَّض هؤلاء - وغيرهم - في كتبهم لأحوال اللغة أو اللغات العربية استكمالاً لأبحاثهم التاريخية، ورسدوا لتطوُّر العربية وانتشارها في الآفاق، فكان لهم بذلك السبق إلى إدراك ما لصلة اللغة بالتاريخ من أثرٍ وأهمية لا يمكن إغفالها. لكن بحث المؤرِّخين الأوائل في هذا الميدان لم يكن كافيًّا، ولم يُعْنَ بتتبع التفاصيل، أو يُفرد كتبًا بأعيانها لهذا الغرض؛ إنما كان ذلك من شأن أهل اللغة الذين استقصوا أوضاع اللغة على ألسنة متكلِّميها، فكانت جهودهم شتَّى؛ وُزِّعَتْ بين الأحكام النظرية والجدل العلمي، وبين البحث الميداني والتطبيقي. وكانت ظواهر اللحن والمعيارية واللهجات وتعليم اللغة من المشاغل الكبرى التي شغلت بال الخلفاء والأمراء والعلماء، وكان استقراء تلك الظواهر منطلقًا موضوعيًّا وسبيلًا سلميًّا إلى إيجاد الحلول المناسبة لتفادي مضاعفاتها السلبيَّة على اللغة والدين. وكان مبدأ تنقية اللغة، ووضع القواعد، ودراسة اللهجات، ووضع كتب «لحن العوام».. كل ذلك وغيره كان لصون العربية، ولترسيخ وحدتها، ولتعميم فصاحتها.. وفي الوقت نفسه كانت تلك الجهود لونها من أشكال التأريخ عند العرب. على أن ذلك كله - وللأسف - انشغل به أهل اللغة خاصة، فلم ترَ من أهل التاريخ من التزم في كتابة مؤلَّفٍ

يُخَصُّ به اللغة، كذلك لم نَرَهُم يعبأون بدراسة تاريخ هذه اللغة، إنما قَصَرَ جهد اللغويين على بحث سلامة اللغة لوضع قواعدها وضوابطها، فضاع بذلك كمُّ هائلٌ من هذا التاريخ ما نلتمس بعضاً منه في حواشي كتب التاريخ واللغة والتفسير وغيرها، ومن ثمَّ آثرنا أن نفرده بالبحث حتى يتأتَّى لنا دراسة تاريخ النصِّ القرآني.

ودائماً ما ترتبط الأصول الأولية لأي لغةٍ بأشكال سلوك متحدثيها، ويرتبط هذا السلوك البشري للمتحدثين باللغة العربية ارتباطاً عضوياً بالبيئة الجغرافية التي وُلِدَتْ فيها هذه اللغة ونشأت وتطوّرت. وأدَّت البيئة الجغرافية دوراً بارزاً في تطوُّر مسار تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده من خلال تأثيرها على الجغرافية البشرية لسكان شبه الجزيرة العربية؛ فالإنسان وليد بيئته، وإذا كانت بيئته تتباين بشكلٍ واضحٍ من مكانٍ إلى آخر، ينتج عن ذلك بالضرورة اختلافٌ في تطوُّره في المناطق المختلفة. وفي هذا التمهيد البسيط سنحاول الإلمام بجغرافية شبه الجزيرة العربية وأقسامها الطبيعية من حيث الوضع الجغرافي، الوضع الطبيعي، التركيب والبنية.

- حدود بلاد العرب وأقسامها :

إذا أريد ببلاد العرب شبه الجزيرة العربية فقط، فإن حدودها وأقسامها معروفة، وإلا فإن بلاد العرب تشمل بلداناً وأماكن أكثر من

حدود شبه الجزيرة العربية. وقد يظنُّ البعضُ أن موطن العرب هو شبه الجزيرة العربية فقط، والحاصل أن ذلك ليس صحيحًا، إلا أنها كانت مساكن أكثرهم، وأهم مساكنهم^(١). وتختلف حدود بلاد العرب باختلاف الأعصر والدول، فقد كانت لهم مساكن فيما حول شبه جزيرة العرب، ومن ثم أضيفت إليهم، وهي أراضٍ رأى بعضُ قدامى الكُتَّاب - من يونان ولايتين وسريان - أنها من مساكن العرب؛ وذلك لأن العرب قد سكنوا العراق من غرب الفرات حتى بلغوا أطراف الشام، كما سكنوا فلسطين وسيناء إلى ضفاف النيل الشرقية حتى أعالي الصعيد، وكان المصريون منذ قديم الزمان يعتبرون كل ما هو شرقي بلادهم إلى حدود بابل بلادًا واحدةً يسكنها العرب، ومن ثمَّ فقد أطلقوا عليها اسم «العربية» و«بلاد العرب» لأن أغلب سكانها كانوا عربيًا^(٢).

١ - أحمد أمين: فجر الإسلام، القاهرة، دار الشروق، ط٢، ٢٠١٥م، ص٢٥.
٢ - المقرئزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني): البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: عبد المجيد عابدين، القاهرة، قطاع المعاهد الأزهرية، د.ط، ٢٠٠٦م، ص٨٩؛ م.ت. هوتسا وآخرون: دائرة المعارف الإسلامية (٣٣ج)، تحقيق: إبراهيم زكي خورشيد وآخرون، مؤسسة الشارقة للإبداع الفكري، ط١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ج٦، ص٤٨٠؛ جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٢٩؛ مصطفى كامل شملول الشريف: عروبة مصر من قبائلها، القاهرة، المطبعة العالمية، د.ط، ١٩٦٥م، ص٢٢؛ جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص١٤٣؛ أحمد

وقد أدخل العرب في بلادهم سيناء وفلسطين وسوريا؛ فحدودها عندهم تبدأ من قنسرين في الشمال على شاطئ الفرات، وهو رأس حدّها الشرقي ويمتدّ مع الفرات في مسيره جنوباً شرقياً حتى يصبّ في البحر عند البصرة ومنها على شاطئ الخليج العربي، ثم ينعطف غرباً جنوبياً بشواطئ بحر العرب، وينعطف شمالاً غربياً على شواطئ البحر الأحمر إلى خليج العقبة وساحل راية إلى القلزم (السويس)، ومنها إلى البحر المتوسط، ويسير فيه على شواطئ فلسطين وسوريا، فيمرّ بسواحل عسقلان والأردن وبيروت إلى قنسرين حيث بدأ. وذلك أقرب إلى التحديد الطبيعي؛ لأن الأصل في الحدود أن تكون نهرًا أو أبحرًا أو جبالاً عالية^(١).

وتقع شبه الجزيرة العربية في جنوب غرب آسيا أشبه ما تكون بمستطيل غير متوازي الأضلاع تحيط بها البحار من ثلاث جهات: الخليج العربي وبحر عُمان من الشرق، والبحر الأحمر من الغرب، وبحر

مختار عمر: تاريخ اللغة العربية في مصر والمغرب الأدنى، بيروت، مكتبة عالم الكتب، ط ١، ١٩٩٢م، ص ١٢-١٣؛

De lacy O'leary, Arabia Before Muhammad, London & New York, Kegan Paul, Trench & CO, LTD, E.P. Dutton, & CO, 1927, P. 5.

١- جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص ٢٩.

العرب والمحيط الهندي من الجنوب^(١). وتزيد مساحتها على مليون ميل مربع أو ثلاثة ملايين كيلومتر مربع، ومن ثمَّ ليس بين أشباه الجزر شبه جزيرة أكبر من شبه جزيرة العرب في المساحة^(٢).

وأما أقسام شبه الجزيرة العربية الجغرافية فهي أربعة أقسام: شرقيُّ شماليُّ يبدأ في الجنوب بالخليج العربي من شواطئ عمان فبلاد البحرين إلى مصب دجلة والفرات ثم على طول الفرات إلى أعالي سورية، وغربيُّ شماليُّ يمتدُّ من الفرات شرقي سورية وفلسطين إلى خليج العقبة، وشرقيُّ جنوبيُّ على طول البحر الأحمر إلى باب المندب، وجنوبيُّ غربيُّ هو بحر العرب على شواطئ اليمن وحضرموت و«الشحر» إلى شواطئ عمان^(٣). وأما أبعاد شبه الجزيرة العربية، فيبلغ طول ساحلها الغربي من

١- سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، ترجمة: عفيف البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٦٧م، ص٥؛ جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعبيتر، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط١، ٢٠١٣م، ص٤٤؛ جعفر الخليلي: الملخص لكتاب العرب واليهود في التاريخ، بغداد، منشورات وزارة الثقافة، ط٢، ١٩٧٩م، ص٢٦؛ حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم - تعريف بالقرابات اللغوية والحضارية عند العرب، دمشق، دار القلم، ط٢، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ص٥.

٢- جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص١٤٠؛ محمود عرفة محمود: العرب قبل الإسلام، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٥م، ص١٧؛ توفيق برو: تاريخ العرب القديم، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط٢، ١٩٩٦م، ص١٩-٢٠؛ محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ط٢، د.ت، ص٩٣.

٣- جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٢٩.

رأس خليج العقبة شمالاً حتى خليج عدن جنوباً ١٤٠٠ ميلاً، ويبلغ طول ساحلها الشرقي من رأس الخليج العربي شمالاً حتى رأس الحد جنوباً ١٦٠٠ ميلاً، أما عرضها في أضيق نطاقٍ بين البحر الأحمر غرباً والخليج العربي شرقاً فهو ٧٥٠ ميلاً، وأما بين خليج عُمان شرقاً والبحر الأحمر غرباً، فيصل الاتساع إلى ١٢٠٠ ميلاً^(١).

ويطلق العلماء العرب عليها اسم جزيرة العرب، قد علّل البعض تسميتهم هذه بأن مياه دجلة والفرات تحدّانها من الشمال عند اقترابها في أعالي الشام^(٢)، بالإضافة إلى المياه التي تحيط بها من الجهات الثلاث الأخرى^(٣). ومن ثمّ كان التعليل "إحاطة البحار والأنهار بها من

١- محمود طه أبو العلا: جغرافية شبه الجزيرة العربية (٤ج)، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، د.ط، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، ج١، ص٥-٧؛ حسين الشيخ: العرب قبل الإسلام، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، د.ط، ١٩٩٣م، ص٥٩؛ أحمد أمين سليم: معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، مكتب كريديه إخوان، د.ط، د.ت، ص٣.

٢- وهذا يُدخل الشام كلها وبعض العراق في شبه جزيرة العرب ويزيد في مساحتها زيادة كبيرة. ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله البغدادي): معجم البلدان (٥ج)، د.ت، بيروت، دار صادر، د.ط، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ج٣، ص١٠٠؛ عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، بيروت، دار العلم للملايين، د.ط، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م، ص٢٦؛

L.D. Stamp, Asia, An Economic and Regional Geography, New York, E.P. Dutton, & CO, 1962, P.133.

٣- الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود بن سليمان الأرحبي البكيلي): صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوخ الحوالي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ط١، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ص٤٥-٤٨؛ ياقوت الحموي: المصدر نفسه؛ الألويسي

أقطارها وأطرارها (أطرافها) فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر؛ وذلك لأن الفرات القافل من بلاد الروم قد ظهر بناحية قنسرين، ثم انحط على الجزيرة وسواد العراق، حتى دُفع في البحر من ناحية البصرة والأبلة وامتدَّ إلى عبادان^(١)، أو «لأن بحر فارس (الخليج العربي) وبحر الحبش (البحر الأحمر) والفرات ودجلة أحاطت بها، وهي أرض العرب ومعدنها»^(٢).

ولقد ذهب بعض علماء التوراة إلى أن بلاد العرب في التوراة هي مواطن «الإسماعيليين» و«القطوريين»، أي البوادي التي نزلت بها القبائل المنتسبة إلى إسماعيل وقطورة^(٣)، وهي قبائل بدوية كانت على

(محمود شكري البغدادي): بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (ج٣)، القاهرة، دار الكتاب المصري، ط٢، د.ت، ج١، ص١٨٤؛ أحمد الشامي: في تاريخ العرب والإسلام - حضارة العرب قبل الإسلام (حياة محمد وظهور الإسلام)، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٩٨٥م، ص٧-٨.

١- الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٤٧؛ البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد): معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (ج٤)، تحقيق: مصطفى السقا، بيروت، عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٣هـ، ج١، ص٦-٧؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٣٧.

٢- البكري: المصدر السابق، ج١، ص٦.

٣- قطورة: هي قطورة أو قطورا بنت يقطن من الكنعانيين على رأي، وبنت مقطور من العرب العاربة، والتي كانت قبيلتها تسكن على مقربة من مكة على رأي ثانٍ، وهي زوجة النبي إبراهيم الثالثة بعد سارة وهاجر، وقد رزق منها بستة أبناء: زمران ويقشان ومدان ومديان ويشبان وشوحا. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين، إصحاح: ٢٥، آية:

اتصال بالعبانيين، وهي بوادٍ تقع شمال شبه الجزيرة العربية، وفي الأقسام الشمالية منها^(١).

ويرى بعض علماء الجيولوجيا أن شبه الجزيرة العربية ما هي إلا امتداداً طبيعياً للصحارى الإفريقية التي يفصلها عنها الآن منخفض البحر الأحمر^(٢)، وأنه في جزء من العصر الجليدي كانت هذه الصحارى مناطق خضراء أهلة بالسكان، ولما كانت طبقات الجليد التي غطت أجزاءً كبيرةً من آسيا في هذه الفترة السحيقة لم تتجاوز جبال آسيا

١-٢؛ محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل (٥ج)، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، د.ط، ١٩٩٩م، ج١، ص٢١٣-٢١٤.

١- جواد علي: المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص١٤٣-١٤٤؛ محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص٩٤-٩٥؛

J. Hastings, A Dictionary of the Bible, Edinburgh, 1963, Vol. 1, P.585.

٢- يرى بعض الباحثين أن البحر الأحمر لم يكن وحده نتيجة خسف أصاب بلاد العرب ففصلها عن إفريقيا إلا من جهة شبه جزيرة سيناء، بل إن سواحل بلاد العرب الأخرى، أي السواحل الجنوبية والشرقية تعرّضت هي أيضاً لهزات عديدة، فخشفت في مواضع عديدة مثل عدن، حيث تكوّن خليج عدن، ومثل الخليج العربي، وكانت هذه الهزات والتصدّعات استجابة لتصدّع واهتزازات حدثت في الشمال على مقربة من حدود بلاد الشام، فامتدت إلى وادي الأردن والبحر الميت فوادي عربة إلى خليج العقبة. وهكذا تعرّضت جزيرة العرب في عصور سحيقة في القدم قبل الميلاد لهزات وتحركات أرضية، حتى جعلتها على الشكل الذي نراها عليه الآن. جواد علي: المرجع السابق، ج١، ص١٤٣؛

B.R. 527 Restricted, Western Arabia And Red sea, Geographical Handbook, Series For Official Use Only, 1946, Naval Intelligence Division, P. 11.

الصغرى جنوباً، فإن شبه الجزيرة العربية لم تُصَرَّ وظلَّت دائماً أهلة بالسكان^(١)، هذا رغم عدم وجود أنهارٍ دائمة الجريان بها، ولكن أودية يجري بها الماء حيناً ويجفُّ حيناً آخر، وهي غير صالحة للملاحة^(٢).

وقد اختلف الجغرافيون على تقسيمات شبه الجزيرة العربية؛ فقدماء الجغرافيين والمؤرخون والرحالة اليونان والرومان قسموها إلى ثلاث مناطق هي: العربية السعيدة (Arabia Felix) والعربية الصحراوية (Arabia Deserta) والعربية الصخرية، وترجمت بالعربية الحجرية كذلك (Arabia Petrae)^(٣). وهذا التقسيم يتفق مع الناحية السياسية التي كانت عليها بلاد العرب في القرن الأول الميلادي؛ فالقسم الأول مستقل، والقسم الثاني قريبٌ من الرومان ثم أصبح تحت نفوذهم، وأما القسم الثالث فهو بادية الواقعة في الشمال إلى حدود نهر الفرات^(٤).

١- جان جاك بيربي: جزيرة العرب، ترجمة وتحقيق: نجدة هاجر وسعيد الغز، القاهرة، المكتب التجاري للطباعة والنشر، ط١، ١٩٦٠م، ص٢٠؛ توفيق برو: تاريخ العرب القديم، ص١٩؛ فيليب حتى: تاريخ العرب، بيروت، دار الكشاف للنشر والطباعة، ط١٢، ٢٠٠٧م، ص١٥؛ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي (١٠ج)، القاهرة، دار المعارف، ط٢٤، د.ت. ج١ (العصر الجاهلي)، ص١٧.

٢- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص١٤٣؛ أحمد أمين: فجر الإسلام، ص٢٥؛ أحمد الشامي: في تاريخ العرب والإسلام، ص٩؛ حسين الشيخ: العرب قبل الإسلام، ص٦٠.

٣- جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٣٠؛ جواد علي: المرجع السابق، ج١، ص١٦٣؛ محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص٩٥-٩٦.

٤- جواد علي: المرجع نفسه؛

وقد أشير إلى العربية السعيدة والعربية الصحراوية في الموارد (الكلاسيكية) القديمة مثل جغرافية سترابون (Strabo)^(١). ويرى بعض العلماء أن القسم الآخر وهو العربية الصخرية هو من إضافة بطليموس الجغرافي، ومن ثم فهو أحدث عهداً في التسمية من التسميتين الآخرين، وقد قصد به برية شبه جزيرة سيناء والمرتفعات الجبلية المتصلة بها في شمالي الحجاز وجنوبي البحر الميت وما يتصل بها من فلسطين إلى الأردن^(٢). ولم يأخذ الجغرافيون العرب بهذا التقسيم (الكلاسيكي)، مع أنهم وافقوا على بعض مؤلفات الجغرافيين اليونان كبطليموس^(٣)، إلا أن جزيرة العرب عندهم هي (العربية السعيدة) في اصطلاح أكثر الجغرافيين اليونان والرومان^(٤).

Christina Phelps Grant, The Syrian Desert, London, Macmillan, 1937, P. 10; C.h. Forster, The Historical Geography Of Arabia, London, London, Duncan and Malcolm, 1844, Vol II, P. 109.
1 - Strabo, Geographica, Translated by: Hamilton & H.L. Jones, In 6 Vols, London, 1912, 1917, 1932, 1949, Vol III, P. 309.

٢- جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص ٣٠؛ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ج ١، ص ١٧

William Smith, A Dictionary Of The Bible: comprising its antiquities, biography, geography, and natural history, London, Houghton, Mifflin, and Co, 1890, Vol I, P. 91.

3 - C.H. Forster, The Historical Geography Of Arabia, Vol II, P. 109; Edward Gibbon, The Decline And Fall Of The Roman Empire, London, Everyman's, 1931, Vol V, P. 209.

٤- جرجي زيدان: المرجع نفسه؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١،

(١) العربية السعيدة (Arabia Felix) :

أما العربية السعيدة فهي أكبر الأقسام الثلاثة رقعة، ويُقال لها في اليونانية (Arabia Beata) و (Arabia Eudaimon)، وتشمل كل المناطق التي دعاها الكتّاب العرب - من مؤرخين وجغرافيين كما يفهم من مؤلفاتهم - «جزيرة العرب» أو «بلاد العرب». وهذا القسم ليس له حدود شمالية ثابتة؛ لأنها تتبدّل وتتغيّر طبقًا للظروف السياسية، فضلًا عن قوة أو ضعف تلك الكيانات السياسية التي تقع إلى الشمال منها، ويتجه البعض إلى أن جهل القدماء بداخل بلاد العرب، هو الذي دعاهم إلى احتساب هذا الجزء من بلاد العرب السعيدة أو الخضراء، مع أنه في الواقع يعتبر من بلاد العرب الصحراوية، وأما الجزء الذي يمكن أن يطلق عليه «بلاد العرب السعيدة»، فهو الجزء الجنوبي الغربي، حيث تقع بلاد اليمن^(١)؛ لغنى محاصيلها وتنوعها، ولاعتدال مناخها، على النقيض من المناطق مستعرة الحر وراءها، وقد أدّت الظروف منذ الألف الأولى قبل الميلاد، إلى قيام مجتمعات سياسية مستقرة في تلك المنطقة، امتد أثرها إلى الساحل الأثيوبي المقابل في صورة تجارة واسعة،

ص ١٦٣؛ توفيق برو: تاريخ العرب القديم، ص ٢٢.
١- محمد مبروك نافع: عصر ما قبل الإسلام، القاهرة، مطبعة السعادة، ط ٢، ١٩٥٢م، ص ٥١.

وموجات من المهاجرين المستوطنين^(١). ولكن يمكن القول أن بلاد العرب السعيدة في رأي أكثر الكتاب اليونان والرومان من مدينة (هيروبوليس) (Heropolis) على مقربة من مدينة السويس، ثم تسير حدود العربية الحجرية الجنوبية، ثم تحترق الصحراء حتى تتصل بمناطق (أهوار كلديا) عند موضع (Thapsacus). وقد أدخل بعض الكتاب هذه الأهوار في جملة العربية السعيدة، وجعلها بعضهم خارجةً عنها بحيث يمرُّ خط الحدود في جنوبها إلى أن تتصل بمصبِّ شطِّ العرب إلى الخليج^(٢). وعُرِفَت البادية الواسعة التي هي جزءٌ من صحراء النفود الكبرى والتي تمرُّ بها حدود العربية السعيدة الشمالية عند اليونان باسم (Eremos)، وهي امتدادٌ لبادية الشام^(٣).

١ - سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ترجمة: السيد يعقوب بكر، مراجعة: محمد القصاص، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، د.ط، ١٩٩٧م، ص ٣٥؛

Diodorus Siculus, Library of History, Translated by: C.H. Old father, Cambridge, Harvard University Press, 1933, Vol XI, P. 48.
2 - Ptolemy, Geographia, Edited By: C.F. Nobbe & Müller, 3 Vols. Leipzig, 1843-1845, Vol I, PP. 2, 7, 27; Strabo, Geographica, Vol XVI, PP. 2-4; A. Musil, Arabia Deserta, A Topographical Itinerary, New York, 1927, P. 498; W. Smith, A Dictionary Of Bible, 3 Vols, London, Oxford University Press, 1888, Vol I, P. 98; A. Grohmann, Arabian, Munchen, 1963, P. 4.

٣ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٦٤؛
A. Musil, OP-Cit. P. 499.

(٢) العربية الصحراوية (Arabia Deserta) :

تُعرف بلاد العرب الصحراوية عند اليونان باسم (Arabia Eremos)^(١). وقد عرفها الكُتَّاب والجغرافيون اليونان الأوائل وكتبوا عنها؛ فقد ترك سترابون بعض الملاحظات عنها معتمداً على كتابات كل من إيراتوسـثينيس (Eratosthenes) وأرتيميـدوروس (Artemidoruse)، وكتب عنها أيضاً كل من ديودور الصقلي (Diodorus Siculus) وأريانوس (Arrian)، إلى جانب كتابات هيرودوتس (Herodotus) وزينفون (Xenophon)^(٢).

أما هيرودوتس فقد أطلق على تلال مصر الشرقية المحاذية لساحل البحر الأحمر اسم جبال بلاد العرب (Mountains of Arabia)، وقال عنها: "وقد كانت هذه الجبال مصدر الصخور التي بنى الفراعنة منها أهراماتهم في ممفيس (Memphis) وأن امتداد الجبال الشرقية هذه (أي عبر البحر الأحمر المواجه للساحل المصري) على مسافة مقدارها

1 - A. Musil, OP-Cit. PP. 407, 511; P.K. Hitti, History Of The Arabs From The Earliest Times To The Present, London, 1989, P.44.

٢- سامي سعيد الأحمد: نظرة في جغرافية شبه الجزيرة العربية في المصادر اليونانية القديمة، مجلة العرب، دار اليمامة للبحث والنشر والترجمة، مج ٣، ٧٤، السنة الثالثة، إبريل ١٩٦٩ م، ص ٥٩٦.

شهرين (على خيل أو حمير في غالب الأمر) كثيرة البخور"^(١). فعلى حد تعبير هيرودوتس فإن التلال الشرقية في مصر تمتد عبر البحر الأحمر إلى جبال السراة التي تسير بموازاة الساحل الغربي في شبه الجزيرة العربية. وفي مكان آخر حينما يقارن هيرودوتس التربة المصرية مع تربة الأقطار المجاورة فيقول بأن «الأراضي السورية والعربية مكونة من صخور وأتربة»^(٢). ووصف هيرودوتس هذا للتربة العربية يصدق على تكوينات منطقة الحماد التي يذكر من اخترقها من الرحالة أنها مؤلفة من الحجر الجيري وهي مناطق ذات أحجارٍ وصخورٍ وحصى وأتربة^(٣).

وقد ذكر زينفون بلاد العرب لأوّل مرّة عندما ذكر الأمم التي غزاها كورش الأكبر (Cyrus) إذ قال: "ولكن كورش... بدأ حملاته بعصبة صغيرة من الفرس صار بعدها زعيمًا للميديين (Medes) بحكم اختيارهم ثم الهيركانيين (Hyrcanians) بمحض رغبتهم ثم غزا بعد ذلك سوريا وآشور وبلاد العرب"^(٤). ولا نريد هاهنا مناقشة هذه

1 - Herodotus, The Persian Wars (8 Vols), Edit & Translated By A.D. Godley, London, 1928, Vol II, P. 8.

2 - Herodotus, OP-Cit, Vol II, P. 12.

3 - David Gorges Hogarth, The penetration of Arabia, New York, 1904, PP. 3, 162; Naval Intelligence Division of Great Britain Geographical Handbook Series, Western Arabia And The Red Sea, London, 1944, P. 197.

4 - Xenophon, Cyropaedia (4 Vols), Translated & Edit By Walter

العبارة من الناحية التاريخية؛ حيث وردت فيها بعض الأخطاء الواضحة، ولكن أميل إلى الاعتقاد أن المقصود فيها من كلمة بلاد العرب هو القسم الذي يتاخم نهر الفرات من بلاد العرب الصحراوية. ثم يقول: "وبنفس الوقت غزا الملك الآشوري كل سوريا... وجعل من ملك بلاد العرب تابعاً له"^(١). وبالطبع لا نعرف من هو هذا الملك الذي لم يذكر زينفون لنا اسمه، ولكن أغلب الظن عندي أنه كان من شيوخ القبائل التي تآخمت مضاربها البلاد السورية.

وفي عبارة أخرى يقول زينفون بأنه عندما كان كورش الأكبر "في طريقه إلى بلاد بابل أخضع فرجيا وكبادوكيا وجلب العرب تحت حكمه"^(٢)، فعرب زينفون - دون شك - هم الذين يقطنون حول نهر الفرات. ولم ينس زينفون ذكر اسم الحاكم الذي عينه هذا الملك الفارسي لحكم بلاد العرب التي أخضعها - على حد تقديره - وهو ميكابيزوس (Mecabyzus)^(٣).

ويذكر أريانوس طريقاً كانت تربط مصر مع بلاد بابل عبر شبه الجزيرة العربية «وبالنسبة إلى رجال جيش قمبيز الذين وصلوا بسلاسة

Miller, London, 1914, Vol I, P. 1.

1 - Xenophon, OP-Cit, Vol I, P. 2.

2 - Xenophon, Ibid, Vol I, P. 2.

3 - Xenophon, Ibid, Vol I, P. 7.

وأمان من مصر إلى سوسة والرجال الذين أرسلهم لبابل بطليموس بن لاجوس (الأول) إلى سلوقوس نيكاتور فقد ذهبوا عبر مضيق بلاد العرب (Isthmus of Arabia) قاطعين ثمانية أيام في بلاد خالية من الماء صحراوية. فقد ذهبوا بسرعة راكبين الجمال حاملين على ظهورهم الماء الذي يحتاجونه ومسافرين أثناء الليل. ففي النهار لم يكن بمقدورهم البقاء تحت السماء لشدة الحر؛ فالبلاد ما بعد هذه المنطقة تمتد من الخليج العربي حتى البحر الأحمر بالضرورة خالية من السكان، والأقسام التي تمتد إلى شأها صحراوية ورملية^(١). ومضيق بلاد العرب هو بالطبع خليج العقبة، فأى طريق سلكه هؤلاء إلى بابل من مصر؟ فهل اتبعوا الطريق من العقبة إلى وادي السرحان فالجوف فالواديان الثلاثة (سكاكة، بدنة، عرعر) ثم إلى نهر الفرات فبابل؟ فالزمرتان اللتان قطعنا الطريق في أوقات مختلفة (الأولى حوالي سنة ٥٢٠ ق.م، والثانية حوالي سنة ٣٢٠ ق.م. أي بفارق حوالي مائتي سنة) سلكتا - دون شك - طريقاً واحدةً تظهر أنها كانت مطروقة ومعروفة طوال هذه المدة. وربما يكونوا قد سلكوا طريقاً أخرى تبدأ من المضيق العربي إلى تيماء والتي اتخذها الملك البابلي نبونيد حوالي سنة ٥٤٠ ق.م

1 - Arrian, *Anabasis Of Alexander the Great And Indica* (4 Vols), Translated by P.A. Brunt, Edit by Edward James Chinnick, London, Harvard University Press, 2013, Vol I, P. 43.

قاعدةً ومركزًا لملكه سكنها بنفسه نحوًا من عشر سنوات^(١)، ثم إلى موقع مدينة حائل الحالية، فبابل. ولكن الطريق الثانية أطول من الطريق الأولى. وربما أخطأ أريانوس في عدد الأيام؛ فإن قطع المسافة يستلزم وقتًا أطول بقليل من الأيام الثانية التي ذكرها، كذلك فقد ذكر أن المسافرين كانوا يسيرون الليل فقط. وعلى أي حال، فلربما كانت مبالغة أريانوس هنا ضئيلة إن لم يكن كلامه صحيحًا إذا ما كانوا قد أخذوا الطريق الأولى.

ومن الأمور التي تعرّض لها أريانوس هي رغبة الإسكندر المقدوني في الذهاب إلى الأراضي العربية ذاتعة الصيت (بلاد العرب السعيدة)؛ حيث يقول: "ولهذا السبب فقد أبحر الإسكندر في نهر پللاكوتاس (Palla Cottas) واستمر برحلته في ذلك النهر إلى الأهوار المؤدية إلى بلاد العرب"^(٢). فنهر الپللاكوتاس هو نفسه على الأكثر نهر الأبكللاتيوم (Apkallatum) في جنوب العراق، والذي يجري من الغرب إلى الشرق ويصب في نهر الأراختو (Arakhtu) إلى الجنوب من مدينة بابل ويشكّلان سوية نهرًا واحدًا يصبُّ فيه بعد ذلك وإلى الجنوب

١ - محمد بيومي مهران: دراسة حول العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة، الرياض، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، ٦٤، ١٩٧٦م، ص ٣٥٢؛

A. Gradiner, *Egypt of The Pharaohs - An Introduction*, London, Oxford University Press, 1966, P. 363.

2 - Arrian, *OP-Cit*, Vol I, P. 43.

من مدينة نُفَّرَ (نيبور Nippur) نهر أيتورونكال (Iturungal)^(١). ولكن السير في هذا النهر والأهوار المتصلة به لا يؤدي في النهاية إلى بلاد العرب السعيدة، إلا إذا كانت تلك البلاد في نظر الإسكندر الأكبر أو أريانوس (الذي كتب عن حملات هذا الملك في آسيا) عبارة عن الأراضي المطلة على البحر العربي (الخليج العربي)^(٢). ولكن كلام أريانوس عن البحر العربي أمثال إشارته إلى جزيرة إيكاروس (Icarus) التي تبعد على حد تقديره ١٢٠ ستاديام عن الساحل الجنوبي لبلاد الرافدين وغاباتها الكثيفة وغزلانها المحببة لدى أرتميس (Artemis) ومعبد أرتميس فيها، ثم إلى جزيرة تيلوس (Tylus) دلون قديماً والبحرين حالياً، لم يذكر كون هذه المناطق أجزاء من بلاد العرب السعيدة^(٣).

1 - Sami Said Ahmed, *Southern Mesopotamia in The Time of Ashurbanipal*, Paris, Hugue, 1968, PP. 22-23.

٢- ورد ذكر الخليج العربي بأسماء مختلفة مثل: ساينوس برسيكوس (Sinus Persicus) وبرسيكوس كولوبوس (Periscus Colopos) والبحر الفارسي (Persicy Thelassa) و(Perisco Polagos) و(Persicus Sinos). جواد علي: *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، ج ١، ص ١٤٠؛ سامي سعيد الأحمد: *نظرة في جغرافية شبه الجزيرة العربية في المصادر اليونانية القديمة*، ص ٥٩٩.

3 - Arrian, *Anabasis Of Alexander the Great And Indica*, Vol II, P. 1.

أما المؤرخ ديودور الصقلي فقد أمدنا ببعض الملاحظات التي نرى ضرورة في التعليق عليها؛ فبعض الأراضي من بلاد العرب الصحراوية قد دمجها ديودور في بلاد العرب الصخرية "هذه البلاد (أي بلاد العرب) تقع بين سوريا ومصر، ومقسمة بين شعوب ذات مزايا وصفات متباينة. والآن نرى الأجزاء الشرقية مسكونة من قبل العرب الذين يسمون بالأنباط، ويعيشون في منطقة جزء منها صحراوي وآخر قاحل لا ماء فيه، ولو أن هناك جزءاً صغيراً خصباً مثمرًا"⁽¹⁾. ولو أن هذه العبارة صحيحة من الوجهة التاريخية فدولة الأنباط قد اشتملت على أقسام صحراوية واسعة، وخاصة في صحارى النقب وشبه جزيرة سيناء وبعض الأقسام الشمالية الغربية من المملكة العربية السعودية. ولكن على ما يبدو فإن ديودور لم يكن لديه خط واضح فاصل بين العربية الصحراوية والصخرية كما عند الجغرافيين الرومان.

والعربية الصحراوية عند ديودور هي المناطق التي تسكنها القبائل المتبدية، وتقع في شمالها وشمالها الشرقي - في نظره - أرض مملكة تدمر. وأما حدّها الغربي والشمالي الغربي حتى ملتقاها بالعربية الصخرية، فتدخل في جملة بلاد الشام. وأما حدودها الشرقية، فتضرب في البادية إلى الفرات. فأراد بها البادية إذن، وقد جعل من سكانها الآراميين

1 - Diodorus Siculus, Library of History, Vol II, P. 48.

والأنباط^(١). وتقابل العربية الصحراوية ما يقال له «أربي» عند الآشوريين، و«ماتو أربي» عند البابليين، و«أرباية» عند السريان والفرس^(٢).

وبصدد رأي ديودور في موقع بلاد العرب السعيدة يقول: "ذلك الجزء من بلاد العرب الذي يتاخم الأرض الصحراوية الخالية من الماء يختلف عنها في كثرة فواكهه وطيب صفاته الأخرى، ولهذا السبب فقد أطلق عليه بلاد العرب السعيدة"^(٣). ثم يستمر بالقول: "ذلك الجزء من بلاد العرب ككل والذي يقع إلى الجنوب يسمّى بلاد العرب السعيدة، ولكن الأقسام الداخلية منه تحوي أعدادًا غفيرةً من العرب الرحالة الذين اختاروا حياة الخيام ورعي الحيوانات ومضاربهم كثيرة السعة"^(٤).

ويظهر من العبارتين السابقتين بأن ديودور قد قصد بالعربية السعيدة المناطق المطلّة على الخليج العربي فقط. ويؤكّد افتراضنا هذا في

1 - Diodorus Siculus, Library of History, Vol II, P. 54; Musil, Arabia Deserta, A Topographical Itinerary, P.499.

٢- جواد علي: المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٦٥؛ محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ٩٥؛ أحمد أمين سليم: معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٥.

3 - Diodorus Siculus, OP-Cit, Vol II, P. 48.

4 - Diodorus Siculus, Ibid, Vol II, P. 54.

اعتقاد ديودور العبارة التالية التي يقول فيها: «إن المنطقة التي تقع بين هذا القسم (أميل إلى الاعتقاد أنه يقصد به منطقة الحَمَاد) والعربية السعيدة هي صحراء خالية من الماء والأقسام من البلاد العربية التي تقع إلى الغرب من نجد فيها الصحارى الرملية كالفضاء في سعتها والتي يجد المسافرون فيها أنفسهم كماخري عباب البحر يهتدون في مسيرهم بعلامات»^(١). والصحراء الغربية هذه التي يذكرها ديودور لا تعدو صحراء النفود التي تجثم على الحافة الجنوبية الغربية من بلاد العرب الصحراوية.

وهذه العبارة - إلى جانب ذلك كله - تؤكِّد اقتناع ديودور بأن بلاد العرب السعيدة هي تلك المناطق المطلَّة على الخليج العربي. ويضيف إلى براهيننا حولها قوله: "فالبلاد التي تقع على طول البحر تكون فوق بلاد العرب السعيدة، ولما كانت تقطعها الأنهار العظيمة فإن الكثير من مناطقها مغطَّاة بالمياه الراكدة ومساحاتٍ شاسعةٍ من المستنقعات"^(٢)؛ فالزاوية الشمالية الشرقية والشمالية من الخليج العربي تقع الأهوار الكلدانية (في جنوب العراق) يقطعها بالطبع نهر دجلة والفرات. ويشارك ديودور زينفون بأن المنطقة المحاذية لنهر الفرات

1 - Diodorus Siculus, Library of History, Vol II, P. 54.

2 - Diodorus Siculus, OP-Cit, Vol II, P. 54.

جزء من بلاد العرب أيضًا والصحراوية بالطبع؛ حيث يكتب ما نصُّه:
"والجزء المتبقي من بلاد العرب الذي يقع باتجاه سوريا فيه الكثير من
الفلاحين وتجار مختلف الأصناف"⁽¹⁾.

وعندما نأتي على المعلومات الجغرافية التي ذكرها سترابون نجد
فيها إلى جانب غزارة المعلومات الشخصية ما نقله من المؤرخين
والجغرافيين الآخرين الذين لم تصل إلينا كتاباتهم بعد؛ فسترابون يذكر
لنا ما كتبه كلُّ من إيراتوشينيس وأرتيميدوروس عنها. فيخبرنا
سترابون معلقًا على كتاباتِ هوميروس (Homer) عن جزيرة العرب
يقول فيها: "وبالنسبة إلى الهند فإن هوميروس جاهلٌ بأحوالها؛ فلو كان
يعرف عنها لما كان قد أعرض عن ذكرها، ولكن هوميروس يعرف عن
بلاد العرب التي تُدعى في الوقت الحاضر بالبلاد المباركة (Blest). وفي
زمنه لم تكن ثرية، ولم تكن خالية من الموارد فحسب، بل كانت مسكونة
من قِبَل ساكني الخيام"⁽²⁾.

والغالب عندي أن سترابون عنى بلاد العرب السعيدة بينما قصد
هوميروس من بلاد العرب المناطق الصحراوية الشمالية، واعتقد
سترابون خطأً بأنه وهوميروس إنما يتكلمان عن منطقةٍ واحدة. وإن أوَّل

1 - Xenophon, Cyropaedia, Vol I, P. 1.

2 - Strabo, Geographica, Vol I, P. 32.

تعليقٍ لسترابون عن بلاد العرب الصحراوية عندما وضع الأقطار في تسلسلٍ جغرافيٍّ: "وبعد بلاد الرافدين تأتي الأقطار التي تقع على هذا الجانب الآخر من نهر الفرات، وهذه هي كل بلاد العرب السعيدة، والتي يحدُّها كل سواحل المضيق العربي والخليج الفارسي، وكل البلاد التي يقطنها ساكنو الخيام والقبائل التي تحكمها الشيوخ والتي تصل إلى الفرات"^(١). ومن ثم نلاحظ أن سترابون قد وضع منطقة على شكل مثلث الصحراء العربية وقاعدة المثلث عند رأس الخليج الفارسي (الخليج العربي حالياً) والمضيق العربي (خليج العقبة). ولا نعرف هل أدخل سترابون في تعبيره (المضيق العربي) خليج السويس أم لا.

وأما الحدود الشمالية والغربية والجنوبية لبلاد العرب الصحراوية فيقدِّم سترابون تعقيب إيراتوستينيس عنها: "فقد قال عن الحدود الشمالية أو الصحراء والتي هي قسم من بلاد العرب والواقعة بين بلاد العرب السعيدة والسهل السوري الأوسط (Coele-Syria) (المنطقة بين السلسلة الغربية من جبال لبنان وامتدادها) وهضبة فلسطين الوسطى، وممتدَّة حتى نهاية الخليج العربي أي عند مدينة هيريس (Heraes) عند نهاية المضيق العربي قرب نهر النيل والحافة في اتجاه بتراء الأنباط حتى بابل هي ٥٦٠٠ ستاديام، وإن جميع الرحلة كانت في اتجاه

1 - Strabo, OP-Cit, Vol I, P. 32.

شروق شمس الصيف وخلال أقطار القبائل العربية القريبة، وأقصد بها قبائل الأنباط والجولويتين (Chaultaeans) والأكرين (Agraeans)^(١). وفوق هذه تقع بلاد العرب السعيدة التي تمتد إلى مسافة ١٢ ألف ستاديوم جنوبًا باتجاه المحيط الأطلسي"^(٢).

ومن هذه العبارة يتضح بأن كلمة المضيق العربي عند سترابون ربما قصد بها نفس ما قصده إيراتوسثينيس في شمولها لخليج السويس أيضًا؛ فقد أطال إيراتوسثينيس حدود البلاد العربية الصحراوية من الشمال العربي وجعلها حتى مدينة هيرابوليس في نهاية خليج السويس، ولكنه وضع الحد الجنوبي لها عند مدينة بابل. ولكن هذا الخط للحدود نفسه يختلف عن تقديرات سترابون الذي يجعل المسافة أقل بما تتي ميل، مع العلم أن الأخير يضع الحد هذا بالخط الذي يصل بين المضيق العربي (خليج السويس حاليًا) والخليج الفارسي (الخليج العربي حاليًا) لا مدينة بابل. وأورد سترابون بعض التعليقات عن الحدود الشرقية

١- الجولويتين والأكرين: لا نعرف عنهما شيئًا، وربما كانت عاصمتهم من منطقة الجوف وسيطرون بذلك على القسم الأوسط من بلاد العرب. أما الأكرين فربما كانوا من سكان السواحل الشرقية (شواطئ الخليج العربي الحالي)؛ علمًا بأن إيراتوسثينيس الذي ذكرهم قد وضعهم في تسلسل جغرافي مع الأنباط والجولويتين، وهذا التحديد الجغرافي لهذه الأقسام يطابق هذا التسلسل.

Musil, Arabia Deserta, A Topographical Itinerary, P. 498.

2 - Strabo, Geographica, Vol XVI, P. 2.

والجنوبية الشرقية لبلاد العرب الصحراوية، منها قوله: "فالفرات والبلاد التي وراءه تؤلف حدود الإمبراطورية الفرثية، ولكن الأقسام على هذا الجانب من النهر فهي تحت سيطرة الرومان ورؤساء القبائل حتى بلاد بابل"^(١). ثم أضاف إلى هذا بأنه يحدُّ سوريا من الشرق نهر الفرات والعرب سكان الخيام على جوانب هذا النهر. ومن هذا يظهر بأن سترابون يشعر بأن حدود بلاد العرب الشرقية هو نهر الفرات؛ وذلك عندما يجعل منطقة شيوخ القبائل العربية حتى بلاد بابل والتي تكون بحد ذاتها الحدود الجنوبية لهذه المنطقة.

وعن الحدود الجنوبية الشرقية يقول سترابون: "تبدأ بلاد العرب على جانب بلاد بابل ومايسين (Maecene)، وأمام مايسين تقع الصحراء العربية على جوانب واصل والأهوار الكلدانية على الجانب الآخر"^(٢). إذن فسترابون يضع منطقة مايسين في بلاد العرب، ويظهر من فحوى عبارته بأن مايسين تقع على طول الخليج العربي في بلاد بابل قرب مصبات نهري دجلة والفرات، ويحدّها من الشمال الغربي الصحراء العربية ومن الجنوب الغربي الأهوار الكلدانية. ولما كانت هذه الأهوار تبدأ آنذاك بحوالي ٦٠ كيلومترًا إلى الجنوب والجنوب الغربي

1 - Strabo, OP-Cit, Vol XVI, P. 28.

2 - Strabo, Geographica, Vol XVI, P. 1.

من بابل، فإن بلاد العرب الصحراوية على هذا الأساس لا بد وأنها تصل في زعمه إلى قرب مدينة الحيرة القديمة (الكوفة والنجف حالياً)^(١)، وهذا ربما يعني أن سترابون اعتبر الأهوار الكلدانية التي تنتشر في الجنوب الشرقي جزءاً من بلاد العرب السعيدة، وهي إذاك كانت تشغل مساحة واسعة من جنوب العراق، ويُفهم منها (بادية السواة)، وعُرفت عند بطليموس الجغرافي باسم (Amardocaea)، وهي تمتد حتى تتصل ببطائح خليج مسينوس أو ميسان (Maisaios Kolpos)، الذي يكون امتداد الخليج العربي (Persikos Kolpos)، وكل ما وقع جنوب ذلك الخط الوهمي عُدَّ في بلاد العرب السعيدة^(٢).

وقد ذكر إيراتوشينيس وأرتيميدوروس وسترابون خطأً للمواصلات في المنطقة الجنوبية. ويذهب هذا الخط إما من بابل أو من منطقة جيررا (Gerra) في الأحساء على الخليج العربي إلى الشمال نحو البتراء مارًا بمنطقة الجوف. وذكر فيليب كريستيان جرانت (Phelps Christian Grant) بأن الجزء الأوسط من هذا الطريق والذي يمرُّ في

١ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٦٥.

2 - A. Musil, Arabia Deserta, A Topographical Itinerary, PP. 500, 503; E.D. Meineke, Stephan of Byzantium Ethnica, Ethnorum Quae Supersunt, Berlin, Berolini & Reimer, 1849, P. 237.

صحراء النفود يصل حدًا يستحيل معه المرور^(١). ويؤيد أ. موزل (A. Musil) صعوبة هذه الطريق؛ مضيفًا بأن تركيبات الحمم البركانية للترتبة مسئولة عن هذه الصعوبة^(٢). والفرات يشكّل الحدّ الشرقيّ لبلاد العرب الصحراوية؛ "فالقسم الواقع قرب النهر (الفرات) تسكنه الأعراب من سكان الخيام الذين ينقسمون إلى عدة حكوماتٍ صغيرةٍ وتعيش في مساحاتٍ قليلةٍ قاحلةٍ لحاجتها إلى الماء... وبعد هؤلاء الناس تقع صحراء رملية واسعة"^(٣). وقد أدرك سترابون بأن الصحراء العربية هي جزء من الصحارى الممتدة إلى شمال أفريقيا^(٤).

وهكذا، فقد قسّم الجغرافيون اليونان في كتاباتهم شبه الجزيرة العربية إلى منطقتين رئيسيتين؛ هما: (بلاد العرب السعيدة)، ومنطقة ثانية أطلقوا عليها أسماء متعددة مثل: (البلاد الصحراوية في الشمال) و(الأراضي الصحراوية الخالية من الماء بالشمال) و(ذلك الجزء من بلاد العرب الواقع باتجاه سوريا). فالبقاع التي لم يضعوها ضمن بلاد العرب السعيدة قد اشتملت عليها بلاد العرب الشمالية، وهي التي وُصِفَت بأنها صحراوية (Eremos). ولم يفرّق الجغرافيون اليونان - كما أسلفنا

1 - P.C. Grant, *The Syrian Desert, Caravans, travel and exploration*, London, A& C Black Macmillan, 2015, P. 36.

2 - A. Musil, *Arabia Deserta, A Topographical Itinerary*, P. 265.

3 - Strabo, *Geographica*, Vol XVI, P. 1.

4 - Strabo, *OP-Cit*, Vol II, P. 33.

- بين بلاد العرب الصحراوية والصخرية؛ حيث يكون الفاصل بينها صعباً جداً بالنسبة إليهم. فاعتبار الجغرافيون اليونان شمال شبه الجزيرة العربية منطقةً واحدةً يمكن ملاحظته في تعليق أريانوس على سفرتي قمبيز وبطليموس الأول عبر صحراء جرداء.

واعتبر إيراتوستينيس الخط الفاصل بين بلاد العرب السعيدة والصحراوية هو ذلك الذي يبدأ من مدينة هيرابوليس إلى بابل ماراً في مدينة البتراء. علمًا بأن الجغرافيين اليونان والرومان من بعدهم لم يضعوا صحراء النفود الكبرى ضمن بلاد العرب الصحراوية؛ بل جعلوها جزءاً من بلاد العرب السعيدة. وفي المسافات فإن التقدير الذي أعطاه إيراتوستينيس للمسافة بين مدينتي هيرابوليس وبابل ب ٥٦٠٠ ستاديام (أي ٧٠٠ ميل) هو تقديرٌ صحيحٌ؛ فالمسافة أكثر بقليل من هذا الرقم، وتقدير المسافة بين الحد الجنوبي لبلاد العرب الصحراوية والمحيط الأطلسي ب ١٢ ألف ستاديام (أي ١٥٠٠ ميل) هو رقم لا بأس به أيضاً^(١).

ومن ثمّ، فمعلومات الجغرافيين اليونان وأوصافهم تطابق صفات الصحراء السورية التي سُمّوها بالعربية الصحراوية مع فارقٍ واحدٍ هو

١- سامي سعيد الأحمّد: نظرة في جغرافية شبه الجزيرة العربية في المصادر اليونانية القديمة، ص ٦٠٤.

الحد الغربي. أما الأجزاء الأخرى من شبه الجزيرة العربية فكانت غير معروفة لهم البتة؛ فلم نقرأ في كتاباتهم عن مدن لها قيمتها وشأنها كتياء ودومة الجندل، ولم يذكروا وادي السرحان، والذي ذكره الجغرافيون تحت اسم «سيرميون - بيديون» (Syrmaion-Pedion)، وهو وادٍ كثير الأهمية، ما يدل على أنهم لم يذهبوا إلى هذه المناطق؛ وإنما اعتمدوا في الكتابة عنها على معلومات شفوية متداولة، وإن كان هذا لا يعني أن التغلغل اليوناني في مناطق بلاد العرب الشمالية كان معدومًا؛ فهناك معالم كثيرة يغلب عليها الطراز اليوناني في فنون العمارة، إلى جانب كثرة ما وُجِدَ بها من النقود اليونانية^(١).

(٢) العربية الصخرية أو الحجرية (Arabia Petreae) :

وأما العربية الصخرية أو الحجرية، فتشمل الأراضي التي كان يسكنها الأنباط، ويُطلق ذلك الاسم - أي العربية الصخرية - على شبه جزيرة سيناء ومملكة الأنباط^(٢). وكانت حدود هذه المنطقة تضيق وتتسع بحسب الظروف السياسية للأنباط؛ ففي عهد الحارث الرابع

١- سامي سعيد الأحمد: المرجع نفسه؛ محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ٩٧-٩٨.

٢- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٦٦؛ محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ٩٦؛ أحمد أمين سليم: معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٤.

(Aretas IV Philopatris) - ملك الأنباط (٩ : ٤٠ ق.م) - اتسعت حدودها حتى بلغت نهايتها الشمالية عند دمشق^(١)، ولما ضَعُفَ أمر النبط، استولى الامبراطور تراجان سنة ١٠٦ م على هذه المنطقة، وضمَّها إلى المقاطعة التي كوَّنها الرومان وأطلقوا عليها اسم (المنطقة العربية) (Provincia Arabia)^(٢). ويظهر من وصف ديودور الصقلي لهذه المنطقة أنها في شرق مصر وفي جنوب البحر الميت، وجنوبه الغربي، وفي شمال العربية السعيدة وغربها، وأن الأنباط كانوا يقيمون في المنطقة الجبلية منها، فضلاً عن المرتفعات المتصلة بها في شرق البحر الميت ووادي عربة، وفي جنوب اليهودية، وحتى الخليج العربي (خليج العقبة)^(٣)، وأما الأقسام الباقية منها، فقد سكتها قبائل عربية دعاها الكتاب اليونان والرومان «سبئية»، الأمر الذي تكرر كثيراً في كتاباتهم عن القبائل التي كانوا لا يعرفون أسماءها، والتي كانت تقطن فيما وراء نفوذ الأنباط والرومان^(٤)، ولعلهم يعنون بذلك أنها قبائل جنوبية في

1 - P.K. Hitti, *History Of The Arabs From The Earliest Times To The Present*, PP. 44, 68.

٢- جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٦٦.

3 - Diodorus Siculus, *Library of History*, Vol II, P. 48; A. Musil, *Arabia Deserta, A Topographical Itinerary*, P. 499.

٤- جواد علي: المرجع السابق، ج ١، ص ١٦٦-١٦٧؛ سامي سعيد الأحمد: نظرة في جغرافية شبه الجزيرة العربية في المصادر اليونانية القديمة، ص ٥٩٧؛ محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ٩٦؛ أحمد أمين سليم: معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٤-٥؛

غالب الأمر. ويرى بعض الباحثين أنها إضافة من بطليموس الجغرافي، وقد قصد بها شبه جزيرة سيناء، وما يتصل بها من فلسطين والأردن^(١).

- التقسيم العربي لبلاد العرب:

للأسف لا نستطيع أن نتحدث عن وجهة نظر الجاهليين في تقسيمهم لبلادهم؛ لعدم ورود شيء من ذلك في النصوص والروايات التي يرويها عنهم الرواة المسلمون وأهل الأخبار. أما الجغرافيون والمؤرخون المسلمون القدماء وتبعهم المحدثون في ذلك، فقد اكتفوا بشبه الجزيرة العربية، فأخرجوا منها البادية الواسعة، وأخرجوا القسم الأكبر مما دعاه الجغرافيون الكلاسيكيون من اليونان والرومان بلاد العرب الحجرية منها كذلك. ومن ثم، فشبه جزيرة العرب في اعتباراتهم هي وحدها بلاد العرب السعيدة عند اليونان والرومان^(٢).

وقد حدث خلافٌ بين الجغرافيين المسلمين في تقسيم بلاد العرب؛

فيرى المدائنيُّ (ت ٢٢٥هـ / ٨٤٣م) أنها تشتمل على خمسة أقسام:

A. Musil, OP-Cit, P. 499; A. Musil, The Northern Of Hegaz, New York, Published Under the Patronage of the Czech Academy of Sciences and Arts and of Charles R. Crane, 1926, P. 309.

1 - William Smith, A Dictionary Of The Bible, Vol 1, P. 91.

2 - C.h. Forster, The Historical Geography Of Arabia, Vol II, P. 112.

الحجاز، وتهامة، واليمن، واليهامة (وتسمى أيضًا العروض)، ونجد^(١).
ويُرجعون أقدم رواياتهم في تقسيمهم هذا إلى عبد الله بن عباس (ت
٦٨هـ / ٦٨٧م)^(٢). وزاد ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) في أقسامها:
بادية العراق، وبادية الجزيرة فيما بين دجلة والفرات، وبادية الشام^(٣).
وقسمها جغرافيو اليمن قسمين: يمن وشام؛ فقال الهمداني (ت
٣٣٤هـ / ٩٤٥م): "هي عند أهل اليمن يمن وشام؛ فجنوبها اليمن،
وشمالها الشام ونجد وتهامة"^(٤). وجعل المقدسي البشاري (ت ٣٨٠هـ /
٩٩٠م) جزيرة العرب: "أربع كور جليلة، وأربع نواحٍ نفيسة، والكور
أولها: الحجاز، ثم اليمن، ثم عمان، ثم هَجَرَ. والنواحي: الأحقاف،
والأشجار، واليهامة، وقرح"^(٥).

-
- ١- المفضل الضبي (أبو العباس المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر): المفضليات، تحقيق: عمر فاروق الطباع، بيروت، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط١، ١٩٩٨م، ص٤١٦؛ الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٤٧؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٣٧.
 - ٢- الهمداني: المصدر السابق، ص٤٦.
 - ٣- صورة الأرض، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، د.ط، ١٩٦٥م، ص٢٥.
 - ٤- الهمداني: المصدر السابق، ص٥٠.
 - ٥- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط٣، ١٩٩١م، ص٢٤٨.

ويُلاحظ في تقسيم الجغرافيين المسلمين لشبه الجزيرة العربية أن التقسيم لم يكن محددًا بحدودٍ ثابتةٍ؛ فتارة يمتد وأخرى ينحسر، كما أن تقسيم الهمداني وغيره يجعل جنوب شبه الجزيرة العربية كله من اليمن، والشائع غير ذلك^(١).

وعلى الرغم من اختلاف الجغرافيين المسلمين في تقسيمهم هذا، فقد اتفق كثيرٌ من المتأخرين على التقسيم الأول، وكان أساس تقسيمهم هذا «جبال السراة» - أعظم جبال بلاد العرب - وهي سلسلة جبال تبدأ من اليمن، وتمتد شمالاً حتى أطراف بادية الشام، على مدى ١١٠٠ ميل تقريباً^(٢). وقد أضاف بعض الكتاب قسماً سادساً هو البحرين - والذي يسمّى كذلك «هَجَرَ» - وهو في نظر البعض جزء من اليمامة، وفي نظر آخرين جزء من العراق، وأخيراً فهناك من يقسم بلاد العرب إلى قسمين اثنين؛ الأول: اليمن والحجاز، والآخر: تهامة ونجد واليمامة^(٣).

١- عبد الوهاب عزام: مهد العرب، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط١، ٢٠١٢م، ص ٢٥.

٢- محمود طه أبو العلا: جغرافية شبه الجزيرة العربية، ج ١، ص ٣٤-٣٦؛ محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ٩٨؛ أحمد أمين سليم: معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٥-٦.

٣- محمد مبروك نافع: عصر ما قبل الإسلام، ص ١٨.

١- الحجاز:

وأما سبب تسميته حجازًا، فقد نُقِلَ عن الحسن البصري (ت ١١٠هـ/ ٧٢٨م) أنه قال: "سُمِّي الحجاز حجازًا، لأنه حجز على الأنهار والأشجار"^(١). قال الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ/ ٧٨٦م): "إنما سُمِّي الحجاز حجازًا لأنه فصل بين الغور والشام وبين البادية"^(٢). وقال ابن الكلبي (ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م): "إن الحجاز هو ما حجز بين اليمامة والعروض، وفيما بين اليمن ونجد. فصارت نجد ما بين الحجاز إلى الشام، إلى العذيب"^(٣). والطائف من نجد، والمدينة من نجد، وأرض العالية والبحرين إلى عمان من العروض"^(٤). وذكروا عن الأصمعي (ت ٢١٦هـ/ ٨٣١م) أنه قال: "سُمِّي حجازًا لأنه احتُجِرَ بالجبال"^(٥). وذكر بعضهم أنه قال^(١): "لأن

١- البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، ج ١، ص ١١.

٢- البكري: المصدر نفسه؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢١٨؛ ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الإفريقي): لسان العرب (٥٥٥ج)، تحقيق: علي عبد الله الكبير، القاهرة، دار المعارف، ط ١، د.ت، ج ٥، ص ٣٣١؛ القلقشندي (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشا (١٥ج)، تحقيق: يوسف علي الطويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج ٤، ص ٢٤٦.

٣- العذيب: وادي بظاهر الكوفة. البكري: المصدر السابق، ج ٣، ص ٩٢٧.

٤- البكري: المصدر السابق، ج ١، ص ١٠.

٥- البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، ج ١، ص ١١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢١٨.

بلاد الحجاز احتجزت بالحرار الخمس: منها حرّة بني سُليم^(٢) وحرّة واقم^(٣). وذكر بعضهم أنه قال: "ما احتجزت به الحرار - حرّة شوران^(٤) وحرّة ليلي^(٥) وحرّة واقم وحرّة النار^(٦) وعامة منازل بني

١- الأزهري (أبو منصور محمد بن أحمد بن طلحة): تهذيب اللغة (١٥ج)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون وآخرون، راجعه: محمد علي النجار، القاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والأبناء والنشر، ط١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ج٤، ص١٢٢؛ ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص٣٣١.

٢- حرّة بني سليم: في عالية نجد، سميت بسليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان، وتسمى أيضًا حرّة أم صبار. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٢، ص٢٤٦.

٣- حرّة واقم: هي إحدى حرار المدينة، وهي الشرقية، سميت برجل من العاليق اسمه واقم، وقيل: واقم اسم أطم من أطام المدينة. بها مجموعة تلال، وفيها أراضي منبسطة، وسميت الحرّة لأن جزءًا كبيرًا من سطحها مغطى بصخور وحجارة بركانية سوداء تجعلها شديدة الحرارة في الصيف. وتنقسم حرّة واقم باعتبار المنازل الواقعة فيها قديماً إلى خمس مناطق متجاورة، منطقتان كانتا لليهود وثلاثة كانت للأوس. الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٢٦٤؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٢، ص٢٤٩.

٤- حرّة شوران (بفتح الشين، وسكون الواو، وراء وألف ونون): من حرار الحجاز، وهو جبل عن يسارك وأنت بطن عقيق المدينة تريد مكة، وهو جبل مظل على السد مرتفع وفيه مياه كثيرة يقال لها البحيرات. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٣، ص٤٢١.

٥- حرّة ليلي: من حرار الحجاز، لبني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بعض بن ريث بن غطفان، يطؤها الحاج في طريقهم إلى المدينة. وعن بعضهم أن حرّة ليلي من وادي القري من جهة المدينة، فيها نخل وعيون. وقيل هي في بلاد بني كلاب. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٢، ص٢٤٧-٢٤٨.

٦- حرّة النار: حرّة قريبة من حرّة ليلي قرب المدينة، وقيل: هي حرّة لبني سليم من ناحية خير، وقيل: هي منازل جذام وبلى وبلقين وعدرة. وقيل: هي بين وادي القري وتبء من ديار غطفان، وسكنها اليوم عنزة، وهي مسيرة أيام. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٢، ص٢٤٨.

سُلَيْم إلى المدينة - فذلك الشق كله حجاز"^(١). وذكر بعضهم أنه قال: "سُمِّي الحجاز حجازاً لأنه حجز بين تهامة ونجد"^(٢). وذكر آخرون أنه قال^(٣): "الحجاز اثنا عشر داراً: المدينة وخيبر وفدك"^(٤) وذو المروة^(٥) ودار بلي ودار أشجع ودار مزينة ودار جهينة ونفر من هوازن وِجْلٌ وسُلَيْم وِجْلٌ هلال وظهر حرّة ليلي، ومما يلي الشام شَغْب^(٦) ويدا^(٧)".

١- الأزهرى: المصدر نفسه؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٩؛ ابن منظور: المصدر نفسه.

٢- الفاكهي (أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي): أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه (٦ ج)، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، بيروت، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م، ج ٣، ص ٣٩.

٣- البكري: المصدر نفسه؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥٣.

٤- فدك: (بفتح أوله وثانيه): قرية معروفة بالحجاز بينها المدينة يومان أو ثلاثة. وهي غنية بعيونها ونخلها، أفاءها الله على رسوله ﷺ صلحاً في سنة ٧ هـ / ٦٢٩ م، وكانت خالصة له لأنه لم يوجف عليها المسلمين بخيل ولا ركاب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٧٠؛ الفلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج ٤، ص ٢٩٥؛ الحميري (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ط ٢، ١٩٨٤ م، ص ٤٣٧.

٥- ذو المروة: قرية بوادي القرى. وقيل: بين خشب ووادي القرى. البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج ٤، ص ١٠٣٨؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥، ص ١١٢.

٦- شغب: ضيعة خلف وادي القرى. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥٢.

٧- بدا: واد قرب أيلة من ساحل البحر. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٥٦-٣٥٧.

وذكر آخرون أنه قال أيضًا: "الحجاز من تخوم صنعاء من العباءة^(١) وتباله^(٢) إلى تخوم الشام، وإنما سُمِّي حجازًا لأنه حجز بين تهامة ونجد، فمكة تهامية والمدينة حجازية والطائف حجازية"^(٣). وقال عمارة بن عقيل التميمي اليربوعي (ت ٢٣٩هـ / ٨٥٣م): "ما سال من حرّة بني سليم وحرّة ليلي فهو الغور"^(٤) حتى يقطعه البحر، وما سال من ذات عرق^(٥) مغربًا فهو الحجاز إلى أن تقطعه تهامة، وهو حجازٌ أسودٌ حجز بين نجد وتهامة، وما سال من ذات عرق مقبلاً فهو نجد إلى أن يقطعه العراق"^(٦). وقال الزبير بن بكار (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م): "سألت سليمان

١- العباءة: اسم علم لصخرة بيضاء إلى جنب عكاظ. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٤٢.

٢- تباله: موضع من أرض تهامة في طريق اليمن، وهي بقرب الطائف على طريق اليمن من مكة. البكري: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠١؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩.

٣- البكري: المصدر السابق، ج ١، ص ١١؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥٣.

٤- الغور: تهامة وما يلي اليمن، وقيل: ما بين ذات عرق إلى البحر غور تهامة، وطرف تهامة تهامة من قبل الحجاز مدارج العرج، وأولها من قبل نجد مدارج ذات عرق. وقيل: كل ما انحدر سيله مغرباً عن تهامة فهو غور. البكري: المصدر السابق، ج ١، ص ٧؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢١٦.

٥- ذات عرق: ميقات أهل العراق ومن جاء عن طريقهم من أهل المشرق، ويبعد عن مكة مكة مسافة ٩٢ كم. وهو الحد بين نجد وتهامة. وقيل: عرق: جبل بطريق مكة ومنه ذات عرق. البكري: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٥؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٠٧.

٦- البكري: المصدر السابق، ج ١، ص ١١؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٠٧.

سليمان بن عياش السعدي: لَمْ سُمِّيَ الحجاز حجازاً؟ فقال: لأنه حجز بين تهامة ونجد. قلتُ: فأين منتهاه؟ قال: ما بين بئر أبيك بالشُّقْرة^(١) إلى أثاية^(٢) العرَج^(٣). وقال ابن دريد (ت ٣٢١هـ / ٩٣٣م): "إنما سُمِّيَ حجازاً لأنه حجز بين نجد والسراة"^(٤). وقال أبو بكر الأنباري (ت ٣٢٨هـ / ٩٤٠م): "سُمِّيَ حجازاً لأنه يحتجز بالجبال"^(٥). وقال أبو منصور الأزهري (ت ٣٧٠هـ / ٩٨١م): "سُمِّيَ حجازاً لأن الحرار

ص ٢٥٣.

١- الشقْرة (بضم أوله وإسكان ثانيه، بعده راء مهملة): قرية التقت فيها بنو بجيلة ببني سليم فهزموهم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠٢.
 ٢- أثاية: موضع بين الجحفة والمدينة، بينه وبين المدينة ٢٥ ميلاً، ونُسب إلى العرج لأنه قريب منه. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ١، ص ٩٠؛ الفيروز آبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي): المغامم المطابة في معالم طابة، تحقيق: حمد الجاسر، الرياض، دار اليمامة للبحث والنشر والترجمة، ط ١، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م، ص ٧، ٢٥١؛ السمهودي (نور الدين أبو الحسن علي بن عبد الله الحسني): وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (٤ج)، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ، ج ٢، ص ١٦٧.

٣- الزبير بن بكار (أبو عبد الله الزبير بن أبي بكر بكار بن عبد الله): جمهرة نسب قریش وأخبارها (٢ج)، تحقيق: عباس هاني الجراخ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠١٠م، ج ١، ص ٧٣؛ البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج ١، ص ١١.

٤- اليعقوبي (أبو العباس أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب): البلدان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ص ٢٨٩؛ البكري: المصدر نفسه؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٩؛ السمهودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٤.

٥- البكري: المصدر نفسه؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥٢.

حجزت بينه وبين عالية نجد" (١). وقيل: لأنه يحجز بين تهامة ونجد وما سال من ذات عرق مقبلاً إلى نجد إلى أن يقطعه العراق، أو لأنه يحجز بين الشام واليمن والتهائم (٢)، أو بين تهامة والعروض، وفيما بين اليمن والشام (٣)، أو لأنه يحجز بين ساحل البحر الأحمر، وبين النجاد الشرقية المرتفعة بالنسبة إلى الساحل الغربي (٤).

والحجاز منطقة جبلية تقع غرب تهامة، وتمتد رقعته في رأي أكثر الجغرافيين المسلمين من تخوم الشام عند العقبة إلى الليث، وهو وادٍ بأسفل السراة يدفع في البحر، فتبدأ عندئذٍ أرض تهامة (٥)، أو هو من

١- الأزهرى: تهذيب اللغة، ج ٤، ص ١٢٢؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٧، ص ١٩٦؛ المرتضى الزبيدي (أبو الجود وأبو الفيض وأبو الوقت محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الواسطي الحنفي): تاج العروس من جواهر القاموس (٤٠ ج)، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الكويت، وزارة الإرشاد والأنباء، ط ١، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م، ج ١٥، ص ٩٥.

٢- لغدة الأصفهاني (أبو علي الحسن بن عبد الله): بلاد العرب، تحقيق: حمد الجاسر وصالح العلي، الرياض، دار اليمامة للبحث والنشر، ط ١، ١٩٦٨ م، ص ١٤-١٦؛ المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن عبد الله): مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤ ج)، تحقيق: كمال حسن مرعي، بيروت، المكتبة العصرية، ط ١، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م، ج ٢، ص ٣٥-٤٣.

٣- البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، ج ١، ص ١٠-١١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٦٢-٢٦٣؛ محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ١٠٢.

٤- فؤاد حمزة: قلب جزيرة العرب، بورسعيد، مكتبة الثقافة الدينية، ط ١، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م، ص ٩.

٥- ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٧.

تخوم صنعاء من العבלاء وتباله إلى تخوم الشام^(١). وقد ذهب البعض إلى أن تبوك وفلسطين من أرض الحجاز^(٢)، بينما سُمِّي القسم الشمالي من الحجاز بأرض مَدْيَنَ وَحُسَمِي نسبة إلى السلسلة الجبلية المسماة بهذا الاسم، التي تتجه من الشمال إلى الجنوب^(٣)، وتتخللها أودية محصورة بين التيه وأيلة من جهة، وبين أرض بني عُذرة من ظهر حرّة نهيل من جهة أخرى^(٤)، وأرض حُسَمِي أرض خصبة كثيرة المياه، وكانت قبائل جذام تسكن هذه المناطق قبل الإسلام، وفي أيامنا هذه تسكنها عرب الحويطات، والذين يعتقد المستشرقون أنهم من بقايا النبط، وبها بقايا أثرية كثيرة^(٥). وينسب الحجاز شرقاً في هضبة نجد الفسيحة التي تنحدر من الغرب إلى الشرق حتى تتصل بأرض العروض وهي بلاد

١ - لغدة الأصفهاني: بلاد العرب، ص ١٤.

٢ - ياقوت الحموي: المصدر نفسه.

٣ - البكري: المصدر السابق، ج ١، ص ١٢؛ ياقوت الحموي: المصدر نفسه؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٦٧؛ محمد بيومي مهراڤ: المرجع نفسه؛ Handbook Of Arabia, By British Admiralty, Vol I, P. 96.

٤ - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧٦؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١٥، ص ٢٤.

٥ - أحمد أمين سليم: معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٨؛

C.M. Doughty, Travels in Arabia Deserta, 2 Vols, New York, Published by Jonathan Cape, 1946, Vol I, P. 624.

اليمامة والبحرين^(١). ويعتبر الحجاز من أهم مناطق شبه الجزيرة العربية لأن الطريق التجاري القديم الذي كان يربط بين الشام واليمن يمر به^(٢).

٢- تهامة:

ورد اسم تهامة في النصوص العربية الجنوبية «تهمت» و«تهمتم»^(٣)، وقد حاول بعض الباحثين إيجاد صلة بين هذه اللفظة وكلمة (Tiamtu)، التي تعني البحر في البابلية، وبكلمة «تيهوم» (Tehom) العبرانية^(٤). بينما يتجه جواد علي إلى أن الكلمة ترجع إلى أصل سامي قديم، له علاقة بالمنخفضات الواقعة على البحر، ومن ثم فهي شديدة الرطوبة والحرارة في الصيف، ومن هنا سُمّيت تهامة، من التهم، وهو شدة الحر وركود الرياح^(٥)، كما أن هناك من يرى أن التهمة هي الأرض المتصوّبة نحو البحر^(٦). ولعل انخفاض أرض تهامة كان

١- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ج ١، ص ١٩.

٢- حسين الشيخ: العرب قبل الإسلام، ص ٦١.

3 - Encyclopedia of Islam, 1913-1936, Vol IV, P. 1155.

4 - E. Schrader, Die Keilinschriften und das Alte Testament, Berlin, Verlag von Reuther & Rechard, 1903, P. 492.

٥- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٧٠.

٦- البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج ١، ص ٣٢٢؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٦٣-٢٦٤؛ محمد مبروك نافع: عصر ما قبل الإسلام، ص ٢١.

هو السبب في أن يسمّى بالغور وبالسافلة^(١). وعلى أي حال، تبدأ حدود تهامة - في رأي بعض الجغرافيين - من المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الأحمر من اليمن جنوباً إلى العقبة شمالاً^(٢).

ويقال لتهامة الغور، وهي الأراضي التي على ساحل البحر الأحمر ممتدة عرضاً إلى سلسلة جبال السراة. واختلفوا فيها كما اختلفوا في الحجاز؛ فقد قال الأصمعيُّ: "إذا تصوبت من ثنايا العرج واستقبلت الأراك والمرخ فقد أتممت"^(٣). وقال الأصمعيُّ في موضعٍ آخر: "طرف تهامة من قبل الحجاز مدارج العرج وأول تهامة من قبل نجد ذات عرق"^(٤). وقال عمارة بن عقيل: "ما سال من الحرتين - حرة سليم وحرّة ليلى - فهو تهامة"^(٥). وقال ابن الأعرابي (ت ٢٣١هـ / ٨٤٥م): "وتهامة ما بين ذات عرق إلى مرحلتين من وراء مكة"^(٦). وقال الرياشيُّ

١- ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣٧؛ حسين الشيخ: المرجع نفسه؛ أحمد أمين سليم: معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٧.

٢- ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٧؛ السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب - عصر ما قبل الإسلام، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، د. ط، ٢٠٠٦م، ج ١، ص ١٠٩؛ جواد علي: المرجع نفسه؛ محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ١٠١.

٣- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٧٤.

٤- ياقوت الحموي: المصدر نفسه.

٥- ياقوت الحموي: المصدر نفسه.

٦- البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، ج ١، ص ١٦؛ ابن منظور: لسان

الرياشيُّ (ت ٢٥٧هـ / ٨٧١م): "سمعتُ الأعراب يقولون: إذا انحدرت من ثنايا ذات عرق فقد أتهمت"^(١).

وتتألف تهامة من عدة تهائم؛ فهناك تهامة اليمن، وتهامة عسير، وتهامة الحجاز، وفي الواقع أن هذه التهائم ليست في المنطقة الساحلية السهلة فحسب، ولكنها تشتمل كذلك على أكثر المناطق الواقعة إلى المنحدر الغربي لسفوح جبال الحجاز^(٢)، وتختلف تهامة في عرضها باختلاف قرب السلاسل الجبلية من البحر وبعدها عنه، وقد يبلغ عرض تهامة خمسين ميلاً في بعض الأماكن^(٣)، وقد تضيق أرض تهامة في أماكن أخرى إلى أن تصبح الهضاب القريبة من الساحل متصلة بالشاطئ رأساً، هذا إلى أن أكثر هذه المنطقة الساحلية رملي شديد

لسان العرب، ج ٢، ص ٣٠٧؛ الخطاب الرعيني (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن): مواهب الجليل لشرح مختصر خليل (ج ٨)، تحقيق: زكريا عميرات، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٧م، ج ٤، ص ٤٢؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٨، ص ٢١٥.

١- ابن منظور: المصدر السابق، ج ١٤، ص ٣٤٠؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ١٦، ص ٨١.

٢- الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٢٥٨-٢٦٠؛ حسين الشيخ: العرب قبل الإسلام، ص ٦١؛ فؤاد حمزة: قلب جزيرة العرب، ص ١٨؛ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ج ١، ص ١٨.

٣- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٦٧؛ محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ١٠١؛ أحمد أمين سليم: معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٧-٨.

الحرارة، قليل الإنبات، كما أن جميع المدن الساحلية تقع في هذه المنطقة^(١). وترتفع أرض تهامة الجنوبية الواقعة على بحر العرب ما اتجهت نحو الشرق، وتتكون فيها سلاسل من التلال مؤلفة من حجارة كلسية ترجع إلى العهود الجيولوجية الحديثة أو من حجارة بركانية^(٢).

٣- اليمن:

تمتد اليمن على طول المحيط الهندي جنوبًا، ويحدها البحر الأحمر من الغرب، والحجاز من الشمال، وفيها التهائم والنجد^(٣). وحدها في عُرف بعض العلماء من وراء «تثليث» وما سامتها إلى صنعاء، وما قاربها إلى حضرموت والشحر وعمان، إلى عدن و«أبين» وما يلي ذلك من التهائم والتجود. وقيل: يفصل بين اليمن وباقي شبه الجزيرة العربية خط يأخذ من حدود عُمان و«يبرين» إلى ما بين اليمن واليامة فيلى حدود «المهجيرة» و«تثليث» و«كثبة» و«جرش» ومنحدرًا من جبال السراة إلى «شعب عنز» و«شعب الجبل» أعلاه إلى تهامة إلى «أم جحدم» إلى البحر إلى جبل يقال له «كرمل» بالقرب من «حمضة»، وذلك حد ما

١- فؤاد حمزة: المرجع السابق، ص ١٨-١٩؛ شوقي ضيف: المرجع نفسه.

٢- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٦٧؛

Encyclopedia of Islam, Vol IV, P. 769.

٣- محمد بيومي مهران: محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ٩٨؛

أحمد أمين سليم: معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٦.

بين كنانة واليمن من بطن تهامة^(١). واليمن في رأي القلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) - قطعة من جزيرة العرب، يجدها من الغرب بحر القلزم (الأحمر)، ومن الجنوب بحر الهند (المحيط الهندي)، ومن الشرق بحر فارس (الخليج العربي)، ومن الشمال حدود مكة، حيث الموضوع المعروف بـ«طلحة الملك»، وما على سمت ذلك إلى بحر فارس^(٢). وهكذا لم تقتصر بلاد اليمن على الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية فحسب، ولكنها شملت كل دويلات جنوب شبه الجزيرة العربية، كسبأ وأوسان وحضر موت وعمان وغيرها.

٤- العروض:

وأما العروض، فتشمل اليمامة والبحرين وما والاها، وسُمّيت عروضًا لأنها تعترض بين اليمن ونجد والعراق^(٣). وأغلب الأراضي

١- الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ١٢٠، ١٢٥، ١٧٥، ١٨٨؛ البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج ١، ص ١٦؛ الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج ١، ص ٢٠٢؛ جواد علي: المرجع السابق، ج ١، ص ١٧٠-١٧١؛

Encyclopedia of Islam, Vol IV, PP. 769, 1155.

٢- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٥، ص ٦؛ محمود طه أبو العلا: جغرافية شبه الجزيرة العربية، ج ٣-٤، ص ٨؛ محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٩٩.

٣- لغدة الأصفهاني: بلاد العرب، ص ٣٣٦؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١١٢؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٧٤؛ السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، ج ١، ص ١١٢؛ محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ١٠٤.

فيه صحارى وسهول ساحلية ترتفع في الجهات الغربية عن ساحل البحر^(١).

ومن أقسام العروض، شبه جزيرة قطر التي تمتد من عُمان إلى حدود الأحساء^(٢). وقد عُرِفَت عند بلينوس الأكبر (Gaius Plinius Secundus) بـ(Cataraei)^(٣). ويلى شبه جزيرة قطر الأحساء، وكان يقال لهذه المنطقة قديماً «هَجَرَ» والبحرين^(٤). والقسم الأكبر من الأحساء سهل صحراوي، ويتخلله كثيرٌ من التلال، يتجه بعضها باتجاه وادي المياه وجبل الطف^(٥). والمنطقة الساحلية سبخة في الغالب، وتكثر فيها الآبار التي لا تبعد مياهها كثيراً عن سطح الأرض^(٦).
وأما اليمامة، فقد سُمِّيت كذلك نسبة إلى اليمامة أشهر بلادها، والتي كانت تُعرف من قبل «جو والقرية»^(٧)، وهذا التغيير في الاسم

١ - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٨٣؛ جواد علي: المرجع نفسه.

٢ - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٢٣.

3 - Pliny, The Natural History, Translated by Harris Rackham, London, Harvard University Press, 1940, Vol XXVIII, P. 147.

4 - Handbook Of Arabia, Vol I, P. 298.

٥ - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٦، ص ٥١.

٦ - جواد علي: المرجع السابق، ص ١٧٤-١٧٥؛

Handbook Of Arabia, Vol I, P. 298.

٧ - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٤٢؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١٥، ص ١٣٥؛ جواد علي: المرجع السابق، ج ١، ص ١٧٨؛ محمد بيومي مهران: المرجع نفسه.

حدث - طبقاً لروايات الأخباريين - بعد القضاء على «طَسَم» التي كانت تسكن الخضراء، و«جَدِيس» التي كانت تسكن الخضرمة^(١). وقد عدّها ياقوت الحموي من نجد، وجعل قاعدتها «حُجْر»^(٢). وكانت عند ظهور الإسلام عامرة ذات قرى ومدن منها منفوحة، وبها قبر الشاعر ميمون بن قيس المعروف بالأعشى^(٣). وأما القرية فقد قال عنها الهمداني: "فإن تيامنت شربت ماءً عادياً، يسمّى قرية، إلى جنبه آبار عادية وكنيسة منحوتة في الصخر"^(٤). والظاهر أن هذا الموضع كان من المواضع الكبيرة المعروفة، ولا يُعقل تسمية الياومة بالقرية لو لم يكن لهذا الموضع شهرة بالغة. ويبدو أن هناك عدة عوامل أثرت في الياومة وفي أواسط شبه الجزيرة العربية؛ فحوّلت أراضيها إلى مناطق صحراوية، في حين نجد بعض الكتب تذكر أنها كانت غزيرة المياه، ذات آبار وعيون^(٥).

١- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد): تاريخ الرسل والملوك (١٠ ج)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ط ٢، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ج ١، ص ٦٣٠.

٢- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٨، ص ٥١٦.

٣- الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ١٦٢؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٨، ص ١٦٢.

٤- الهمداني: المصدر السابق، ص ١٥٢.

٥- جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٨٠؛ محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ١٠٥.

وأما البحرين أو «هَجَرَ»، فهي منطقة تمتد من البصرة شمالاً إلى عُمان جنوباً، وتتكوّن من: قطر، والتي تمتد من عُمان إلى حدود الأحساء، ثم الأحساء، وكانت تسمّى قديماً «هَجَرَ والبحرين»، والتي "سُمّيت بالبحرين من أجل نهرها محلم ولنهر عين جريب"^(١)، وأغنى مناطق الأحساء، منطقة الأحساء والقطيف في الجنوب؛ حيث تكثُر بها المياه من آبار وعيون^(٢).

وبحذاء هَجَرَ في الجنوب الغربي من مدينة القطيف تقع «العقير»، وهي الآن ميناء صغير^(٣)، وعلى مقربة منها تقع خرائب، يعتقد البعض أنها موضع «Gerrhaei» «جرهاء» (الجرعاء)، المدينة التجارية القديمة

١- الهمداني: المصدر السابق، ص ٢٧٩-٢٨٠؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٣؛ محمد بيومي مهران: المرجع نفسه؛

Handbook Of Arabia, By British Admiralty, Vol I, P. 298.

٢- ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٦، ص ٥١؛ حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ١، ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م، ص ٦٧؛ جواد علي: المرجع السابق، ج ١، ص ١٧٥؛ أحمد أمين سليم: معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٩.

٣- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، ص ٩١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٦، ص ١٩٨؛ حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين، ص ٧٢؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٧٥؛

Handbook Of Arabia, Vol I, P. 308; R.E. Cheesman, In Unknown Arabia, London, Macmillan, 1926, P. 27.

التي بلغت شهرتها اليونان والرومان، وكانت من محطات التجارة العالمية، وملتقى طرق القوافل التي كانت ترد من جنوب بلاد العرب قاصدة العراق والبتراء، وتقع على خليج سماه الجغرافيون الكلاسيكيون «Sisus Gereaicus»، أي «خليج جرها»^(١).

وتقع القطيف على خليج يشمل جزيرة «تاروت»، وتعد المدينة البحرية الرئيسية في الأحساء، ويرتفع سطحها بضع أقدام عن سطح البحر، وتكثر بها مياه العيون^(٢). وتقع عندها عدة خرائب، يعتقد جواد علي أنه يستدل منها أن هذه المدينة كانت ذات تاريخ قديم، ربما يعود إلى العصر النحاسي المتأخر^(٣)، ويعتقد أيضًا أن في هذه المنطقة يجب أن يكون موقع مدينة «Bilbana» «Bilaena» «Bilana» «بلبانا»، إحدى مدن الجرهاءيين، وموطن قبيلتي «Gaulopes» و«Chateni»، على سواحل خليج سماه بليوس الأكبر «Sisus Gaulopeus»، أي «خليج كيببوس»^(٤)، في حين يرى شبرنجر «Sprenger» أنه خليج

١- جواد علي: المرجع نفسه؛ محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ١٠٥؛

Strabo, Geographica, Vol III, PP. 186; C.H. Forster, The Historical Geography Of Arabia, Vol II, P. 217.

2 - C.H. Forster, OP-Cit, Vol I, PP. 196-197, 291, Vol II, P. 220.

٣- جواد علي: المرجع السابق، ج ١، ص ١٧٥-١٧٦.

4 - Pliny, The Natural History, Vol XXVIII, P. 147.

القطيف^(١). ويذكرنا اسم «Chateni» (خطيني) باسم (الخط)، ويطلق في العربية على سيف البحرين كله^(٢). بينما يرى جواد علي أن اسم (كيبوس) الذي سُمِّي الخليج به، هو تحريف «Cateus» ربما يشير إلى اسم القطيف^(٣). وأما جزيرة «تاروت» الصغيرة في هذا الخليج، فيرى فورستر «Forster» أنها جزيرة «Tahr» أو «Taro» أو «Ithar» في جغرافية بطليموس، وأنها أقيمت على أنقاض أبنية قديمة، لعلها كانت معبدًا للإلهة «عشتاروت» اشتهرت به، ثم حُذف المقطع الأول من اسم الإلهة اختصارًا، وصارت تُعرف بـ«تاروت»^(٤).

وأما القسم الشمالي من هذه المنطقة فهو «الكويت»، ومعظم أراضيه منبسطة، وأكثر السواحل رملي، إلا من بعض الهضاب أو التلال البارزة. وليس في الكويت من الأنهار الجارية إلا نهر واحد يقال له «المقطع» يصب في البحر، وهذا القسم مأهولٌ بالسكان منذ عصر ما قبل الإسلام^(٥).

1 - Encyclopedia of Islam, Vol II, P. 821.

٢- المفضل الضبي: المفضليات، ص ٢٤٥؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٤٩.

٣- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٧٦؛

C.H. Forster, The Historical Geography Of Arabia, Vol II, P. 216.
4 - C.H. Forster, OP-Cit, Vol I, PP. 298, 301, 291, Vol II, PP. 216-216, 220.

٥- حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين، ص ٧٦؛ جواد علي: المرجع نفسه؛ محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ١٠٦؛

٥- نجد:

هي في الكتب العربية "اسم للأرض العريقة التي أعلاها تهامة واليمن، وأسفلها العراق والشام، وأوله من جهة الحجاز «ذات عرق»^(١)، وما ارتفع عن «بطن الرمة» فهو نجد إلى أطراف العراق وبادية السماوة^(٢). وليست لنجد في الكتب العربية حدود واضحة؛ فهم يقولون: "إذا خرجت من المدينة فأنت منجد إلى أن تتصوّب في «مدارج العرج» - وهو وادٍ بين مكة والمدينة^(٣) - فإذا تصوّبت فيها فقد أتممت

C.H. Forster, *Ibid*, Vol II, P. 214; *Handbook Of Arabia*, Vol I, P. 285; *Encyclopedia of Islam*, Vol II, P. 1173.

١- ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٦٢؛ الألوسي (محمود شكري البغدادي): تاريخ نجد، تحقيق: محمد بهجة الأثري، بغداد، شركة دار الوراق للنشر المحدودة، ط ١، ٢٠٠٧م، ص ١٦.

٢- الهمداني: صفة بلاد العرب، ص ٤٨؛ البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج ١، ص ١٤؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٧، ج ٥، ص ٢٦٢-٢٦٥.

٣- من العجيب أن الأخباريين والجغرافيين المسلمين قد اختلفوا في وضع مكة والمدينة؛ فقد رأى البعض أن المدينة من نجد، ومكة من تهامة اليمن، ورأى آخرون أن المدينة حجازية ومكة تهامية، بل ولقد ذهب فريق ثالث إلى أن المدينة نفسها بعضهما حجازي وبعضها الآخر تهامي. لغدة الأصفهاني: بلاد العرب، ص ١٤؛ الأصبطخري (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي): مسالك الممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحسيني، القاهرة، الإدارة العامة للثقافة والنشر، د. ط، ١٩٦١م، ص ٢١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١٩؛ الألوسي: تاريخ نجد، ص ١٦.

إلى مكة" (١)، ويقولون: "إذا خلّفت عمان مصعدًا فقد أنجدت، فلا تزال منجدًا حتى تنزل ثنایا ذات عرق، فإذا فعلت ذلك فقد أتهمت إلى البحر" (٢).

وعلى أي حال، فإن نجدًا بصفة عامة هي الهضبة العظيمة في قلب شبه الجزيرة العربية (٣)، وقيل لها في الإنجليزية: «The Heart of Arabia» (٤). وتتخلل الهضبة أودية وتلال ترتفع في الغالب عن سطح هذه الهضبة بضع مئات من الأقدام، وتتألف حجارتها في الغالب من صخور كلسية وصخور رملية جرانيتية في بعض المواضع. وأعلى أراضيها هي أراضي نجد الغربية المحاذية للحجاز، ثم تأخذ في الانحدار كلما اتجهت نحو الشرق حتى تتصل بالعروض (٥). وتتألف

١ - لغدة الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٣٣٧-٣٣٨.

٢ - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣٦-٤٣٧؛ ابن عبد الحق الحنبلي (صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق بن شائل القطيعي البغدادي): مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (ج ٣)، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط ١، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م، ج ١، ص ٨٥١؛ محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ١٠٣.

٣ - جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٨١؛ محمد بيومي مهران: المرجع نفسه؛ أحمد أمين سليم: معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٩.

4 - K.S. Twitchell, Saudi Arabia, Princeton, 1953, P. 6; L.D. Stamp, Asia, An Economic and Regional Geography, P. 137.

٥ - جواد علي: المرجع نفسه.

نجد من الناحية الطبيعية من ثلاث مناطق: وادي الرمة، فالمنطقة الوسطى، ثم المنطقة الجنوبية^(١). بينما قسّم الجغرافيون المسلمون نجدًا إلى قسمين: نجد العالية، ونجد السافلة. أما العالية فما ولي الحجاز وتامة. وأما السافلة، فما ولي العراق^(٢).

* * *

والآن وقد وقفت على جغرافية شبه الجزيرة العربية، وعرفت على سبيل الإجمال معالم مناطقها، وبعدها عن بعضها البعض، وكيف هي سعة أراضيها، وقد أدى ذلك إلى اختلاف ألسنتهم؛ فلم يكونوا جميعًا أُمَّةً واحدةً متجاورين، ولكن كما سنرى ألسنة ولهجات. وقد استطعنا بفضل الكتابات الجاهلية والنقوش الحجرية والأخبار التي أوردها أهل الأدب والتاريخ أن نقف على كثيرٍ منها.

١- ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٤٠١؛ حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين، ص ٦٠؛ الألويسي: المرجع نفسه؛

Handbook Of Arabia, Vol I, P. 349.

٢- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٦٢؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٨١-١٨٢؛ محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ١٠٣.

الفصل الثاني

طبيعة ومظاهر العقلية العربية

قبل الإسلام

إن الذين بحثوا في العقلية العربية ومظاهرها قبل الإسلام - بصورة عامة - تصوّروا العرب وكأنهم جنسٌ واحدٌ انحدر من عرقٍ واحدٍ. وبهذا الاعتقاد وضعوا حدود تلك العقلية. وإذا نظرنا إلى فحوص علماء الآثار والاجتماع والأنثروبولوجيين لبقايا العظام والجماجم التي عثروا عليها لعهود ما قبل الإسلام، وإلى فحوصهم لملامح العرب الأحياء وأجسامهم، فإنها - على قلتها - تشير إلى وجود أعراقٍ متعدّدةٍ بين سكان شبه الجزيرة العربية - الأموات منهم والأحياء، الجاهليين والإسلاميين - وإلى وجود اختلافٍ واضحٍ في نفسياتهم وفي قابلياتهم العقلية^(١).

وقد بحث بعضُ العلماء المحدثين في عقلية العرب فتكلّموا عنها - بصورة عامة، بدوية وحضرية، جاهلية وإسلامية - فجاء تعميمهم هذا مغلوّطاً وجاءت أحكامهم في الغالب خاطئة. وقد كان عليهم التمييز بين العرب الجاهليين والعرب الإسلاميين، وبين الأعراب والعرب، وبين سكان البوادي وسكان الأرياف وسكان أرياف بلاد الحضارة. ثم كان عليهم البحث عن العوامل والأسباب التي جبلت العرب من النوعين: أهل الوبر وأهل الحضر، من عوامل إقليمية وطبيعية، فطبعتهم بطابع خاص، ميزهم عن غيرهم من الناس.

١- جواد علي: المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٢٩٣؛ أحمد علم الدين الجندى: اللهجات العربية في التراث، ص ٣٦.

بل إن الحديث عن العقلية العربية لحديثٌ قديمٌ؛ ففي التوراة شيءٌ عن صفاتهم وأوصافهم، انبثق من علاقات الإسرائيليين بهم، ومن تعاملهم واختلاطهم بالعرب النازلين بفلسطين وطور سيناء أو في البوادي المتصلة بفلسطين. والعرب في التوراة هم الأعراب، أي سكان البوادي؛ لذلك فإن النعوت الواردة فيها عنهم هي نعوت لعرب البادية الذين لم تكن صلاتهم حسنة بالعبرانيين؛ ومن أوصافهم فيها: أنهم متنابدون، يغزون بعضهم البعض، مقاتلون يقاتلون غيرهم، كما يقاتلون بعضهم بعضاً، يغيرون على القوافل فيسلبوها ويأخذون أصحابها أسرى، ويبيعونهم في أسواق النخاسة، أو يسترقونهم فيتخذونهم رقيقاً يخدمونهم، ومن ثمَّ فالعربي مطلقاً عندهم ﴿يَدُهُ مرفوعةٌ على كُلِّ إنسانٍ، وَيَدُ كُلِّ إنسانٍ مرفوعةٌ عَلَيْهِ﴾^(١).

وفي كتب اليونان والرومان نعوتٌ وُصِفَ بها العرب، ولكننا إذا درسناها وقرأنا المواضع التي وردت فيها نراها مثل التوراة؛ قصدت بها الأعراب الذين كانوا يغيرون على حدود بلاد الرومان واليونان ويسلبون القوافل، ويأخذون الإتاوات من التجار والمسافرين ورجال القوافل للسماح لهم بالمرور^(٢). فقد وصف ديودور الصقلي العرب بأنهم

١- العهد القديم: سفر التكوين، الإصحاح: ١٦، الآية: ١٢.

٢- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٢٦٢.

يعشقون الحرية، فيلتحفون السماء. وقد اختاروا الإقامة في أرضٍ لا أنهار فيها ولا عيون ماء، فلا يستطيع العدو المغامر الذي يريد الإيقاع بهم أن يجد له فيها مأوى. إنهم لا يزرعون حَبًّا، ولا يغرسون شجرًا، ولا يشربون خمرًا، ولا يبنون بيوتًا. ومن يخالف العُرف يُقتل. وهم يعتقدون بالإرادة الحرة، وبالحرية^(١). وديودور الصقلي في ذلك يشارك رأي هيرودوتس الذي أشاد بحب العرب للحرية، وحافظهم عليها ومقاومتهم لأية قوة تحاول إذلالهم أو استرقاقهم^(٢).

إذن، فالحرية فقط من أهم الصفات التي يتصف بها العرب في نظر الكتاب اليونان والرومان. وإن أدنى نظر ليهدي صاحبه إلى أن العرب لم يكونوا بحالٍ يغبطون عليها؛ فقد توزَّعتهم الأديان المختلفة، وهي أديان - في مجملها - لا تتفق مع أخلاقهم وعاداتهم، فلم يستمسكوا منه إلا باسمه، ولم يأخذوا منه إلا قشورًا لا تسمن ولا تغني من جوع، فلم تؤثِّر فيهم تلك الأديان أثرًا محمودًا، ولم تهب بهم إلى صلاحٍ يرقي حالهم، ولم تحفزهم إلى خير يرفع من شأنهم. وأما علاقاتهم الاجتماعية فأسوأ علاقة وأقبح حال يمكن تصوُّرها؛ فإنك متى ارتقيت إلى ما وراء أبناء العم وجدت قرابة مهتوكة الستر ورحمًا مقطعة الأسباب، وعشائر

1 - Library of History, Vol II, PP. 19, 94-95.

2 - The Persian Wars, Vol I, P. 254.

متناكرة متدابرة، وقبائل مختلفة متنافرة، يتربصون لبعضهم الدوائر، ويرتقبون الفرص لقتل النفوس ونهب الأموال، وتخريب الديار. وكان ذلك من المخازي التي يأخذها على العرب جيرانهم من الفرس ويرون ذلك من أسباب الانحطاط الذاهبة بالفخر. وهي حجج لا تزال تُقرن بالعرب في بعض الكتب؛ ففي كتب الأدب وصف مناظرة قيل أنها حدثت بين النعمان بن المنذر ملك الحيرة وبين كسرى ملك الفرس في شأن العرب: صفاتهم وأخلاقهم وعقولهم، ثم ذكر مناظرة أخرى جرت بين كسرى هذا وبين وفد^(١) أرسله النعمان لمناظرته ومحاججته فيما جرى الحديث عليه سابقاً بين الملكين.

ومجمل ما نُسبَ إلى كسرى من مآخذ زُعم أنه أخذها على العرب، فقد وجد للروم حظاً في اجتماع الألفة وعِظَم السلطان، وكثرة المدائن ووثيق البنيان، وأن لهم ديناً بيّناً حلالهم وحرامهم ويرد سفيهم وقيم جاهلهم. ورأى للهند نحرًا من ذلك في حكمتها وطبها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها، وعجيب صناعاتها، ودقيق حسابها، وكثرة عددها.

١- أرسل النعمان بن المنذر إلى كسرى عشرة نفر هم: أكثم بن صيفي التميمي الأسدي، وحاجب بن زرارة التميمي الدارمي، والحارث بن عباد البكري الشكري، وقيس بن مسعود البكري الشيباني، وخالد بن جعفر العامري الهوازني الكلبي، وعامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامرين، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي المذحجي، والحارث بن ظالم المري، وعمرو بن الشريد السلمي.

وكذلك في الصين في اجتماعها مع كثرة صناعات أيديها وفروسياتها وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد، وأن لها ملكًا يجمعها. وأن للترك والخزر - على ما بهم من سوء حال المعاش وقلة الريف والثمار والحصون - ملوك تضمُّ قواصِيهم وتدبّر أمرهم. أما العرب فلم ير لهم من خصال الخير في أمر دينٍ ولا دنيا، ولا حزمٍ ولا قوّة. وأن مما يدلُّ على مهانتهم وذمِّهم وصغر همّتهم: سكناهم في البوادي المقفرة مع الوحوش والطيور الضارية، ورضاهم بالعيش البسيط والقوت الشحيح، يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضًا من الحاجة. قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها وهوها ولذاتها، فأفضل طعامٍ ظفّر بهم أحسنهم لحوم الإبل التي يعافها كثيرٌ من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها. وإن قرى أحدهم ضيفًا عدّها مكرمة، وإن أطعم أكلة عدّها غنيمة تنطق بذلك أشعارهم، وتفتخر بذلك رجالهم^(١). ثم إنهم مع قِلَّتهم وفاقتهم وبؤس حالهم يفتخرون بأنفسهم ويتطاولون على غيرهم، ويُنزلون أنفسهم فوق مراتب الناس، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكًا أجمعين، وأبوا الانقياد لرجلٍ واحدٍ

١ - ابن عبد ربه (شهاب الدين أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي): العقد الفريد (٩ج)، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، ج ١، ص ٢٧٥-٢٧٦؛ الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج ١، ص ١٤٧-١٤٨.

منهم يسوسهم ويجمعهم^(١). إذا عاهدوا فغير وافين^(٢). سلاحهم كلامهم، به يتفتنون، وبكلامهم يتلاعبون. ليس لهم ميلٌ إلى صنعةٍ أو عملٍ أو فنٍّ، لا صبر لهم، إذا حاربوا ووجدوا قوَّةَ أمامهم حاولوا جهدهم التغلُّب عليها، أما إذا وجدوها قوَّةً منظَّمةً هربوا مشتتين متبعثرين شرادم، يخضعون لحكم الغريب ويهابونه ويأخذون برأيه فيهم ما دام قويًّا، ويقبلون بمن ينصِّبه عليهم، ولا يقبلون بحكم واحدٍ منهم إذا أراد أن يفرض سلطانه عليهم^(٣).

وقد ذُكِرَ أن أحد ملوك الهند كتب إلى عمر بن عبد العزيز كتابًا جاء فيه: "لم تزل الأمم كلها من الأعاجم في كل شتقٍ من الأرض لها ملوك تجمعها، ومدائن تضمُّها، وأحكام تدين بها، وفلسفة تنتجها، وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات، مثل صنعة الديباج وهي أبداعُ صنعةٍ، ولعب الشطرنج وهي أشرفُ لعبةٍ، ورمانة القبان التي يُوزن بها رطل واحد ومائة رطل، ومثل فلسفة الروم في ذات الخلق، والقانون، والإسطرلاب الذي يعدل به النجوم، ويدرك به علم الأبعاد ودوران الأفلاك وعلم الكسوف، وغير ذلك من الآثار المتقنة. ولم يكن للعرب

١- ابن عبد ربه: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٦؛ الألويسي: المرجع السابق، ج ١، ص ١٤٨.

٢- ابن عبد ربه: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٤؛ الألويسي: المرجع السابق، ج ١، ص ١٥٦.

٣- ابن عبد ربه: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٧؛ الألويسي: المرجع السابق، ج ١، ص ١٥٨.

مَلِكٌ يجمع سوادها، ويضمُّ قواصيها، ويقمع ظلمها، وينهى سفيهاها، ولا كان لها قط نتيجة في صناعةٍ ولا أثرٍ في فلسفةٍ إلا ما كان من الشعر، وقد شاركتها فيه العجم؛ وذلك أن للروم أشعارًا عجيبة قائمة الوزن والعروض، فما الذي تفتخر به العربُ على العجم؟ فإنما هي كالذئاب العادية، والوحوش النافرة، يأكل بعضها بعضًا، ويغير بعضها على بعض. فرجالها موثقون في حلق الأسر، ونساؤها سبايا مُرَدَّاتٍ على حقائب الإبل، فإذا أدركهن الصريخُ استنقذن بالعشي، وقد وُطئن كما تُوطأ الطريقُ المهيعُ"^(١).

ولابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) رأيٌ معروفٌ في العرب^(٢)،

١- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٣، ص ٣٥٣؛ الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج ١، ص ١٦٦.

٢- استخدم ابن خلدون في معظم فصول المقدمة كلمة «العرب» بمعنى الأعراب أو سكان البادية الذين يعيشون خارج المدن، ويشغلون بمهنة الرعي، وخاصة رعي الإبل، ويتخذون الخيام مساكن لهم، ويظعنون من مكان لآخر حسب مقتضيات حياتهم وحاجات أنعامهم التي يتوقف معاشهم عليها، وهم المقابلون لأهل الحضر وسكان الأمصار؛ كما تدل على ذلك الحقائق نفسها التي عرضها في الفصول التي وردت فيها هذه الكلمة. وقد أساء كثير من الباحثين فهم مدلول كلمة العرب في عناوين فصول المقدمة ولم يمعنوا النظر فيما يذكره ابن خلدون تحت هذه العناوين من الأمور القاطعة بأنه يقصد من هذه الكلمة سكان البادية الذين يشغلون بمهنة الرعي ويعيشون عيشة تنقل وانتجاع، فظن أنه يقصد منها العرب كشعب المقابل للعجم كشعب، ومن وقع في هذا الخطأ طه حسين في كتابه عن «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» ومحمد عبد الله عنان في كتابه عن «ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري». وقد رتب بعض هؤلاء على فهمهم لمدلول كلمة «العرب» في عبارات ابن خلدون نتائج

مدونٌ ومثورٌ في مواضع عدّة من مقدّمته الشهيرة لكتابه العام في التاريخ؛ إذ يرى فيها أن الحالة التي عليها العرب هي حالة اجتماعية طبيعية، يمرُّ عليها الإنسان في نشوئه وارتقائه، وعبرَ عن ذلك بقوله: "أن جيل العرب في الخلقة طبيعي" (١).

وأهمُّهم "أشدُّ الناس توحُّشًا، وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العُجم؛ وهؤلاء هم

غريبة، فمن ذلك ما ذهب إليه بعضهم أن ابن خلدون يدين بمذهب الشعوبية المعادي للعرب وأنه من الكافرين بالعروبة، ومن ذلك أيضًا ما زعمه بعضهم أن تحامل ابن خلدون على العرب دليلٌ على أنه من أصل غير عربي، وأنه على الرغم من ادعائه العروبة فإن طبيعة دمه تغلب عليه في تفكيره ومفاضلته بين الشعوب. ومن الغريب أن يقع في هذا الخطأ باحثون من العرب، بينما يسلم منه كثير من المستشرقين حتى القدامى منهم، مثل البارون دوسلان الذي ظهرت ترجمته الفرنسية لمقدمة ابن خلدون فإنه يقول في تعليقه على عنوان الفصل الذي نحن بصدد ما ترجمته: "استخدم ابن خلدون في هذا الفصل وفي الفصول التالية له كلمة العرب بمعنى البدو"، ويقول في شرحه لكلمة العرب في معجم الألفاظ الملحق بترجمته للمقدمة ما ترجمته: "إن العرب عند ابن خلدون هم البدو الرحل".

Baron De Slane, Les Arabes d'Ibn Khaldoun Sont Les Arabes Nomades, 1966, Vol III, P. 488.

وللأستاذ ساطع الحصري في كتابه «دراسات عن مقدمة ابن خلدون» بحثًا قيميا تناول فيه هذه الآراء. ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون، القاهرة - بيروت، مكتبة الخانجي - دار الكتاب العربي، ط ٣، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ص ١٥١-١٦٨.

١ - ابن خلدون (ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الحضرمي الإشبيلي المالكي): المقدمة (٣ج)، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة، دار نهضة مصر، ط ٧، ٢٠١٤م، ج ٢، ص ٦٩٤.

العرب. وفي معناهم ظعون البربر ووزناتة بالمغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق، إلا أن العرب أبعدُ نُجعة وأشدُّ بدَاوة لأنهم مختصُّون بالقيام على الإبل فقط" (١).

و"أنهم لطبيعة التوحُّش الذي فيهم أهل انتهاب وغيث، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر، ويفرُّون إلى منتجعهم بالقفر، ولا يذهبون إلى المزاخفة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم. فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه إلى ما يسهل عنه، ولا يعرضون له. والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيْثهم وفسادهم؛ لأنهم لا يتسمنون إليهم الهضاب، ولا يركبون الصعاب، ولا يحاولون الخطر. وأما البسائط متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهبٌ لهم وطعمةٌ لأكلهم، يردِّدون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم، إلى أن يصبح أهلها مُغَلَّين لهم، ثم لا يتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة، إلى أن ينقرض عمرانهم" (٢).

وأنهم متى "تغلَّبوا على أوطان أسرع إليها الخراب؛ والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحُّش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقًا وجيلة وكان عندهم ملذوذًا لما فيه من الخروج عن ربة

١- ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٧١.

٢- ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٠٧.

الحكم، وعدم الانقياد للسياسة... فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتقلُّب؛ وذلك مناقضٌ للسكن الذي به العمران ومنافٍ له: فالحجر مثلاً إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافي للقدر، فينقلونه من المباني ويخربونها عليه، ويعدُّونه لذلك. والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمِّدوا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم، فيخربون السقف عليه لذلك. فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران"^(١).

وأن "طبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، وأن رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حدًّا ينتهون إليه، بل كلما امتدَّت أعينهم إلى مالٍ أو متاعٍ أو ماعونٍ انتهبوه. فإذا تمَّ اقتدارهم على ذلك بالتغلُّب والملك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخربَ العمران. وأيضاً فلأنهم يتلفون على أهل الأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم، لا يرون لها قيمة ولا قسطاً من الأجر والثمن"^(٢).

و"أنهم ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاصد ودفاع بعضهم عن بعض؛ إنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو مغرماً؛ فإذا توصلوا إلى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من

١- ابن خلدون: المقدمة، ج ٢، ص ٥٠٨.

٢- ابن خلدون: المصدر نفسه.

تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم وقهر بعضهم البعض عن أغراض
المفاسد. وربما فرضوا العقوبات في الأموال حرصًا على تحصيل الفائدة
والجباية والاستكثار منها كما هو شأنهم؛ وذلك ليس بمغفٍ في دفع
المفاسد وزجر المتعريض لها؛ بل يكون ذلك زائدًا فيها؛ لاستسهال الغرم
في جانب حصول الغرض؛ فتبقى الرعايا في ملكتهم كأنها فوضى دون
حكم" (١).

وأيضًا "فهم متنافسون في الرياسة، وقلَّ أن يُسَلِّمَ أحدٌ منهم الأمر
لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته، إلا في الأقل وعلى كره من
أجل الحياء؛ فيتعدَّد الحكام منهم والأمراء، وتختلف الأيدي على الرعية
في الجباية والأحكام؛ فيفسد العمران وينتقض... وانظر إلى ما ملكوه
وتغلبوا عليه من الأوطان كيف تقوَّض عمراناه وأقفر ساكنه وبدلت
الأرض فيه غير الأرض؛ فاليمن - قارهم - خرابٌ إلا قليلًا من
الأمصار، وعراق العرب كذلك قد خرب عمراناه الذي كان للفرس
أجمع، والشام لهذا العهد كذلك، وإفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو
هلال وبنو سُليم قد لحق بها وعادت بسائطه خرابًا، بعد أن كان ما بين
السودان والبحر الرومي كله عمرانًا، تشهد بذلك آثار العمران فيه من
المعالم وتماثيل البناء" (٢).

١- ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٠٨-٥٠٩.

٢- ابن خلدون: المقدمة، ج ٢، ص ٥٠٩.

كذلك فإن "العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة؛ والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحُّش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادًا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعُد الهمة والمنافسة في الرياسة. فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم... وذلك بما يشملهم من الدين المُذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس. فإذا كان فيهم النبيُّ أو الوليُّ الذي يبعثهم على القيام بأمر الله، ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها، ويؤلِّف كلمتهم لإظهار الحق، تم اجتماعهم وحصل لهم التغلُّب والملك"^(١).

وأن "العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك؛ والسبب في ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم، وأبعد مجالاً في القفر؛ لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش، فاستغنوا عن غيرهم؛ فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك، وللتوحُّش. ورئيسهم محتاجٌ إليهم للعصبية التي بها المدافعة، فكان مضطراً إلى إحسان ملكتهم وترك مراغمتهم؛ لئلا يخلت عليه شأن عصبيته، فيكون فيه هلاكه وهلاكهم"^(٢).

١- ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥١٠.

٢- ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥١١.

وأيضًا "فإن من طبيعتهم أخذ ما في أيدي الناس خاصة، والتجافي عما سوى ذلك من الأحكام بينهم، ودفاع بعضهم عن بعض. فإذا ملكوا أمة من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما في أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم. وربما جعلوا العقوبات على المفسد في الأموال حرصًا على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد. فلا يكون ذلك وازعًا، وربما يكون باعثًا بحسب الأغراض الباعثة على المفسد، واستهانة ما يعطي من ماله في جانب غرضه. فتنمو المفسد بذلك، ويقع تخريب العمران، فتبقى تلك الأمة كأنها فوضى مستطيلة أيدي بعضها على بعض، فلا يستقيم لها عمران، وتخرب سريعًا، شأن الفوضى"^(١).

كما "أن المباني التي كانت تحتطها العرب يسرع إليها الخراب؛ والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها. وله وجه آخر وهو أمسُّ به، وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي... والعرب بمعزلٍ عن هذا، وإنما يراعون مراعي إبلهم خاصة، لا يبالون بالماء طاب أو خبث، ولا قل أو كثر، ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية؛ لانتقالهم في الأرض، ونقلهم الحبوب

١- ابن خلدون: المقدمة، ج ٢، ص ٥١١.

من البلد البعيد... وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا مراعي إبلهم، وما يقرب من القفر ومسالك الطعن، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن، ولكن تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم... فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار، ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس. فلأول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصيتهم التي كانت سياجاً لها أتى عليها الخراب والانحلال"^(١).

وأهم "أبعد الناس عن الصنائع؛ والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد في العمران الحضري، وما يدعو إليه من الصنائع... ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب إليه من قطر آخر"^(٢).

وهم أبعد الناس عن العلوم؛ لأن "العلوم كلها علوم ذات ملكات، محتاجة إلى التعليم، فاندرجت في جملة الصنائع... وأن الصنائع من منتحل العرب، وأن العرب أبعد الناس عنها. فصارت العلوم لذلك حضرية، وبعدها عنها العرب وعن سوقها. والحضر لذلك العهد هم العجم أو من هم في معناهم من الموالي وأهل الخواضر الذين هم

١- ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٠١-٨٠٢.

٢- ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٦٢.

تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف؛ لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس، فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما، وكلهم عجم في أنسابهم وإنما ربوا في اللسان العربي، فاكسبوه بالمزبى ومخالطة العرب، وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم. وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمزبى. وكان علماء أصول الفقه كلهم عجمًا كما يُعرف؛ وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين، ولم يتم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم... وأن حملة الشريعة أو عامتهم من العجم... وأما العلوم العقلية أيضًا فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميّز حملة العلم ومؤلفوه واستقرّ العلم كله صناعةً، فاختصّت بالعجم وتركتها العرب، وانصرفوا عن انتحالها، فلم يحملها المعربون إلا من العجم شأن الصنائع"^(١).

وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة "وخرجوا إليها من البداوة فشغلتهم الرياسة في الدولة العباسية، وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم، والنظر فيه، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولى سياستها، مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذٍ بما صار من جملة الصنائع، والرؤساء أبدًا يستتكفون عن الصنائع والمهن

١- ابن خلدون: المقدمة، ج٣، ص ١١٢٣-١١٢٤.

وما يجز إليها، ودفعوا ذلك إلى مَنْ قام به من العجم والمولدين. وما زالوا يرون لهم حقَّ القيام به؛ فإنه دينهم وعلومهم، ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار. حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم، صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك، بما هم عليه من البعد عن نسبتها، وامتهن حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم مشتغلون بما لا يغني ولا يجدي عنهم في الملك والسياسة"^(١).

وقد رمى بعضُ المستشرقين العربَ بالمادية وبصفاتٍ أخرى؛ فقد قال «دي لاسي أوليري» «De Lacy O'leary»^(٢): "إن الشخص العربيَّ إنها يُعدُّ مثلاً أو أنموذجاً للشخصية المادية النفعية، ينظر إلى الأشياء نظرةً ماديَّةً وضيعةً، ولا يقوِّمها إلا بحسب ما تنتج من نفع، يتملِّك الطمعُ مشاعره، وليس لديه مجالٌ للخيال ولا للعواطف، لذا فإنه - في حقيقة أمره - ليس لديه ميلٌ قويٌّ ناحية الأمور الدينية، ولا يعير سوى أقلِّ القليل من الاهتمام بالجوانب التي لا يمكن قياسها عملياً. كذلك فإن إحساسه الغامر بكرامته واعتداده الشديد بنفسه، قد

١- ابن خلدون: المقدمة، ج٣، ص ١١٢٣-١١٢٤.

٢- لم أتمكّن من الاطلاع على نسخة الكتاب المترجمة، والفقرات التي أنقلها من ترجمة أحمد أمين في كتابه «فجر الإسلام» وبعضها من ترجمة خاصة لها، وقد وقعت ترجمة كتاب أوليري باسم: جزيرة العرب قبل البعثة، ترجمة: موسى علي الغول، عمان، منشورات وزارة الثقافة الأردنية، ط١، ١٩٩٠م.

جعلاه يتميز بالتمرد التلقائي ضد كل شكلٍ من أشكال السلطة. لذا كان على رؤساء القبائل وقادة الحرب - منذ اللحظة الأولى لاعتلائهم مناصبهم - أن يتوقعوا دومًا الكراهية والخيانة، حتى من جانب مَنْ كانوا يومًا أصدقائهم وحلفائهم؛ مَنْ أحسن إليه كان موضع نقمته؛ لأن الإحسان يثير فيه شعورًا بالخضوع وضعف المنزلة، وأن عليه واجبًا لمن أحسن إليه. ويصف «هنري لامانس» «Fr. Lammens» الشخصية العربية بأنها كانت أنموذجًا للديمقراطية، ولكنه يصفها بأنها كانت ديمقراطية مبالغ فيه إلى حدٍّ ما، وإن استمرارية هذا السلوك المعارض لأي سلطة تتحكّم فيه - وإن كانت تُعنى بمصلحته - إنها هي السرُّ الذي يفسّر لنا سلسلة الجرائم والخيانات التي شغلت أكبر جزء في تاريخ العرب، مع العلم أن الافتقار لإدراك تلك النقطة أو ذلك المفتاح قد أدّى في العصر الحديث لارتكاب القوات الأوروبية العديد من الأخطاء، وحملهم كثيرًا من الضحايا كان يمكنهم الاستغناء عنها. وبالطبع لا يمكن إنكار أن ذلك التمرد الدائم ضدّ كل محاولات السيطرة على العرب وتوجيه مسارهم نحو الحياة الغربية ونمطها الاجتماعي، إنما يُعدُّ أمرًا شديد الإزعاج لمن يضطلعون بذلك التوجيه. وباختصارٍ - إن أردنا أن نوجز الحديث في تلك النقطة - فإننا يمكن أن نقول: إن العرب يحملون صفات قد تنطوي على القسوة والخيانة،

ولكن علينا في ذات الوقت أن نعترف بأن العرب يتميزون بتوق شديد ونزوع عارم نحو الحرية، مما يدفع العربيّ دفعاً نحو كسر كل قيد من شأنه كبت حريته، حتى وإن كانت تلك القيود تصبُّ في صالحه؛ حتى إذا حاولت أن تُحدِّد حريته أو تنقص من أطرافها شيئاً هاج كأنه وحشٌ محبوسٌ، وثار ثورةً جنونيةً لتحطيم أغلاله والعودة إلى حريته. ولكن العربي - من ناحيةٍ أخرى - مخلصٌ مطيعٌ لتقاليد قبيلته، كريم يؤدي واجبات الضيافة والمخالفة في الحروب، كما يؤدي واجبات الصداقة مخلصاً في أدائها حسب ما يرسمه العرف"^(١).

ولعلَّ اتهام «دي لاسي أوليري» العرب بإطلاق بالمادية المفرطة والطمع الفظيع راجعٌ إلى ما ذُكر عن الأعراب في كتب التاريخ والتفسير؛ فقد اتهمتهم بأنهم يجاربون معك، ثم ينقلبون عليك ويصيرون مع خصمك؛ إذا وجدوا أن الجانب الآخر مستعدٌّ لإعطائه أكثر مما أعطيتهم؛ فقد حاربوا مع النبي ﷺ ثم صاروا عليه وانتهبوا معسكره، ثم جاءوا إليه فعرضوا عليه الإسلام، فلما أرادوا العودة إلى بلادهم وهم مسلمون، وجدوا رعاءً للرسول ﷺ، فانتهبوه وقتلوا حماته، مع علمهم بأنه له، وأن انتهاب مال المسلم حرام، فكيف بهم وهم ينتهبون مال النبي ﷺ. وقد ندَّد القرآن بهم في هذه الآية: ﴿قَالَتِ

1 - De lacy O'leary, Arabia Before Muhammad, P. 20-21.

الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴿١﴾. ومثلهم الذين ذكرهم الله في سورة التوبة، فقال: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رُسُولِهِ﴾ ﴿٢﴾.

ومع ذلك فقد حاول بعض المتعصّبين للعرب أن ينسبوا لهم كل فضيلة وتنفي عنهم كل رذيلة، فيقدّمونهم على غيرهم من الأمم بذكر ما تميّزوا به عنهم ونفي كل ما يحطُّ من شأنهم وكأنهم جُبلوا من طينةٍ مختلفةٍ عصمتهم من الخطأ ونزّهتهم عن الخطأ والزلل والضعف. فمن كلام لعبد الله بن المقفع^(٣) (١٤٢هـ / ٧٥٩م) في فضل العرب يجيب فيه

١- سورة الحجرات: آية: ١٤.

٢- سورة التوبة: آية: ٩٧.

٣- يقول عبد اللطيف حمزة: "كثيرون من النقاد يشكون في هذه القصة؛ لأنهم فهموها من ناحية واحدة، هي أنها مدحٌ للعرب قاله رجلٌ لا يحب العرب. والحقيقة أن لهذه القصة قيمتها؛ فابن المقفع فيها يمدح العرب من حيث يريد أن يسخر منهم، وهو فيها يتملّق العرب من حيث يحقد عليهم ويحسدهم. ولذلك ضحك جلساؤه أولاً حين قال إن العرب أعتل الأمم. ومن أجل ذلك ألحّ هو في مدحهم ليخفي سخره منهم، ولكن لا شك عندي مع ذلك أن جلساءه كانوا يفهمونه جيّداً، وكانوا يدركون أنه يريد أن يقول لهم إن العرب قوم لا حظ لهم من الحضارة ولا من الرقي، وهم جياعٌ لا يجدون ما يأكلون، ومع ذلك فقد افتتحوها الفتوح وملكوا الأمصار وهم لا يستحقون من هذا كله شيئاً". وواضح أن كلام عبد اللطيف حمزة مبنيٌّ على الظنون والاحتمالات، فيضع الكلام في فم ابن المقفع دون أن يتفوّه به الأخير، ويجعل من نفسه خبيراً بما في الصدور، وبما يفكر به الناس. كل هذا من أجل أن يدعم رأيه بأن ابن المقفع كان شعوبياً معادياً للعرب، كارها لهم. وأعتقد أن هذا هو

على سؤال طرحه بعض الحضور «أي الأمم أعقل؟» فذكروا الأمم المختلفة، ثم ذكر العرب، فقال: "إن العرب حكمت على غير مثال لها، ولا آثار أثرت، أصحاب إبلٍ وغنم، وسكان شعيرٍ وأدم، يجود أحدهم بقوته، ويتفضّل بمجهوده، ويشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصير حُجَّةً، ويحسن ما شاء فيحسن، ويقبح ما شاء فيقبح، أدّبتهم أنفسهم، ورفعتهم هممهم، وأعلتهم قلوبهم وألستهم، فلم يزل حياء الله فيهم؛ وحباًؤهم في أنفسهم، حتى رفع لهم الفخر، وبلغ بهم أشرف الذخر، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر على الخير فيهم ولهم... فمن وضع حقهم خسر، ومن أنكر فضلهم خصم، ودفع الحق باللسان أكبّت للجنان"^(١).

وفي ذلك يقول أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م): "فأما الهند فلهم معانٍ مدوّنة، وكتبٌ مخلّدة، لا تضاف إلى رجلٍ معروفٍ، ولا

الشطط بعينه؛ إذ متى تُبنى الأحكام على الظنون؟ وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً. عبد اللطيف حمزة: ابن المقفع، القاهرة، دار الفكر العربي، ط ٣، د.ت، ص ٥٧-٥٨.

١- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢، ص ١٧٩؛ ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد البكري التيمي): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٩ ج)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ج ٨، ص ٥٥-٥٦.

إلى عالمٍ موصوفٍ، وإنما هي كتبٌ متوارثةٌ، وآدابٌ على وجه الدهر سائرةٌ مذكورةٌ، ولليونان فلسفةٌ وصناعةٌ منطقيّةٌ، ولكن صاحب المنطق نفسه بكَيِّ اللسان، غير موصوفٍ بالبيان، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه... وفي الفُرس خطباء، إلا أن كل الكلام للُرس، وكل معنى للعجم، فإنما هو عن طول فكرةٍ وعن اجتهاد رأي، وطول خلوة، وعن مشاورةٍ ومعاونة، وعن طول التفكُّر ودراسة الكتب، وحكاية الثاني علم الأول، وزيادة الثالث في علم الثاني... وكل شيءٍ للعرب فإنما هو بديهَةٌ وارتجالٌ، وكأنه إلهامٌ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجمالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، فتأتيه المعاني أرسالاً، وتثال عليه الألفاظ انثيالاً... وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلّفون. وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحدٍ في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطبائهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفُّظ، ويحتاجوا إلى تدارس. وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلفٍ ولا قصد، ولا تحفُّظٍ ولا طلب" (١).

١ - البيان والتبيين (٤ج)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٧،

ويرى الجاحظ أن العرب أفخر الأمم وأرفعها، وأحفظها لأيامها، وينسب ذلك إلى طبيعة بلادهم الصحراوية ذات الطبيعة القاسية؛ إذ "كانوا سَكَّانَ فيافٍ وتربية العراء، لا يعرفون الغَمَق ولا اللثق، ولا البخار ولا الغلظ ولا العفن، ولا التُّخَم، أذهانٌ حِدَاد، ونفوسٌ منكروةٌ، فحين حملوا حدَّهم ووجَّهوا قولهم لقول الشعر وبلاغة المنطق، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام، بعد قيافة الأثر، وحفظ النسب، والاهتداء بالنجوم، والاستدلال بالآفاق، وتعرُّف الأنواء، والبصر بالخيال وآلة الحرب، والحفظ لكل مسموع، والاعتبار بكل محسوس، وإحكام شأن المثالب والمناقب، بلغوا في ذلك الغاية، وحازوا كل أمنيَّة. وبيعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر، وهمهم أرفع من جميع الأمم وأفخر، ولأيامهم أحفظ وأذكر"^(١). وهُم "لطبيعة الأرض التي وُلدوا بها صاروا على هذه الحال، ولم يصيروا كاليونان في الحكمة وفي العلوم، ولا كالصين في السبك والصياغة والإفراغ والإذابة والأصباغ العجيبة، وأصحاب الخرط والنحت والتصاوير، ولا كالهنود أو الفرس"^(٢).

١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ج٣، ص٢٧-٢٩.

١- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الليثي الكتاني البصري): رسائل الجاحظ (٤ج)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩١م، ج١، ص٧٠ (مناقب الترك).

٢- رسائل الجاحظ، ج١، ص٦٦ (مناقب الترك).

ويقول ابن رشيقي القيرواني (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) أن "العرب أشرف الأمم، وحكمتها أشرف الحكم؛ لفضل اللسان على اليد، والبعد عن امتهان الجسد، ولخروج الحكمة عن الذات بمشاركة الآلات، إذ لا بد للإنسان أن يتولى ذلك بنفسه، أو احتاج فيه إلى آلة أو معين من جنسه"^(١).

كما أن ابن خلدون الذي جزم ببعد العرب عن أي صناعةٍ أو علمٍ، رأى أنهم "أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضرة... وذلك لتفردهم عن المجتمع، وتوحيشهم في الضواحي، وبُعدهم عن الحامية، وانتبازهم عن الأسوار والأبواب، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائماً يحملون السلاح، ويتلفتون عن كل جانبٍ في الطرق... قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داعٍ أو استنفرهم صارخ... ولهذا نجد المتوحيشين من العرب أهل البدو أشد بأساً ممن تأخذهم الأحكام"^(٢).

ويقول عن العرب في مكان آخر من كتابه أنهم "أسرع الناس قبولاً للحق والهدى؛ لسلامة طباعهم عن عوج الملكات وبراءتها من

١ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه (٢ج)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، ط١، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ج١، ص١٩.
٢ - المقدمة، ج٢، ص٤٧٦، ٤٧٨.

ذميم الأخلاق، إلا ما كان من خلق التوحُّش القريب المعاناة المنتهى لقبول الحق، ببقائه على الفطرة الأولى، وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات"^(١).

وهناك غير هذا كثير؛ كالذي ذكره الألويسي، فقال بعد كلامٍ طويلٍ: "والعربُ أصح الناس أفهامًا، وأحدَّهم أذهانًا، قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها، ومن المعاني أغربها، ومن الآداب أحسنها، فخصُّوا من معجزة القرآن بما تجول فيه أفهامهم، وتصل إليه أذهانهم، فيدركون بالفطنة دون البدئية وبالروية دون البادرة"^(٢). ويقول: "والحاصل أن العرب لما كانوا أتم الناس عقولًا وأحلامًا، وأطلقهم السنة وأوفرهم أفهامًا، استتبع ذلك لهم كل فضيلة، وأورثهم كل منقبةٍ جليلة"^(٣).

هذه الآراء وتلك، حملت بعض المفكرين والمؤرخين على أن ينظروا للعرب بعينٍ واحدةٍ حجبت عنهم الرؤية الحقيقية للأشياء؛ فابتعدوا عن الحق، وجانبوا الصواب فيما زعموه، فخرجوا عن الموضوعية، ودخلوا في باب العصبية لهم أو عليهم، وهم فيما لو أمعنوا النظر قليلًا، والتزموا الحياد في تفكيرهم، لوجدوا العرب كسائر الأمم،

١- ابن خلدون: المقدمة، ج ٢، ص ٥١٠.

٢- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج ١، ص ٣٧-٣٨.

٣- الألويسي: المرجع السابق، ج ١، ص ١٤٦.

لهم حسناتهم وسيئاتهم، وتسري عليهم - كما على غيرهم - مقولة الخطأ والصواب، وتتوزع ربوعهم مظاهر الحضارة والبداءة التي تخفي في طياتها تقدم وتمدُن العربي وتحلّف وتوحّش الأعرابي، فيزول بذلك اللبس الذي وقعوا فيه بسبب الرؤية المشوّهة والناقصة والعصبية والحادة والجامدة.

وإذا جاز لنا القول أن بعض العرب - خصوصاً البدو منهم - قد ضعفوا في بعض مواقعهم الاجتماعية، فلم تكن لهم حكومات مركزية ترعى مصالحهم وتنشر العدل والأمن في ربوعهم ويدينون لها بالطاعة والولاء؛ لأن القبيلة كانت محور اهتمامهم ومركز انتباههم، بها يتعلّقون، وإليها يتعصّبون، ومن أجل عزّها ورفعة شأنها يتفانون، فيؤلفون العصابات التي تعيش على السلب والنهب والغزو، وما يتبع ذلك من غارات وحروب تشيع الرهبة وتزعزع الأمن وتؤدي إلى إزهاق النفوس ونهب الأموال وأسر الرجال وسبي النساء وتدمير المتاع والممتلكات، دون أدنى تفكير بالنتائج والعواقب أو إلمام بالمصائب والويلات، ويدفعهم إلى ذلك أنفتهم وكبرياؤهم وحميتهم الجاهلية وما بلغت إليه قوتهم التي أباحت لهم حق الاعتداء على غيرهم ومصادرة أرواحهم وممتلكاتهم دون رحمة أو شفقة وفي إطار من نظام قبلي كان البدوي فيه "يتأرجح بين قطبين: فردية تدفعه إلى رفع كل ضغطٍ

وتثبيت الحقوق الدائمة لنفسه تجاه الحقوق الجماعية، وتعلّق من ناحية أخرى بجماعته بصورة عميقة قد تصل إلى حدّ التضحية بالنفس^(١). وتلك أمورٌ جعلتهم في منتهى الوحشية، وأشاعت في ربوعهم الخوف الدائم، وزعزعت ثقتهم بالقيم والمبادئ رغم تمجيدهم لبعض المثل العليا التي تمسّكوا بها إشباعاً لطموحاتهم في السيادة والعزة والمباهاة، كالكرم وصنع المعروف ونجدة المستغيث والوفاء... وغير ذلك.

وقد تعرّض أحمد أمين إلى بعض آراء المذكورين، وبعد أن انتهى من عرضها وتلخيصها ناقشها بقوله: "لسنا نعتقد تقديس العرب، ولا نعبأ بمثل هذا النمط من القول الذي يمجّدهم ويصفهم بكل كمال، ويزنّهم عن كل نقص؛ لأن هذا النمط من القول ليس نمط البحث العلمي، إنما نعتقد أن العرب شعبٌ ككل الشعوب، له ميزاته وفيه عيوبه، وهو خاضعٌ لكل نقدٍ علميٍّ في عقليته ونفسيته وآدابه وتاريخه كأبي أمّةٍ أخرى"، فالقول الذي يمثله الألوسي لا يستحق مناقشةً ولا جدلاً، كذلك يخطئ الشعوبية الذين طلبوا من العرب فلسفةً كفلسفة اليونان، وقانوناً كقانون الرومان، أو أن يمهرُوا في الصناعات كصناعة الديباج، أو في المخترعات كالأسطرلاب، فإن كان يقارن هذه الأمم

١- ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ترجمة: إبراهيم كيلاني، دمشق، دار الفكر، د.ط، د.ت، ص ٣٥.

بالعرب في جاهليتها كانت مقارنة خاطئة؛ لأن المقارنة إنما تصح بين أمم في طورٍ واحدٍ من الحضارة، لا بين أمة متبدية وأخرى متحصرة، ومثل هذه المقارنة كمقارنة بين عقلٍ في طفولته وعقلٍ في كهولته، وكلُّ أمةٍ من هذه الأمم كالفرس والروم مرّت بدور بدوّةٍ لم يكن لها فيه فلسفة ولا مخترعات، أما إن كان يقارن العرب بعد حضارتها، فقد كان لها قانون وكان لها علم - وإن كان قليلاً - إنما الذي يستحق البحث والمناقشة هو رأي ابن خلدون وأوليري^(١).

أما رأي ابن خلدون فخلاصته أن العربي متوحش نهّاب سلاب، إذا أخضع مملكة أسرع إليها الخراب، يصعب انقياده لرئيس، لا يجيد صناعة ولا يُحسن علمًا، وليس عنده استعداد للإجادة فيهما، سليم الطباع، مستعدٌّ للخير، شجاع. وخلاصة رأي أوليري أن العربي مادي، ضيق الخيال، جامد العواطف، شديد الشعور بكرامته وحرّيته، ثائر على كل سلطة، كريم مخلص لتقاليد قبيلته.

فهما متفقان في وصف العرب بالمادية، وثورتهم على كل سلطة، أما الوصف الثاني فلا مجال للشك فيه، وقد صدق أوليري في قوله: "أن تمرده الدائم ضد كل سلطة تسعى للسيطرة على حرّيته - حتى من أجل

١ - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٦٢.

مصلحته - هو مفتاح سلسلة الجرائم والخيانات بلا هدف التي تشكل أكبر جزء في تاريخ العرب"^(١). أما المادية، فكثيرٌ من المستشرقين يوافقون ابن خلدون وأوليري على وصف العرب بها مثل «إ.ج. براون» «E.G. Browne»، ويعنون بهذا الوصف أنهم لا يقدرّون إلا المادة وإلا الدرهم والدينار، فأما المعنويات فلا قيمة لها في نظرهم^(٢).

ويرى أحمد أمين أنه لا يصحُّ تعميم هذا الوصف في عرب الجاهلية جميعاً؛ فإنه لو صحَّ ما يُروى لنا في كتب الأدب من حكايات الكرم والوفاء وبذل النفس عن ساحة في المحافظة على تقاليد القبيلة لتنافى تمام المنافاة مع المادية، لذلك يبدو لنا خطأ كلِّ من ابن خلدون وأوليري كليهما في عدم تحديد «العربي» الذي يصفانه؛ فنحن نعتقد أن عربي الجاهلية يختلف في أمورٍ كثيرة عن عربي الإسلام، وابن خلدون - مع دقته في بحثه - لم يحدِّد بالضبط معنى العربي الذي يصفه، وهذا ما جعله يضطرب في حكمه؛ فإنك إذا قرأت قوله في بعض المواضع تفهم أنه يريد العربي البدوي كالذي يهدم القصور ليستعمل حجارتها كأثافٍ لآبنته وخشب سقوفها في أوتاد خيامه، فإنما ذلك البدوي الممعن في

1 - Arabia Before Muhammad, P. 21.

٢- تاريخ الأدب في إيران (٣ج)، ترجمة: أحمد كمال الدين حلمي، تقديم: محمد علاء الدين منصور، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، د.ط، ٢٠٠٥م، ج١، ص ٢٨٣.

البداءة، لا العربي المتحضّر في الدولة الأموية أو العباسية، ثم تراه يذكر العربي بأنه لا يحسن اختيار مواقع أمصاره - كما فعل عند تخطيط البصرة والكوفة - وهذا ليس هو العربي البدوي الممعن في البداءة، إنما هو عربي صدر الإسلام الذي فتح بلاد فارس والروم، وليس العربي الذي يخطط المدن هو الذي يهدم القصور لأثافيه، كذلك فإن ابن خلدون لم يذكر أن العربي لا يحسن علمًا من العلوم، وأن الموالي هم السبّاقون في هذا المضمار، وهذا ليس العربي البدوي ولا عربي صدر الإسلام، إنما هو عربي الدولة العباسية وآخر الأموية^(١).

ويرى أن ابن خلدون قد ناقض نفسه لما قرّر استعداد العربي الفطري للتحضّر والاستفادة ممن يخالطه؛ إذ قال: "ومثل هذا ما وقع للعرب لما كان الفتح، وملكوا فارس والروم، واستخدموا بناتهم وأبناءهم، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة؛ فقد حُكي أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رفاعًا، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحًا. وأمثال ذلك، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم، واستعملوهم في مهنتهم وحاجات منازلهم، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليهم، أفادوهم علاج ذلك، والقيام على عمله، والتفنن فيه... فبلغوا الغاية في ذلك، وتطوّروا بطور

١ - فجر الإسلام، ص ٦٣.

الحضارة والترف والأحوال، واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية... وكذلك أحوالهم في أيام المباهاة والولائم وليالي الإعراس؛ فأتوا من وراء ذلك الغاية"^(١). فترى من هذا أن ابن خلدون - في حكمه - قد خلط بين العربي في عصوره المختلفة، وأصدر عليه أحكامًا عامة، مع أنه هو نفسه القائل بأن العربي يتغيَّر بتغيُّر بيئته.

وينقد أحمد أمين رأي أوليري حينما يصف العربي بأنه "ضعيف الخيال، جامد العواطف"^(٢)، فيرى بأن منشأ ضعف خيال العربي لعله يرجع إلى أن الناظر في شعر العرب لا يرى فيه أثرًا للشعر القصصي ولا التمثيلي، ولا يرى الملاحم الطويلة التي تشيد بذكر مفاخر الأمة؛ كإلياذة هوميروس وشاهنامة الفردوسي، وأنه على الرغم من قصور العرب في هذا النوع من القول، فإن هذا الضرب أحد مظاهر الخيال لا مظهر الخيال كله؛ فالفخر والحماسة والغزل والوصف والتشبيه والمجاز، كل هذا ونحوه مظهر من مظاهر الخيال، والعرب قد أكثروا القول فيه كثرةً استرعت الأنظار وإن كان الابتكار فيه قليلًا. كذلك ما مُلِّغَ به شعر العربي من الغزل، وبكاء الأطلال والديار، وذكرى الأيام والحوادث،

١ - ابن خلدون: المقدمة، ج ٢، ص ٥٣٩.

وما وصف به شعوره ووجدانه، وصوّر به التياحه وهيامه، لا يمكن أن يصدر عن عواطف جامدة^(١).

وبعد أن ناقش أحمد أمين الآراء جميعاً وذكر أن العرب ليسوا في جاهليتهم ولا إسلامهم في درجة واحدة من الرقي العقلي والخلقي، ثم اقتصرت آرائه في فقراتٍ على وصف العربي الجاهلي، فوصفه بهذا الوصف: "العربي عصبي المزاج، سريع الغضب، يبيح للشيء التافه، ثم لا يقف في هياجه عند حد، وهو أشدُّ هياجاً إذا جُرِحَتْ كرامته، أو انتُهكت حُرمة قبيلته، وإذا احتاج أسرع إلى السيف واحتكم إليه حتى أفتتهم الحروب، وحتى صارت الحرب نظامهم المؤلف، وحياتهم اليومية المعتادة. والمزاج العصبي يستتبع عادةً ذكاء، وفي الحق أن العربي ذكيٌّ، يظهر ذكاؤه في لغته؛ فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالة والإشارة البعيدة، كما يظهر في حضور بديته، فما هو إلا أن يُفجأ بالأمر فيفجؤك بحسن الجواب، ولكن ليس ذكاؤه من النوع الخالق المبتكر؛ فهو يقلب المعنى على أشكالٍ متعددة، فيبهرك تفنُّنه في القول أكثر مما يبهرك ابتكاره للمعنى، وإن شئت فقل إن لسانه أمهر من عقله. خياله محدود وغير متنوع؛ فقلما يرسم له خياله عيشة خيراً من عيشته، وحياءً خيراً من حياته يسعى وراءها، لذلك لم يعرف «المثل الأعلى» لأنه وليد الخيال،

١ - فجر الإسلام، ص ٦٤.

ولم يضع له في لغته كلمةً دالةً عليه، ولم يشر إليه فيما نعرف من قوله،
وقلما يسبح خياله الشعري في عالمٍ جديدٍ يستقي منه معنىً جديدًا،
ولكنه في دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب^(١).

أما عن ناحية العربي الخلقية، فقد رأى ميله إلى حرية "قل أن يحدها
حدٌ، ولكن الذي فهموه من الحرية هي الحرية الشخصية لا الاجتماعية؛
فهم لا يدينون بالطاعة لرئيس ولا حاكم، تاريخهم في الجاهلية - حتى
وفي الإسلام - سلسلة حروب داخلية. وفي عهد عمر بن الخطاب كان
عصرهم الذهبي؛ لأنه شغلهم عن حروبهم الداخلية بحروب خارجية،
ولأنه - رضي الله عنه - مُنِحَ فهمًا عميقًا لنفسية العرب. والعربيُّ يجب
المساواة، ولكنها مساواةٌ في حدود القبيلة، وهو مع حبه للمساواة كبير
الاعتداد بقبيلته ثم بجنسه، يشعر في أعماق نفسه بأنه من دمٍ ممتازٍ، لم
يؤمن بعظمة الفرس والروم مع ما له ولهم من جذبٍ وخصبٍ، وفقيرٍ
وغنى، وبداءةٍ وحضارةٍ، حتى إذا فتح بلادهم نظر إليهم نظرة السيد
والمسود"^(٢).

ثم خَلَصَ أحمد أمين إلى أن العرب في جاهليتهم كان أكثرهم بدوًا،
وأن طور البداءة طورٌ طبيعيٌّ تمرُّ به الأمم في أثناء سيرها إلى الحضارة،
وأن لهذا الطور مظاهر عقلية طبيعية، تتجلى في ضعف التعليل، وعنَى

١- أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٦٥.

٢- أحمد أمين: المرجع السابق، ص ٦٥-٦٦.

بذلك عدم القدرة على فهم الارتباط بين العلة والمعلول والسبب والمسبب فهما تأمناً، "يمرض أحدهم ويألم من مرضه، فيصفون له علاجاً، فيفهم نوعاً ما من الارتباط بين الدواء والداء، ولكن لا يفهمه فهم العقل الدقيق الذي يتفلسف، يفهم أن عادة القبيلة أن تتناول هذا الدواء عند الداء، وهذا كل شيء في نظره؛ لهذا لا يرى عقله بأساً من أن يعتقد أن دم الرئيس يشفي الكلب، أو أن سبب المرض روحٌ شريرةٌ حلَّ فيه فيداويه بما يطرد هذه الأرواح، وأنه إذا خيف على الرجل الجنون نجَّسوه بتعليق الأقدار وعظام الموتى، إلى كثيرٍ من أمثال ذلك، ولا يستنكر شيئاً من ذلك ما دامت القبيلة تفعله؛ لأن منشأ الاستنكار دقة النظر والقدرة على بحث المرض وأسبابه وعوارضه، وما يزيل هذه العوارض. وهذه درجة لا يصل إليها العقل في طوره الأول"^(١).

ثم أورد أمثلةً للاستدلال على ضعف التعليل عند العرب، مثل قولهم بخراب سد مأرب بسبب جرذانٍ حُمْر، وقصة قتل النعمان بن المنذر لسنهار بسبب آجرة وضعها سنهار في أساس قصر الخورتق، لو زالت سقطت. ويطول بنا القول لو عددنا ما ذُكِرَ في كتب الأدب والتاريخ من هذا القبيل مما يتعلَّق بأنظار العرب للحوادث، وبخاصة الحوادث البعيدة التي تتعلَّق بالقبائل البائدة كطَسَم وجَدِيس، أو

١ - فجر الإسلام، ص ٦٧.

بالحوادث البعيدة عن زمن الهجرة كجذيمة الأبرش والزباء. ونستخلص من هذا كله أن العرب لم يكونوا يحسنون تعليل الحوادث، ولا يربطون المسببات بأسبابها ربطاً محكماً. ولم يكن هذا شأن العرب وحدهم؛ بل شاركهم فيه غيرهم من الأمم في طورٍ مثل طورهم كاليونان، وأصبحت هذه الأشياء موضوعاً لما يسمى «علم الميثولوجيا». هذا أيضاً يعلل لنا التجاءهم في تعرّف الحوادث الماضية والمستقبلية إلى الكهانة والعرافة وزجر الطير والعيافة، وهي أمورٌ ليست منطقية في تعرّف العلل والأسباب^(١).

ثم تحدّث عن مظهرٍ آخر من مظاهر العقلية العربية، لاحظته بعض المستشرقين ووافقهم هو عليه، هو أن طبيعة العقل العربي لا تنظر إلى الأشياء نظرةً عامةً وشاملةً، وليس في استطاعتها ذلك^(٢). وقد لاحظ هذا المعنى قبله بعض المؤلفين المسلمين الأقدمين؛ فقد أشار أبو الفتح الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م) إلى وجود نوعٍ أوليٍّ من الحكماء عند العرب في الجاهلية، وصفهم بأنهم "شرذمةٌ قليلة، وأكثر حكمتهم فلّات الطبع وخطر الفكر"^(٣)، وقال في موضعٍ آخر: "إن العرب والهند

١- أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٦٧-٦٨.

٢- أحمد أمين: المرجع السابق، ص ٦٩.

٣- الملل والنحل (٣ج)، تحقيق: أحمد فهمي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، ج ٢، ص ٣٦٨.

يتقاربان على مذهبٍ واحدٍ... والمقاربة بين الأمتين مقصورةً على اعتبار
خواص الأشياء، والحكم بأحكام الماهيات، والغالب عليهم الفطرة
والطبع. وإن الروم والعجم يتقاربان على مذهبٍ واحدٍ؛ حيث كانت
المقاربة مقصورة على اعتبار كيفية الأشياء، والحكم بأحكام الطباع،
والغالب عليهم الاكتساب والجهد" (١).

فالعربي لم ينظر إلى العالم نظرةً عامةً وشاملةً كما فعل اليوناني، بل
كان يطوف فيما حوله؛ فإذا رأى منظرًا خاصًا أعجبه تحرك له، وجاش
صدره بالبيت أو الأبيات من الشعر أو الحكمة أو المثل، "أما نظرةٌ
شاملةٌ وتحليلٌ دقيقٌ لأسسه وعوارضه، فذلك ما لا يتفق والعقل
العربي. وفوق هذا هو إذا نظر إلى الشيء الواحد لا يستغرقه بفكره؛ بل
يقف فيه على مواطن خاصة تستثير عجبه، فهو إذا وقف أمام شجرة لا
ينظر إليها ككل؛ إنما يستوقف نظره شيءٌ خاص فيها، كاستواء ساقها أو
جمال أغصانها، وإذا كان أمام بستان، لا يحيطه بنظره، ولا يلتقطه ذهنه
كما تلتقطه (الفوتوغرافيا)؛ إنما يكون كالنحلة، يطير من زهرة إلى زهرة،
فيرتشف من كل رشفة. هذه الخاصة في العقل العربي هي السرُّ الذي
يكشف ما ترى في أدب العرب - حتى في العصور الإسلامية - من
نقص، وما ترى فيه من جمال" (٢).

١- الشهرستاني: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٤٤.

٢- أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٧٠.

وقد خلصَ أحمد أمين من بحثه إلى أن هذا النوع من النظر الذي نجده عند العربي هو طورٌ طبيعيٌّ تمرُّ به الأمم جميعاً في أثناء سيرها إلى الكمال، نشأ من البيئات الطبيعية والاجتماعية التي عاش فيها العرب، وهو ليس إلا وراثه لنتائج هذه البيئات، "ولو كانت هناك أية أمةٍ أخرى في مثل بيئاتهم، لكان لها مثل عقليتهم، وأكبر دليل على ذلك ما يقرّره الباحثون من الشبه القوي في الأخلاق والعقليات بين الأمم التي تعيش في بيئات متشابهة أو متقاربة، وإذا كان العرب سكان صحارى، كان لهم شبهٌ كبيرٌ بسكان الصحارى في البقاع الأخرى من حيث العقل والخلق"^(١).

ورأى أحمد أمين أن العوامل التي عملت في تكوين العقلية العربية وفي تكييفها بالشكل الذي ذكره، هما عاملان قويان؛ هما: البيئة الطبيعية وعنى بها ما يحيط بالشعب طبيعياً من جبالٍ وأنهارٍ وصحراءٍ وغير ذلك؛ والبيئة الاجتماعية وأراد بها ما يحيط بالأمة من نُظم اجتماعية كنظام حكومة ودين وأسرة ونحو ذلك. وليس أحد العاملين وحده هو المؤثر في العقلية العربية. وحصر مظاهر الحياة العقلية في الجاهلية في الأمور التالية: اللغة والشعر والأمثال والقصص. وتكلم عن كل مظهر من هذه المظاهر وجاء بأمثلة استدلت بها إلى ما ذهب إليه.

١ - أحمد أمين: المرجع السابق، ص ٧٢.

والحدود التي وضعها أحمد أمين للعقلية العربية الجاهلية هي حدودٌ عامة، جعلها تنطبق على عقلية أهل الوبر وأهل المدَّر، لم يفرِّق فيها بين عقلية من عقلية الجماعتين. وقد كوَّنها ورسمها من دراساته لما ورَدَ في المؤلفات الإسلامية من أمور لها صلة بالحياة العقلية ومن مطالعاته لما أورده أوليري وبراون وأمثالهما عن العقلية العربية، ومن آرائه وملاحظاته لمشكلات العالم العربي ولوضع العرب في الزمن الحاضر. وبالرغم من ذلك فهي آراءٌ وملاحظاتٌ مستمدَّةٌ من آراءٍ وملاحظاتٍ وأوصافٍ عامة وشاملة، ولم تستند هذه الآراء والملاحظات إلى بحوث علمية ودراسات مختبرية.

وعلى كل حال، تقوم نظرية أحمد أمين في العقلية العربية على أساس أنها حاصل شيئين وخلاصة عاملين أثرا مجتمعين في العرب وكوَّنا فيهما هذه العقلية التي حدَّدها ورسم معالمها في الأوصاف المذكورة. والعاملان في رأيه هما: البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية. وعنى بالبيئة الطبيعية ما يحيط بالشعب طبيعياً من جبالٍ وأنهارٍ وصحراءٍ ونحو ذلك، وبالبيئة الاجتماعية ما يحيط بالأمة من نُظم اجتماعية كنظام حكومة ودين وأسرة ونحو ذلك. وهما معاً مجتمعين غير منفصلين أثرا في تلك العقلية. ولهذا رفض أن تكون تلك العقلية حاصل البيئة الطبيعية وحدها، أو حاصل البيئة الاجتماعية وحدها.

وخطأ من أنكر أثر البيئة الطبيعية في تكوين العقلية ومن هنا انتقد «هيجل» «Hegel»؛ لأنه أنكر ما للبيئة الطبيعية من أثر في العقل اليوناني والثقافة اليونانية، وحجة هيجل أنه لو كان للبيئة الطبيعية أثر في تكوين العقلية، لبات ذلك في عقلية الأتراك الذين احتلوا أرض اليونان وعاشوا في بلادهم، ولكنهم لم يكتسبوا مع ذلك عقلهم ولم تكن لهم ثقافتهم وعقليتهم. ورد أحمد أمين عليه هو أن "ذلك قد يكون صحيحًا لو كانت البيئة الطبيعية هي المؤثر الوحيد، إذن لكان مثل العقل اليوناني يوجد حيث يوجد إقليمه، وينعدم حيث ينعدم، أما والعقل اليوناني فنتيجة عاملين، فوجود جزء العلة لا يستلزم وجود المعلول"^(١).

ورأى أن أثر البيئة الطبيعية في العرب، أن بلادهم كانت "بقعة صحراوية تصهرها الشمس، ويقلُّ فيها الماء، ويجفُّ الهواء. وهي أمورٌ لم تسمح للنبات أن يكثر، ولا للمزروعات أن تنمو، إلا كلاً مبعثرًا هنا وهناك، وأنواعًا من الأشجار والنبات مفرّقة استطاعت أن تتحمّل الصيف القاطظ والجو الجاف، فهزلت حيواناتهم، ونحلت أجسامهم، وأضعفت كذلك حركة المرور فيها، فلم يستطع السير فيها إلا الجمل، فصعّب على المدنيات المجاورة من فرسٍ ورومٍ أن تستعمر الجزيرة

١ - فجر الإسلام، ص ٧٣.

وتفيض عليها من ثقافتها، اللهم إلا ما تسرّب منها في مجارٍ ضيقة مُعَوَّجَة عن طرق مختلفة". ولا بد أيضًا من النظر إلى أثر هذه البيئة الطبيعية في النفوس؛ إذ جعلتها تشعر أنها وحدها تجاه طبيعة قاسية تقابلها وجهًا لوجه لا حول لها ولا قوة، لا مزروعات واسعة ولا أشجار باسقة، تطلع الشمس فلا ظل، ويطلع القمر والنجوم فلا حائل، تبعث الشمس أشعتها المحرقة القاسية فتصيب أعماق نخاعه، ويسطع القمر فيرسل أشعته الفضية الوداعة فتبهر لبّه، وتتألق النجوم في السماء فتملك عليه نفسه، وتعصف الرياح العاتية فتدمر كلّ ما أتت عليه. والبيئة الطبيعية أيضًا هي التي أثّرت - على رأيه - في طبع العربي، فجعلته كئيبيًا عابسًا صارمًا يغلب عليه الوجد، موسيقاه ذات نغمةٍ واحدةٍ متكرّرة عابسة حزينة، ولغته غنية بالألفاظ، إذا كانت تلك الألفاظ من ضروريات الحياة في المعيشة البدوية، وشعره ذو حدودٍ معيّنة مرسومة، وقوانينه تقاليد القبيلة وعُرف الناس، وهي التي جعلته كربيًا على فقره، يبذل نفسه في سبيل الدفاع عن حمى قبيلته^(١). كل هذه الصفات وأمثالها من صفات ذكرها أحمد أمين وشرحها هي في رأيه من خلق هذه البيئة الطبيعية التي جعلت لشبه الجزيرة العربية وضعًا خاصًا، ومن أهلها جماعة امتازت عن بقية الناس بالميزات المذكورة.

١- أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٧٣-٧٤.

وقد استمر أحمد أمين في شرح أثر البيئة الطبيعية في عقلية العرب وفي مظاهر تلك العقلية التي حصرها كما ذكرت في اللغة والشعر والأمثال والقصص^(١). أما أثر البيئة الاجتماعية التي هي في نظره شريكة للبيئة الطبيعية في عملها وفعلها في العقلية الجاهلية وفي كل عقلية من العقليات، فلم يتحدث عنه ولم يشر إلى فعله، ولم يتكلم على أنواع تلك البيئة ومقوماتها التي ذكرها في أثناء تعريفه لها، وهي: "ما يحيط بالأمة من نظم اجتماعية كنظام حكومة ودين وأسرّة ونحو ذلك"، ثم خلص من بحثه عن العقلية العربية وعن مظاهرها وكأنه نسي ما نسبه إلى العامل الثاني من فعل، بل الذي رأيته وفهمته أنه أرجع ما يجب إرجاعه إلى عامل البيئة الاجتماعية - على حد قوله - إلى فعل وأثر البيئة الطبيعية في عقلية عرب الجاهلية. وجميع الآثار السابقة تحتم على العربي أن يكون في دائرة متصلة من الحركة لا تنقطع، بل كانت جميعها في دمه. ومن ثم لا يمكن أن نتصور القبائل بأنها كانت كئلاً جامدة صماء لا تتلاقى. وهكذا صارت البيئة الطبيعية هي العامل الأول والفعال في تكوين تلك العقلية، وحرماننا بذلك من الوقوف على أمثلته لتأثير البيئة الاجتماعية في تكوين عقلية عرب الجاهلية.

ويعتقد جواد علي أن أحمد أمين لو كان وقف على ما كتبت في

١ - انظر ما كتبه أحمد أمين عن مظاهر الحياة العقلية، المرجع السابق، ص ٧٩-٩٨.

الألمانية أو الفرنسية أو الانجليزية عن تاريخ اليمن القديم المستمد من كتابات المُسند، ولو كان وقف على ترجمات كتابات المسند أو الكتابات الثمودية والصفوية واللحيانية، لما كان قد أهمل الإشارة إلى أصحاب تلك الكتابات، ولعدّل حتّى حدود تعريفه للعقلية العربية، ولأفرز صفحة أو أكثر إلى أثر طبيعة أرض اليمن وحضرموت في عقلية أهل اليمن وفي تكوين حضارتهم وثقافتهم؛ فإن فيما ذكره في فصوله عن العقلية العربية الجاهلية ما يجب رفعه وحذفه بالنسبة إلى أهل اليمن وأعلي الحجاز^(١).

ونجد في كتاب «جزيرة العرب في القرن العشرين» لحافظ وهبة فصلاً بعنوان «السكان»، وردت فيه ملاحظاتٌ قيّمةٌ عن عقلية الحضرة وعقلية البدو في المملكة العربية السعودية وبعض المناطق المجاورة لها في القرن العشرين^(٢). وهذه الملاحظات وإن كانت تتعلق بالعرب في زماننا القريب، إلا أنها مع ذلك ذات فائدة ومنفعة لفهم العقلية العربية في الجاهلية؛ فالزمان وإن تباعد بين عرب الجاهلية وعرب القرن العشرين، إلا أن الخصائص العقلية لأكثر أهل البادية المنعزلين عن العالم الخارجي لا تزال كما هي، لم تتغيّر في كثيرٍ من الأمور، بل إليك من نسبيهم

١- الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٢٧٢.

٢- جزيرة العرب في القرن العشرين، ص ٦-١٤.

«الحضر» أو العرب المستقرين في شبه الجزيرة العربية، فإن البعيدين منهم عن الأماكن التي لها اتصال بالعالم الخارجي وبالأجانب لا يزالون يحتفظون بكثيرٍ من خصائص عقلية حضر اليمن والحجاز عند ظهور الإسلام. ومن هنا تفيدنا ملاحظات حافظ وهبة هذه وملاحظات غيره من الرحالة والباحثين العرب والسائحين والخبراء الأجانب، فائدة كبيرة للتعرف على أسس تفكير العرب قبل الإسلام.

ويشير حافظ وهبة في حديثه عن الحضر إلى اختلاف طباعهم باختلاف أماكنهم، فقال: "والحضر تختلف طباعهم باختلاف المناطق التي يعيشون فيها، وظروف الحياة التي تحيط بهم؛ فأهل حائل أقرب مظهرًا إلى البداوة، وأهل مكة والمدينة واليمن العالية أبعد مظهرًا عن البداوة من البلاد الأخرى العربية، وأهل القصيم ألين عريكة من أهل العارض؛ لأنهم كثيرو الاختلاط والتعامل مع البلاد الأخرى كالشام وفلسطين ومصر، ولذا فترى موظفي ديوان الملك المكلّفين بالمقابلات والتشريفات من أهل القصيم وحائل. وأهل الرياض أرقى بكثيرٍ من أهل الدواسر الذين لم يفارقوا البلاد، ولم يعرفوا شيئًا عن أحوال العالم الخارجي"^(١).

١ - جزيرة العرب في القرن العشرين، ص ٧.

وأشار إلى تنافس الحضرة وإلى تفاخرهم وتفضيل أنفسهم بعضهم على بعض في الشرائع والعادات وحتى في اللهجات؛ فذكر أن "أهل القصيم يفضلون أنفسهم على سائر سكان نجد بالعلم والمعرفة وسماحة الخلق والإحاطة بأحوال العالم. وأهل العارض يفضلون أنفسهم بالشجاعة والصبر على المكاره والمحافظة على شرائع العرب وأنهم جند التوحيد الموالون لأهله في أوقات الشدة. وأهل البحرين يفاخرون أهل الكويت بكرمهم... وأهل الكويت من جهة أخرى يرمون أهل البحرين بالبساطة؛ وحضر نجد وبدوهم ينالون من أهل الكويت والأحساء والبحرين... والحضر يعيب بعضهم بعضاً بلهجاتهم، وربما كانوا مجتمعين على النيل من لهجة أهل الأحساء والبحرين لما فيها من الرخاوة والميل إلى الإمالة"^(١).

ومن طباع الحضرة - كما يقول حافظ وهبة - «الخلق التجاري»، وهم يتباينون في ذلك أيضًا بتباين أماكنهم؛ "فأهل القصيم والزلفى وشقرا أنشط من أهل نجد في التجارة؛ فقوافلهم تقصد سائر الجهات العربية، وتجارهم كثيرًا ما يسافرون إلى الهند ومصر في سبيل التجارة، والتجار النجديون المعروفون في الهند ومصر والعراق من أهل هذه البلاد. أما أهل الكويت فنشاطهم في التجارة البحرية... ويغلب على

١ - حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين، ص ٧-٨.

حضر الجزيرة - وعلى الأخص أهل خليج فارس - التعاون التجاري سواء بين الأهالي بعضهم مع بعض أو بين الأمراء والأهالي"^(١).

أما طباع البدو، وهي طباعٌ تختلف عن طباع الحضرة، فقد وصفها بقوله: "أما البدو فهم القبائل الرُّحَّل المتنقلون من جهةٍ إلى أخرى طلباً للمرعى أو الماء، والطبيعة هي التي تجبر البدوي على المحافظة على هذه الحياة. وحياة البدوي حياةٌ شاقَّةٌ مضمنيَّةٌ، ولكنه وهو ممتنع بأكبر قسطٍ من الحرية يفضلها على أي حياةٍ مدنيةٍ أخرى. هذه الحياة الخشنة هي التي جعلت القبائل يتقاتلون في سبيل المرعى والماء، وهي التي جعلت سوء الظن يغلب على طباعهم؛ فالبدوي ينظر إلى غيره نظرة العدو الذي يحاول أخذ ما بيده أو حرمانه من المرعى. فإن إن البدوي في الصحراء لا يهيمه إلا المطر والمرعى، فأزمته الحقيقية انحباس المطر وقلة المرعى، ولا يبالي بما يصيب العالم في الخارج ما دامت أرضه مخضرة، وبعيره سميناً وغنمه قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحمًا. أما إذا نما السكان وضاعت بهم الأرض أو لم تجد أراضيهم، فليس هناك سبيلٌ إلا الزحف والقتال. ومن ثم "كان البدو في غارات وحروب مستمرة كل قبيلة تتتهز الفرص للإغارة على جاريتها لنهب مالها، وتعدُّ الإمارات وتشاحن الأمراء مما يشجع البدوي. ولهذا كان للقبيلة قيمتها في بلاد

١ - حافظ وهبة: المرجع السابق، ص ٨-٩.

العرب؛ فالإنسان يقوى بأبنائه وأبناء عمومته الأقربين والأبعدين، وإذا كانت العصبية ضعيفة أمكن تقوية القبيلة بالتحالف مع سواها حتى يقوى الفريقان ويأمننا شر غيرهما من القبائل القوية"^(١).

ولقد اعتبر القبائل الأراضي التي اعتادت رعيها، "والمياه التي اعتادت أن تردها ملكاً لها لا تسمح لغيرها من القبائل بالدنو منها إلا بإذنها ورضاهها، وكثيراً ما تأنس إحدى القبائل من نفسها القوة فتهاجم بلا سابق إنذار على قبيلة أخرى وتنتزع منها مراعيها ومياهها"، ومع ذلك فإن "قبائل العرب ليسوا كلهم سواء في الشر والتعدّي على السابلة والقوافل؛ فبعضها اشتهر أمره بالكرم والسماحة والترفع عن الدنيا، كما اشتهر بعضها بالتعدّي وسفك الدماء بلا سبب سوى الطمع فيما في أيدي الناس"، وبالرغم من ذلك "ليس للبدوي قيمة حربية تُذكر، ولذا كان اعتماد الأمراء على الحضرة؛ فهم الذين يصمدون للقتال ويصبرون على بلائه وبلواته. وكثيراً ما كان البدو شراً على الأمير المصاحين له؛ فإن الأمير إذا ما بدت منه الهزيمة كانوا هم البادئين بالنهب والسلب ويحتجّون بأنهم هم أولى من الأعداء المحاربين"^(٢).

١- حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين، ص ٩-١٠.

٢- حافظ وهبة: المرجع السابق، ص ١٠-١١.

ومن هذا القبيل يصف جواد علي البدو فيقول: "ويظهر البدوي في عين الحضري وكأنه إنسانٌ مزدوج الشخصية، جامع للتقيضين، له وجهان؛ فهو محاربٌ يجارب معك في صفوفك، أما إذا شعر أن الهزيمة ستحلُّ بك، فإنه أوَّل مَنْ ينقلب عليك، فيُمعن عندئذٍ في سلبك ما معك ونهبه، لا فرق عنده أن يكون الذي يجارب معه وفي صفوفه عربياً أو أعجمياً، شريفاً من أسرة عريقة أم قائداً محترفاً"^(١).

ومثلما أشاد هيرودوتس وديودور الصقلي بحب العربي للحرية وصفهم حافظ وهبة بذلك حين قال: "والبدوي لا يرى أسعد من حياة البادية، ويرى الحاضرة حبساً لحرية وتنقله حيث يريد"^(٢). ومثلما وصف أوليري حب العربي إلى السلب والنهب وتمردّه الدائم ضد كل سلطةٍ، وصفهم بذلك حافظ وهبة أيضاً؛ فقال: "والبدوي إذا لم يجد سلطةً تردعه أو تضرب على يده يرى من حقه نهب الغادي والرائح؛ فالحقُّ عنده هو القوة يُخضع لها، ويُخضع غيره بها... فالقوافل التي تمرُّ بأرض قبيلةٍ وليس معها مَنْ يحميها من أفراد هذه القبيلة معرّضة للنهب"^(٣).

١- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٢٨٤.

٢- جزيرة العرب في القرن العشرين، ص ١١.

٣- حافظ وهبة: المرجع السابق، ص ١١-١٢.

ويرى حافظ وهبة أن البدوي أعدل الناس في قسمة الغنيمة؛ إذ يقول: "وليس أعدل من البدوي في تقسيم الغنيمة حتى قد يتلفون الشيء تحزيراً للعدل، ويقسمون السجادة بينهم كما يقسمون القميص والسروال، كل هذا إرضاءً لضائرتهم ودفعاً للظلم، إنهم يعرفون الخيام حق المعرفة لأنها بيوتهم التي يعيشون فيها، ومع ذلك فهم يقسمونها مراعاةً للعدل، أما الإبل والغنم فإنهم يقسمونها إذا أمكن القسمة، أو يقومونها بثمان إذا لم يكن هنالك سبيلٌ للقسمة"^(١).

وكما وصف ابن خلدون العرب الذي يهدم القصور ليستعمل حجارتها كأثاثٍ لأنيته وخشب سقوفها في أوتاد خيامه^(٢)، وصفهم بذلك حافظ وهبة، بل لقد وصف الأمر من مشاهداته؛ فقال: "والبدو لا يفهمون الحياة حق الفهم كما يفهمها الحضري، لا يفهمون البيوت وهندستها، ولا يفهمون فائدة الأبواب والنوافذ الخشبية، حتى أن البدو الذين كانوا في جيش الملك حسين في الثورة العربية كان عملهم بعد الاستيلاء على الطائف نزع خشب النوافذ والأبواب، لا لبيعها والانتفاع بثمانها بل لاستعمالها وقوداً إما للقهوة أو الطبخ أو التدفئة،

١- حافظ وهبة: المرجع السابق، ص ١٣.

٢- المقدمة، ج ٢، ص ٥٠٨.

وبدو نجد قد فعلوا مثل ذلك تمامًا؛ فعندما أسكنت الحكومة بعض القبائل في ثكنة جَرَوَل، اكتشفت الحكومة أن النوافذ الخشبية والأبواب تنقص بالتدريج، وأنها استعملت للطبخ وتحضير القهوة، فأخرجهم جلالة الملك توًّا من الثكنة، وأسكن الحضر فيها"^(١).

فترى من ملاحظات حافظ وهبة هذه أن كثيرًا من الطباع التي تطبّع بها عرب الجاهلية ما زالت باقية، وبينها طباعٌ نهى عنها الإسلام وحرّمها؛ لأنها من خلال الجاهلية، ومع ذلك احتفظ بها البدوي وحافظ عليها، وسبب ذلك أن من الصعب عليه نبذ ما كان عليه آباؤه وأجداده من عادات وتقاليد؛ فالتقاليد والعُرف وما تعارفت عليه القبيلة هي عنده قانون البداوة، وقانون البداوة دستور لا يمكن تحطّيه ولا مخالفته. ومن ثمّ يرى جواد علي أنه من الخطأ أن يظن أحدٌ أن البداوة حربية لا حدّ لها، وفوضى لا يردعها رادع، وأن الأعراب فرديون لا يخضعون لنظام ولا لقانون على نحو ما يتراءى ذلك للحضري أو للغريب. إنهم في الواقع خاضعون لعرفهم القبلي خضوعًا صارمًا شديدًا، وكل من يخرج على ذلك العُرف يُطرد من أهله ويتبرأ قومه منه، ويضطر أن يعيش طريدًا أو صعلوكًا مع بقية الصعاليك"^(٢).

١- حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين، ص ١٣.

٢- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٢٧٧.

وقد تأصلت هذه النزعة الفردية في نفوس الأعراب وأشبه الحضر وفي أكثر الحضر حتى صارت أنانية مفرطة، عاقت المجتمع العربي في الجاهلية وفي الإسلام عن التقدم وعن التوثق والاتحاد. وفي الأديين الجاهلي والإسلامي أمثلةٌ عديدةٌ سارت بين الناس تمثل هذه الرؤية الضيقة إلى الحياة؛ ففي حديثٍ عن أبي هريرة أنه قال: «قام رسول الله ﷺ إلى الصلاة وقمنا معه، فقال أعرابيٌّ في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا»^(١). فقدّم نفسه على الرسول ﷺ أولًا، ثم إنه لم يخصّص أحدًا بالرحمة غير الرسول وغير نفسه مدفوعًا بهذه الأثرة والأنانية.

وقد بحث «جوستاف لوبون» و«إرنست رينان» و«هنري لامانس» في عقلية الأعرابي، وما رأوه فيه من وجود فردية متطرّفةٍ عنده، إلى درجةٍ تجعله يقيس كل شيءٍ بمقياس الفائدة التي يحصل عليها من ذلك الشيء. ثم ما وجدوه فيه في الوقت نفسه من خوفه من

١ - أحمد بن حنبل (أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني): المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ج١٢، ص٢٤٤؛ البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردة الجعفي) (ت٢٥٦هـ / ٨٧٠م): المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، الرياض، دار السلام للنشر والتوزيع - وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص١٠٥٨.

الإمعان في القسوة، ومن الإمعان في القتل، لما يدركه من رد الفعل الذي سيحدث عند أعدائه ضده إذا تمكَّنوا منه، ومن نتائج الأخذ بالثأر. كما بحثوا عن ميل الأعرابي إلى المبالغة؛ المبالغة في كلامه، والمبالغة في إعطائه إذا أعطى، والمبالغة في مدح نفسه، والتباهي بشجاعته وبكرمه وبشدة صبره، إلى غير ذلك. مع وجود تناقضٍ فيه بالنسبة إلى ادعاءاته هذه؛ فهو يحبُّ المديح كثيراً، وهو - على حدِّ قولهم - إذا أعطى، صوَّر ذلك غاية الجود، وبالغ فيه، وظلَّ يذكره في كل وقتٍ، ويجبُّ أن يُطرى عليه، لاسيما إذا كان من شاعرٍ فهو الصحفي والمذيع ذلك الوقت^(١).

ولعلَّ هذه الأثرة والفردية دفعت الحضر إلى ما رمى الأعراب بالغلظة والكبر والجفاء، إلى غير ذلك من نعوتٍ عرِّفت عند العلماء بـ«عبيَّة الجاهلية». وإذا أردتُ الوقوف على عنجهية الجاهلية وتكبرُّ سادات القبائل وعلى نظرتهم إلى مَنْ هم دونهم في ذلك الوقت، فخذ ما رُوِيَ من قصةٍ وقعت لمعاوية بن أبي سفيان على ما يرويه أهل الأخبار؛ فقد رُوِيَ أن النبيَّ ﷺ أمر معاوية بإنزال وائل بن حُجر الكندي منزلاً بالحرَّة، فمشى معاوية ووائلٌ راكب، وكان النهار شديداً، فقال معاوية: ألقِ إليَّ نعلك، قال: لا، إني لم أكن لألبسها وقد لبستها. قال: فأردفني،

١- هنري لامانس: نفسية البدو قبل الإسلام، مجلة المشرق، عدد ٢، ١٩٣٢م، ص ١٠١ (وما بعدها).

قال: لست من أرداف الملوك. قال: إن الرمضاء قد أحرقت قدمي، قال: لا يبلغ أهل اليمن أن سوقة لبس نعل ملك. ولكن إن شئت قصرتُ عليك ناقتي فسرت في ظلها. فأتى معاوية النبي ﷺ، فأنبأه، فقال: «إن فيه لعبيّة من عبيّة الجاهلية»^(١).

والعبيّة: هي الكبرُ والفخر، وعبيّة الجاهلية: نخوتها. وفي الحديث: «إن الله قد أذهب عنكم عبيّة الجاهلية وتعاضمها بأبائها»^(٢)، وقد وُصفت قريش ونُعتت بتكبرها حتى قيل: "هذه عبيّة قريش"^(٣). وقد ذمّ الإسلام ونهى المسلمين عن عبيّة الجاهلية، وفخرهم بالأنساب والآباء، وهي أمورٌ لا تستوجب فخر مفاخر.

١- ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري): الطبقات الكبرى (١١ ج)، تحقيق: علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م، ج ١، ص ٣٥٠-٣٥١؛ ابن عساکر (ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الدمشقي): تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واردها وأهلها (٨٠ ج)، تحقيق: سعيد عمرو بن غرامة العمروري، بيروت، دار الفكر، د. ط، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ج ٦٢، ص ٣٨٤-٣٨٦، ٣٨٩.

٢- الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي): الجامع المختصر من السنن عن النبي ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل (٦ ج)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ج ٥، ص ٦٩٠؛ السمعاني (أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور): الأنساب (١٣ ج)، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية، ط ١، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م، ج ١، ص ١١.

٣- المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١، ص ٥٧٤.

ونظراً إلى ما للبدواة من فقرٍ وقسوةٍ وغلظٍ في المعاش، ومن ضيق أفقٍ في المدارك وقصر نظرٍ في شئون هذا العالم وفي فهم الحياة، نظر العربي إلى الأعرابي نظرة استجهاً وازدراء، ونظر إلى نفسه نظرةً فيها واستعلاء؛ فكما ذكرنا أن "الأعرابي إذا قيل له: يا عربي فرح بذلك وهشَّ له، والعربي إذا قيل له: يا أعرابي غضب"^(١). لما بين الحياتين من فروقٍ وأضادٍ؛ فقد جبلت البادية أبناءها على أن يكونوا غرباء عن العالم المتحصّر وعن عقلية أهل المدن، متغترسين مغرورين - على فقرهم وفقر مَنْ يحيط بهم - فخورين بأنفسهم إلى حدِّ الزهو والخروج عن الحد؛ فكانوا إذا تكلموا رفعوا أصواتهم وظهرت الخشونة في ألفاظهم، وإذا تعاملوا مع غيرهم ظهر عليهم الحذر خشية الغدر بهم. ولهذا قال الحضرمي: "أعرابيٌّ جلف"، أي جاف^(٢)، وفي الحديث النبوي: «مَنْ بدا جفا»^(٣)، أي غلظَ طبعه لقلّة مخالطة الناس^(١)، وقالوا: "أعرابيٌّ فُحّ

١- ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٥٨٦-٥٨٧، ج ٩، ص ١٢٨-١٢٩؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٣٤.

٢- المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٦، ص ٦٠.

٣- ابن أبي شيبّة (أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم): المصنف (١٥ ج)، تحقيق: أسامة إبراهيم محمد، القاهرة، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ١، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٨م، ج ٦، ص ٤٦٨؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج ٣، ص ٤٢٢؛ الطبراني (أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي): المعجم الكبير (٢٥ ج)، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ط ٢، د.ت، ج ١١، ص ٤٧؛ البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن موسى

وأعرابيٌّ قُحاحٌ"، وهو الذي لم يدخل الأمصار، ولم يختلط بأهلها^(٢).
لهذه الخشونة التي خلقتها طبيعة البادية في الأعرابي - وبالطبع هو لا دخل له بها، فلا يشعر بها ولا يرى أن فيه شيئاً منها - كان العرب إذا تحدّثوا عن شخص فيه قسوة وخشونة، قالوا عنه: "فيه أعرابية"؛ كالذي ذكروه عن عيينة بن حصن الفزاري مثلاً، من أنه "أحمقٌ مُطاعٌ"، دخل على النبيِّ ﷺ من غير إذنٍ وأساء الأدب، فصبر النبي ﷺ على "جفوته وأعرابيته"^(٣).

وقد وُصِفَ الأعرابيُّ بالجهل، بل بالجهل المطبق؛ فهو وثنيٌّ، ولكنه لا يعي شيئاً من أمور الوثنية، وهو مسيحيٌّ، ولكنه مسيحيٌّ بالاسم؛ لا يعرف عن المسيحية شيئاً في الغالب، وهو مسلمٌ، ولكنه لا يعرف عن الإسلام إلا الاسم؛ وقد وصفهم الله بذلك فقال: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا

الخسر وجردي): السنن الكبرى (١٠ج)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ج١٠، ص١٠١.
١- المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج٦، ص٧٤.
٢- المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٢.
٣- الدارقطني (أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي البغدادي): سنن الدارقطني (٤ج)، تحقيق: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٣، ٢٠١١م، ج٣، ص١٥٤؛ ابن حجر الهيتمي (نور الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان الأنصاري): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠ج)، تحقيق: حسام الدين القدسي، بيروت، منشورات دار الكتاب العربي، د.ط، د.ت، ج٧، ص٩٥.

وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴿١﴾. ونجد في كتب الأدب والأخبار قصصًا يمثل هذا الجهل الذي رُمي به الأعراب، في بعضه حقٌ وفي بعضه باطلٌ؛ لأنه موضوعٌ حُمِلَ عليهم حملًا للانتقاص منهم، وليكون قصصًا لتسليّة الحضر في مجالسهم. كذلك فهو حقودٌ، لا يرى أن يغفر ذنب من أساء إليه؛ بل يظلّ في نفسه حاقدًا عليه حتى يأخذ ثأره منه، ومما يُروى في ذلك أن أعرابيًا قيل له: "أيسرك أنك من أهل الجنة وأنك لا تدرك ثأرك قط؟ فقال: بل يسرني أن أدرك الثأر وأنفي العار وأدخل مع فرعون النار" (٢).

وقد اتهم الأعراب بالخشونة في الحديث؛ فإذا تكلموا رفعوا أصواتهم، وقد أنبهم القرآن ووبّخهم لفعالهم هذا؛ إذ جاء فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ

١- سورة التوبة: آية: ٩٧.

٢- الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل): محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (٤ج)، تحقيق: سجع الجبيلي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٩م، ج٣، ص١٩٤؛ الوطواط (أبو إسحاق جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى): غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م، ص٤٩٣؛ النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد القرشي التيمي): نهاية الأرب في فنون الأدب (٣٣ج)، تحقيق: مفيد قمبيحة وآخرون، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م، ج٦، ص٦٧.

يَعُضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ
لِلتَّقْوَى لَّهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾. وقد كان من خشونتهم وأعرابيتهم
أن وفد بني تميم - وهم أعراب - لما جاءوا إلى النبي ﷺ يعلنون
دخولهم في الإسلام، وجدوا الرسول ﷺ في بعض حجراته، فقالوا:
اخرج إلينا يا محمد؛ جئنا نفاخرك، وقال بعضهم: يا محمد اخرج إلينا إن
مدحي لزين وإن ذمي لشين^(٢)، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ
الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ
خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾.

ولا يعرف الأعرابي شيئاً غير القوة والبطش ولا يخضع إلا
لسلطانها. وبموجب هذه النظرة بنى أصول الحق والعدل، وما يتبعها
من حقوق. وهو فخورٌ بنفسه متباهٍ بشجاعته، لكنه لا يصبر إذا طال
القتال وجدَّ، ولا يتحمل الوقوف طويلاً في ساحة المعركة، لاسيما إذا
شعر أن القتال غير متوازن، وأن أسلحة خصمه أمضٌ في القتال وأقوى

١ - سورة الحجرات: آية: ٢-٣.

٢ - ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري): سيرة النبي ﷺ (٥ج)،
تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ط.، دن، ج ٤،
ص ٢٤٣؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ١١٥-١١٦؛ عز الدين ابن الأثير (أبو
الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري): الكامل في التاريخ (١١ج)، تحقيق:
أبو الفداء عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ج ٢،
ص ١٥٧-١٥٨.

٣ - سورة الحجرات: آية: ٤-٥.

من أسلحته، فيويّ عندئذٍ الأدبار، ولا يرى في هروبه هذا من المعركة شيئاً ولا عيباً. وفي تاريخ معارك الجاهلية - ولاسيما معاركهم مع العجم ومع قواتهم النظامية - أمثلة عديدة من هذا القبيل. ومن ثمّ فطبيعة الأعراب لا تقيم وزناً ولا تعطي أهمية للعقود في مثل هذه المواقف؛ فإن رأت هواها في القتال قد تغيّر، وأن الأمل في كسب مغنم قد تضاعف، انسحبت منه بعذرٍ قد يكون تافهاً، وبغير عذرٍ أيضاً. وقد لا تنسحب؛ وإنما تبدّل الجبهة، بأن تذهب إلى الجانب الآخر فتحارب معه، وتقاتل عندئذٍ من كانت تقاتل معه؛ لأنها وجدت الربح من هذا الجانب مضمون، وأن ما ستناله منه فائدة أكثر. وذلك بعد مفاوضات سرية بالطبع. وهذا ما أزعج الروم والفرس، وجعلهم لا يطمئنون إلى قتال العرب معهم وفي صفوفهم، فرموهم بالغدر. فكانوا إذا كلفوهم بالحرب معهم عهدوا إليهم القيام فيها بأعمال حربية ثانوية، أو الانفراد بحرب الأعراب الذين في الجانب الآخر. فقد حدث مراراً أن هرب الأعراب من ساحة القتال حين سعرت نار الحرب، فأحدث هروبهم ارتباكاً في جانب من كانوا يقاتلون معه أدى إلى هزيمته؛ لما أحدثه هذا من فجوة في صفوف المقاتلين. يعبر عن ذلك قول الصحابي أبي خيثمة مالك بن قيس بن ثعلبة الأنصاري وهو يبشّر أبا بكر الصديق بنصر

المسلمين على المرتدين في اليمامة: "يا خليفة رسول الله، أتينا من قبل الأعراب؛ انهزموا بنا، وعودونا ما لم نكن نحسن"^(١).

والأعرابيُّ صارمٌ عبوسٌ، إذا ضحك ضحك بقدر، وكأنه يدفع بضحكته هذه ضريبةً فُرِضت عليه. يكره الدعابة، ويرى فيها تبدُّلاً لا يليق صدوره من إنسان كريم. بقي شأنه كذلك حتى في الإسلام؛ فلما وصف أبو عبد الله مصعب بن عبد الله الزبيريُّ (ت ٢٣٦هـ / ٨٥١م) عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، قال عنه: "كان امرءًا صالحًا، وقد كانت فيه دعابة"^(٢). حتى أن من العلماء مَنْ عدَّ الدعابة من الشوائب التي تنقص المروءة وتؤثِّر في صاحبها وتطعن فيه، فلا تجعله أهلاً لأن يؤخذ عنه الحديث. أي جعلوه شخصاً غير موثوق به^(٣).

١- الديار بكرى (حسين بن محمد بن الحسن) (ت ٩٦٦هـ / ١٥٥٩م): تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس (ج٣)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٩م، ج٣، ص٢٠١.
٢- نسب قرينش، تحقيق: ليفي بروفنسال، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ١٩٨٢م، ص٢٧٨؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج٣٢، ص٢٣٨.
٣- ابن حبان (أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ البُستي): الثقات (ج٩)، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، حيدر آباد، الدكن، دائرة المعارف العثمانية، ط١، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م، ج٤، ص٣٠٢؛ ابن الجزري (شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الدمشقي): غاية النهاية في طبقات القراء (ج٢)، تحقيق: ج. برجستراسر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ج١، ص٥٣٥؛ مغلطي (علاء الدين أبو عبد الله مغلطي بن قليج بن عبد الله البكجري المصري الحكري): إكمال تهذيب

وبالإضافة إلى ذلك، فالأعراب أهل مَنَّة؛ إذا فعلوا معروفاً ظلوا يتحدَّثون عنه، ويتمنون بصنعه على مَنْ قَدَّموه له، وهُم يريدون منه صنع أضعاف ما صنعه له. ويُذكر أن النبي ﷺ كان يميِّز بين الأعراب وبين أهل البادية، وهُم الذين كانوا ينزلون أطراف الحاضرة أو القارة (القارية) وحوهم، فكان ينهى عن قبول هدية الأعراب؛ فيُروى أنه لما أهدت أمّ سنبلة الأسلمية لبناً إلى بيت رسول الله ﷺ، أبت عائشة قبوله؛ لأن رسول الله ﷺ قد نهى أهله عن قبول هدية أعرابي. وبينما كانت أم سنبلة في بيته، دخل رسول الله ﷺ، فقال: «ما هذا؟» قالت عائشة: يا رسول الله، هذه أم سنبلة أهدت لنا لبناً، وكنت نهيئنا أن نقبل من أحدٍ من الأعراب شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: «خذوها، فإن أسلم ليسوا بأعراب، هُم أهل باديتنا ونحن أهل قاريتهم إذا دعوناهم أجاوبوا وإن استنصرناهم نصرنا»^(١). ويُفهم من هذا الخبر أن الرسول ﷺ

الكامل (١٢ج)، تحقيق: عادل محمد وأسامة بن إبراهيم، القاهرة، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ج ٣، ص ٦٥؛ ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكفائي): تهذيب التهذيب (٧ج)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ج ٢، ص ٤٤٤.

١- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٨، ص ٢٩٤؛ الطبراني: المعجم الكبير، ج ٢٥، ص ١٦٣-١٦٤؛ ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي): الاستيعاب في أسماء الأصحاب (٤ج)، تحقيق: محمد علي الجاوي، بيروت، دار الجيل، ١،

فرَّق بين العرب البادية المقيمين حول القارية (أهل الحاضرة)، وهُم على اتصالٍ دائمٍ بالحضر، وبين الأعراب، وهُم البعيدون عن أهل الحواضر، وهُم الذين نهى النبي ﷺ عن قبول هدية منهم؛ وذلك بسبب جفائهم على ما يظهر وممتهم، ولأنهم لا يهدون شيئاً إلا وطمعوا في ردِّ ما هو أكثر منه لغلظ معاشهم وضيق تفكيرهم.

إذن، فأهل البادية المجاورون للحضر أخفُّ وطأةً من الأعراب؛ لتأثرهم بحياة الحضر. ولعلَّ منهم مَنْ شارك الحضر في التعامل. ونرى أهل الأخبار يروون أن أهل القرى كانوا أصحاب زرعٍ ونخيلٍ وخيلٍ ونعمٍ كثيرٍ وإبل، يقيم حولهم أناسٌ بادون. كالذي كان حول مكة ويشرب والطائف وقرى الحجاز واليمن وغير ذلك، فإن هؤلاء لم يكونوا أعراباً، هجروا الحواضر وأقاموا في البوادي البعيدة، بل هُم وسطٌ بين الحضر وبين الأعراب. فأخلاقهم أليئ من أخلاق الأعراب وطباعهم أرق، ويمكن الاعتماد عليهم نوعاً ما، بينما لا يمكن الركون إلى قول أعرابي^(١).

والفوارق الموجودة بين العرب (أهل الحضر) والأعراب (أهل البادية)، رأى أبو منصور الأزهري (٣٧٠هـ / ٩٨١م) وجوب التفريق بين الاثنين؛ إذ قال: "والذي لا يفرِّق بين العرب والأعراب والعربي

١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، ج٢، ص٥٨٥.

١ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، ص٢٩٤.

والأعرابي، ربما تحامل على العرب؛ بما يتأوله في هذه الآية^(١)، وهو لا يميّز بين العرب والأعراب. ولا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار: أعراب، إنما هم عرب؛ لأنهم استوطنوا القرى العربية وسكنوا المدن، سواءً منهم الناشئ بالبدو ثم استوطن القرى والناشئ بمكة ثم هاجر إلى المدينة. فإن لحقت طائفة منهم بأهل البدو بعد هجرتهم، واقتنوا نَعَمًا، ورعوا مساقط الغيث، بعدما كانوا حاضرة أو مهاجرة، قيل: تعرّبوا، أي صاروا أعرابًا، بعدما كانوا عربًا"^(٢). ويضيف ابن منظور: "وفي الحديث تمثّل في خطبته: مهاجر ليس بأعرابي، جعل المهاجر ضد الأعرابي. والأعراب: ساكنو البادية من العرب الذين لا يقيمون في الأمصار، ولا يدخلونها إلا لحاجة. والمستعربة عندي: قومٌ من العجم دخلوا في العرب فتكلّموا بلسانهم وحكوا هيأتهم وليسوا بصرحاء فيهم. وتعرّبوا مثل استعربوا"^(٣). وقد ذهب ابن خلدون هذا المذهب؛ إذ رأى أن الأعراب يختلفون عن العرب، ولذلك فإن ما اشار إليه من أن العرب متى "تغلّبوا على أوطان أسرع إليها الخراب"^(٤)، إنما قصد به الأعراب لا العرب من أهل الحواضر والمدن.

١- يعني بذلك قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾. سورة التوبة: آية: ٩٧.

٢- الأزهري: تهذيب اللغة، ج ٢، ص ١٦٧.

٣- لسان العرب، ج ١، ص ٦٨٤.

٤- المقدمة، ج ٢، ص ٥٠٨.

وحُكْمُ الأعراب على الأمور، حُكْمٌ صادرٌ عن عقليةٍ خاصةٍ بهم، كَوْنُهَا عندهم الأحوالُ التي يعيشون عليها، والمحيطُ الذي يتحكَّمُ فيهم من جفافٍ وحرارةٍ وضوءٍ ساطعٍ، واختلافٌ في درجات الضغط الجوّي، واحتباسُ المطر، وقفرٌ محالفٌ لأغلب الأراضِي، ومن فقرٍ وتقتيرٍ وبساطةٍ في المأكل، وأمثالُ ذلك من مؤثِّراتٍ كَوْنَتْ عندهم عقليةٌ خاصةٌ وثقافةٌ خاصة، فهمت الأمورَ بمنطقها لا بمنطق الآخرين. ومن هنا أيضًا اختلفت عقلياتُ الأعراب وتباينت بعض التباين باختلاف الأحوال التي تحيط بالأمكنة التي كانوا ينزلونها، وبُقُرب تلك الأمكنة وبُعدها من الحضرة ومن الحضارة. وبمقدار تلك المؤثرات الخارجية وبالثقافات الواردة من الخارج، كالذي نلحظه من وجود شيءٍ من التباين بين عقليات القبائل المنتصرة وأعمالها وعقليات القبائل الوثنية وأعمالها، بالرغم من أن نصرانية تلك القبائل لم تكن نصرانية عميقة صميمة، ولم تكن صافية خالصة؛ لأن هذه القبائل المنتصرة - على سطحية تنصُّرها - كانت مواطنها ملاصقة للحضر والحضارة، وذات اتصالٍ بالحضر وبالأعاجم وبالثقافات الأجنبية وبالبيئات الثقافية الغريبة، وعاش بينها رجال دينٍ عرفوا من ثقافاتٍ غريبة، وبشروا بين العرب المنتصرة بآراءٍ غريبةٍ عنهم، كما تأثَّر رؤساء تلك القبائل

بمؤثرات الحضرة الذين احتكوا بهم، وبرجال السياسة والدين الذين كانوا على اتصالٍ معهم، وقد تزوّج بعضهم من نساء نصرانيات، أثّرَن بالطبع في بيئة ذلك الزوج^(١).

والعربيُّ بعد، إن وُصِفَ في الجاهلية أو الإسلام بالكسل والخمول والخيال وعدم الصبر والأنانية والفردية وبما شاكل ذلك من صفاتٍ، فصفاته هذه ليست حاصل خصائص دم ونتيجة سمات عرق، وإنما هي ظروفٌ وأحوالٌ أجبرته على ذلك. ومن ثمَّ، فإن هذه الطباع ليست وراثيةً تنتقل من الآباء إلى الأبناء، فلا تتبدّل ولا تتغيّر، بل هي حاصل أحوالٍ وبيئة، إذا تغيّرت الأحوال والبيئة وقع تغيُّرٌ يتوقّف على مقدار فعل البيئة الجديدة في الإنسان، وعلى الزمان الذي يقضيه فيه، وعلى مقدار استعداد ذلك الإنسان لتقبُّل البيئة الجديدة والثقافة الجديدة التي دخل فيها، ولهذا يكون فعل التغيُّر في الجيل القديم أقل من الجيل الجديد. وعلى ذلك يخطئ مَنْ يصف العرب بصفاتٍ يلصقها بهم يجعلها عامة أبدية فيهم؛ ودليلنا على ذلك أن مَنْ عاش من الأعاجم بين العرب وفي بيئةٍ عربية تطبّع بطباع العرب وصار مثلهم، حتى إذا انقرض الجيل القديم وظهر الجيل الجديد تحوّل إلى عربيٍّ في كل شيء، لا نستثني من

١ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٢٨٥.

ذلك حتى الانتساب إلى عدنان وقحطان وحتى العصبيات والتعصب^(١).

والبداوة - على ما ذكرنا - فإنها عالم قائم بذاته، تكوّنت طباعها وخصائصها من الظروف التي نشأت فيها، لها مقاييسها وموازينها الخاصة، وهي موازين ومقاييس تختلف عن مقاييس أهل الحضر وموازينهم، أعني أهل الحضر البعيدين عن البادية وعن أحوال البداوة، ولذلك اختلفت أفهام الجماعتين وتباعدت عقلياتهما، ومن هنا يظهر خطأ من يحكم على البداوة بمقاييس الحضارة، ويفسّر ما يقع من الأعراب من أعمال تفسيره لما يقع من أهل المدر، ومن هنا أيضًا نجد أن البداوة لا تستطيع فهم منطق الحضر، ولا تستسيغ أسلوب حياتهم، ولا تأمنهم؛ لأن عالمها يختلف عن عالم الحضر، ولأنها تجد من قيود الحواضر من ريفٍ وقرى ومدنٍ ما يصعب تحمّله، ولأنها ترى في أهل الحضر جماعة حيلٍ وشرٍّ ومكرٍ فلا تأمنهم، ولا تستطيع أن تطمئن إليهم، مهما أظهر أهل الحضر نحوها من عطفٍ وإحسان. وما شاكل ذلك من نعوتٍ تحدّثت عنها في المبحث الأول من هذا الفصل، وهي حاصل هذا المحيط الذي وُلِدَ وعاش فيه، والظروف التي أَلَّتْ به، فعزّته عن العالم

١ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٢٨٦، ٢٩١.

الخارجي، وأبعده عن الشعور بتنوع مظاهر الطبيعة وتغيُّرها. وقد كابدت البداوة كثيرًا كما كابدت الحضارة كثيرًا أيضًا من جرّاء سوء الفهم الناجم من اختلاف العقليتين.

ولكي نكون منصفين في الأحكام، عادلين غير ظالمين، يجب علينا التفريق بين الأعراب وبين العرب؛ فما يقال عن الأعراب يجب ألا يتخذ قاعدةً عامة تطبق على العرب؛ لما بين الأعراب والعرب من تباينٍ في الحياة وفي النفسية والعقل. ثم علينا كي نكون منصفين أيضًا أن نفرّق بين عرب وعرب؛ لما أصاب عرب كل أرضٍ من أرض العرب من أثر تركه الأجانب فيهم، ومن امتزاج الأعاجم في العرب ودخولهم فيهم، واندماجهم بهم، حتى صاروا تمامًا منهم. والامتزاج والاندماج يؤثّران بالطبع في أخلاق أهل المنطقة التي وقعا فيها، أضف إلى ذلك عوامل البيئة والمحيط. ولهذا يرى المرء تباينًا بين عرب كل قُطرٍ، تباينًا يلمسه حتى الغريب؛ فبين أهل العراق وأهل بلاد الشام العرب تباينٌ وفروقٌ جمةٌ في الملامح الجسمية وفي المظاهر العقلية والاجتماعية وغيرها، مع أنهم جميعًا عرب يفتخرون بانتسابهم إلى العروبة. وبين عرب اليمن وبين عرب عالية نجد فروقًا واضحةً جليّةً. وهكذا قل عن بقية بلاد العرب. بل نجد هذا التباين أحيانًا في أجزاء القطر الواحد.

وقد أدرك المتقدّمون علينا باختلاف العرب في الصفات والشمائل؛ فتحدّثوا عن حلم قريش وعن لينها ورقة ذوقها، وعن براعتها في

التجارة، وتحدّثوا عن عمق تفكير أهل اليمن وعن اشتهارهم بالحكمة، حتى قيل: "الحكمة يمانية". ووَرَدَ أن عليّاً بن أبي طالب لما وافق على اختيار أبي موسى الأشعري ليكون ممثله في التحكيم، قال له أبو الأسود الدؤلي: "يا أمير المؤمنين لا ترض بأبي موسى؛ فإنني قد عجمتُ الرجل وبلوته، فحلبتُ أشطره، فوجدته قليل الشفرة، قريب القعر، مع أنه يمان"^(١).

وقد أشار الجاحظُ إلى الاختلاف ما بين البدوي والحضري، وما بين السهلي والجلبي، وإلى اختلاف ما بين الطائي الجلي والطائي السهلي، وإلى اختلاف ما بين مَنْ نزل البطون ومَنْ نزل الحُزُون، وبين مَنْ نزل النجود ومَنْ نزل الأغوار، ثم أثر هذا الاختلاف في المكان من أثر في اختلاف اللغة، فتخالفت لغة عليا تميم وسُفلى قيس، وعَجَز هوازن وفُصحاء الحجاز في اللغة. وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير وسكان

١ - نصر بن مزاحم (أبو الفضل نصر بن مزاحم بن سيار المنقري): وقعة صفين، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، د.ط، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ص ٥٠١؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٥، ص ٥٢؛ الشريف المرتضى (أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى العلوي): الأمالي (٢ج)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ط، ١٩٥٤م، ج ١، ص ٢٩٢؛ ابن أبي الحديد (عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد المدائني المعتزلي): شرح نهج البلاغة (٢٠ج)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ط ٢، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م، ج ٢، ص ٢٣٠؛ عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ١٩٤.

مخالف اليمن. وكذلك الاختلاف في الصورة، وفي الصفات والشمائل، وفي الأخلاق، وكلهم مع ذلك عربيٌّ خالصٌ. وأشار إلى ما تركه هذا السكن من أثرٍ في أخلاق العرب، حتى ليقال: "إن هُذَيْلاً أكراد العرب". وذلك بسبب طباعهم وصبرهم على القتال. كما أشار الجاحظُ كذلك إلى أن هذا الاختلاف ظاهرٌ في العرب جميعاً بأصلهم - قحطانيين وعدنانيين - وعلى الرغم من ذلك فكلهم عرب؛ لأنهم استووا في التربة وفي اللغة، وفي الشمائل والهمة والأنفة والحمية والأخلاق والسجية، فكأنهم سبَّكوا سبْكاً واحداً، وأفرغوا إفرغاً واحداً^(١).

وختاماً، فإن البحث في موضوع نفسيات الشعوب وأصول تفكيرهم ومظاهر حياتهم العقلية، بحثٌ يجب أن يستند إلى أسسٍ علميةٍ حديثة، بل وإلى تجارب دقيقةٍ عامة، لذلك لا يمكننا التعميم ما دمنا لا نملك بحوثاً ودراساتٍ علميةٍ منسَّقةٍ قام بها علماء اجتماعٍ متخصصون وأنثروبولوجيون في البوادي والحوضر وفي كل مكانٍ من شبه الجزيرة العربية، رُوحي عند إجرائها الظروف الطبيعية المؤثرة في ذلك المكان، والظروف الثقافية السائدة عليه، ودرجة تأثر ذلك المكان بالمؤثرات الخارجية، أي بمؤثرات المناطق المجاورة له. فبين أهل شبه الجزيرة

١ - رسائل الجاحظ، ج ١، ص ١٠، ٧١ (مناقب الترك).

العربية بون شاسعٌ في العقليات، وبين أهل البوادي في الجاهلية وفي يومنا هذا فروقٌ في النفسيات وفي التعامل، حتى وُسِّمَت القبائل بسِمَاتٍ فوُسِّمَت مَعْدُ مثلاً بالحيلة والكيِّد والذكاء والغلظة والخشونة، ووُسِّمَت ثَقِيْفٌ بسِمَاتٍ، ووُسِّمَت كندة بسِمَاتٍ. وقد رأينا ما ذكره حافظ وهبة وهو شاهد عيانٍ عن الفروق بين أهل نجد من حضرٍ وبدوٍ. بل إننا نرى أن الأعاجم المتعرِّبين، أي الذين نزلوا بين العرب وينسلُّون بينهم ويتخذون العربية لساناً لهم، سرعان ما يتعرَّبون كل التعرُّب، ويتحوَّل أبناءهم إلى جيلٍ عربيٍّ خالصٍ، حتى ليصعُبُ التفريق بينهم وبين العرب في الرسوم والعادات والتفكير؛ وذلك بتأثير المحيط الذي حلُّوا به، والظروف الطبيعية المؤثرة في المكان.

الفصل الثالث

المجتمع العربي قبل الإسلام

ليس من شأننا في هذا المبحث أن نستغرق فيما قيل عن العرب وأصلهم ومنشئهم، أو ندخل في اللجاج الذي دار بين علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع والآثار الذين استثاروا الدفائن واستنطقوا الآثار والقبور واستخرجوا تاريخ الحياة الأولى من بين النقوش، وما حَقَّقوه من ذلك، ولا أن نستوفي معاني الاجتماع العربي ما يدخل في العادات والأديان والممالك ونحوها؛ فذلك مما يجب على باحثي تاريخ العرب قبل الإسلام، وهو منحي تبعد الصلة بينه وبين ما نحن بسبيله في هذا المبحث، ولذلك نُلِمُّ بهذا الجزء إمامًا، مكتفين منه بما تمسُّ إليه الحاجة.

وعلى كل حال، فنحن نحاول هاهنا التعرُّف على المجتمع العربي وعقليته وعلى ملامحه قبل الإسلام، أي قبل اندماجه واختلاطه بالأمم الأخرى، وهو ما حدث بعد الإسلام؛ وذلك لمعرفة سبب استيطان العرب في أماكنهم أو هجراتهم إلى أماكن أخرى. ولا يمكننا بحث مواطن القبائل العربية وهجراتها قبل الإسلام قبل بحث العقلية العربية ذاتها؛ فالشعوب تقف في العالم على درجاتٍ متسلسلة الرقي، ولكل درجة مميزات العقلية والنفسية، ولكل أُمَّة عقلية خاصة بها تظهر في تعامل أفرادها مع بعضهم وفي تعامل تلك الأمة مع غيرها من الأمم،

كما أن لكل أمةٍ نفسية تميّزها عن نفسيات الأمم الأخرى، وشخصية تمثل تلك الأمة، وملامح تكون غالبية على أكثر أفرادها، تجعلها سمة تميزها عن سمات الأمم الأخرى^(١).

وأفراد الأمة الواحدة وإن اختلفوا في المدارك والتربية والتعليم ونحو ذلك فإن بينهم جميعاً وحدةً مشتركةً، والعرب مثل غيرهم من الناس لهم ملامح وسمائل عُرفوا واشتهروا بها عن غيرهم، وعقلية خاصة بهم؛ فهم جيلٌ تدلّت عليه الشمس منذ القدم في شبه الجزيرة هذه التي كأنها قطعةٌ انخرطت من السماء مع الإنسان الأول، فلا يزال أهلها أبعد الناس منزعاً في الحرية الطبيعية، وأشدّهم منافسة في مغالبة الهمم، كأنما فيهم ميراث الطبيعة الأولى، فمنه ينبتون وعليه يموتون^(٢).

وأياً ما كان الأمر، فلم يكن المجتمع العربي مجتمعاً انعزالياً كما يظنُّ الكثيرون، بل كان من أهم مميزاته النشاط والحركة والتوثّب، وكانت تيارات القبائل تتحرّك في قلب شبه الجزيرة العربية وعلى أطرافها تارةً صاعدةً وأخرى هابطةً. والعربي فوق ذلك كثير التنقل للرعوي والقنص

١- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٢٦١؛ أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٥٧.

٢- مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب (٣ج)، راجعه وضبطه: عبد الله المشاوي ومهدي البحقيري، القاهرة، مكتبة الإبان، د.ط، د.ت، ص ٣٤.

والسطو على القبائل والقوافل المصعدة والمهابطة في شبه الجزيرة العربية، وكانت الهيئة الجبلية والصحراء الوعرة لهما الأثر الكبير في صبغتهم بصبغة خاصة، وطبيعة الإقليم في شبه الجزيرة العربية هو الذي حدّد تحرّكاتهم وتنقّلاتهم؛ فالمرتفعات تقف حائلاً أمام تجمّعاتهم، ثم لا تلبث عزائهم أن تزلزل تلك الكتل الصخرية حيث يفرون منها ضارين في الوهاد ما دام الفقر والقسوة قد أحاطا من كل جانب بمجتمعهم، وما دام إقليم شبه الجزيرة العربية قد اتسم بالشذوذ الجغرافي؛ فالمناطق الجرداء القاحلة بجانب المناطق الغنية الخصبة، بينما الجبال الضاربة في الأفق بجانب الأغوار الموغلة في العمق، ففي موضع تبسم الحياة وفي موضع تقسو. ومن المعروف أن العربي يجعل حياته منوطةً بأمرين: تتبّع المطر^(١)، ومواطن الكلاء. فإن وجد ذلك استقر وأمن، وإن لم يجد لا يلقي عصا الترحال إلا إذا فاجأه واحدٌ منهما. وحياة العربي كانت تتمثّل في الرعي والصيد والقتنص والغزو والسلب، فإن لم يجد العربي عدواً من غير قبيلته أغار على قبيلته^(٢).

١ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٧، ص ٣٥٧.

٢ - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٣٣-٣٤؛ أحمد علم الدين الجندي: اللهجات العربية في التراث (٢ج)، القاهرة، الدار العربية للكتاب، د. ط، ١٩٨٣ م، ص ٣٦.

وينقسم المجتمع العربي إلى بدوٍ وحضرٍ أو أهل وَبَرٍ وأهل مَدَرٍ، يتساوى في هذه الحال عربُ الشمال وعربُ الجنوب، وعربُ جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية الأخرى. وقَسَمَ بعضهم عرب الجاهلية إلى ملوكٍ وغير ملوك. وقَسَمُوا سائر الناس بعد الملوك طبقتين: أهل مَدَرٍ وأهل وَبَرٍ. فأما أهل المدر، فهم سكان الحواضر والقُرى، وكانوا يعيشون من الزرع والنخل والماشية والضرب في الأرض للتجارة. وأما أهل الوبر، فهم قُطَّان الصحارى، يعيشون من ألبان الإبل ولحومها، منتجعين منابت الكلاء، مرتادين لمواقع القَطْر، فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصبُ وأمكنهم الرعيُّ، ثم يتوجَّهون لطلب العشب وابتغاء المياه، فلا يزالوا في حلٍّ وترحالٍ^(١).

ويُعرَف الحَضْرُ - وهم العرب المستقرُّون - بـ«أهل المدر»، عُرِفوا بذلك لأن أبنية الحضر إنما هي بالمدر. والمدرُ قِطْع الطين اليابس. وفي

١ - ومثال ذلك قول المثقَّب العبدى في ناقته:

تقولُ إذا درأتُ لها وضيبي أهذا دينه أبداً وديني
أكل الدهر حلُّ وارتحالٍ أما يُبقي عليَّ ولا يقيني

صاعد الأندلسي (أبو القاسم صاعد بن أحمد بن محمد بن صاعد التغلبي القرطبي): طبقات الأمم، تصحيح: لويس شيخو، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، د.ط، ١٩١٢م، ص ٤٢-٤٣؛ ابن العبري (أبو الفرج غريغوريوس بن هارون بن توما المظني): تاريخ مختصر الدول، تحقيق: خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص ٨٣.

الحديث أن عامر بن الطفيل قال للنبي ﷺ: «أسلم على أن يكون لي الوبر ولك المدر»^(١)، فعن أهل البوادي والمدن والقرى^(٢). ومن هنا قيل للحضر: بنو مدرء^(٣). وفي حديث «الجساسة والدجال»: «تبعه أهل الحجر وأهل المدر»، يريد بأهل الحجر أهل البوادي الذين يسكنون مواضع الأحجار والرمال، وأهل المدر: أهل البادية^(٤). ويرى جواد علي أن أكثر أهل المدر هم الحضر؛ لأن اتخاذ البيوت لا يكون في البادية، بل في الحضر^(٥).

١- أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين بن محمد بن أحمد): الأغاني (٢٤ج)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، ٢٠١٠م، ج ١٧، ص ٦٠؛ الحاكم النيسابوري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الضبي): المستدرک علی الصحیحین (٥ج)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م، ج ٤، ص ٩٣؛ البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن موسى الخسر وجردي): دلائل النبوة (٧ج)، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، بيروت، دار الكتب العلمية - دار الريان للتراث، ط ١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ج ٥، ص ٣٢١.

٢- ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ١٦٢.

٣- ابن سيده (أبو الحسن علي بن إسماعيل المروسي): المخصص (٨ج)، تحقيق: عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٥م، ج ٧، ص ٣٦١؛ ابن منظور: المصدر نفسه؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٧، ص ٤٧٠.

٤- مجد الدين ابن الأثير (أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري): النهاية في غريب الحديث (٥ج)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي، بيروت، دار إحياء الكتب العربية، د. ط، د. ت، ج ١، ص ٣٣١؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ١٦٦.

٥- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٢٧٢.

وَوَرَدَ أَنَّ أَهْلَ الْبَادِيَةِ إِنَّمَا قِيلَ لَهُمْ: أَهْلُ الْوَبْرِ؛ لِأَنَّ لَهُمْ أَخْبِيَةَ الْوَبْرِ،
تَمييزًا لَهُمْ عَنِ أَهْلِ الْحَضَرِ الَّذِينَ لَهُمْ مَبَانٍ مِنَ الْمَدْرِ، وَمِنْ هُنَا قِيلَ لِلْقَرْيَةِ:
«الْمَدْرَةُ»؛ لِأَنَّهَا مَبْنِيَّةٌ بِالطَّيْنِ وَاللَّبَنِ. وَذَكَرَ أَنَّ «الْمَدْرَةَ»: الْقَرْيَةَ وَالْمَدِينَةَ
الضَّخْمَةَ أَيْضًا؛ لِأَنَّ الْمَدْنَ تُبْنَى بِالْمَدْرِ أَيْضًا. وَمِنْ هُنَا قِيلَ لِلْحَضَرِ
عَمُومًا: بَنُو مَدْرَاءَ^(١).

وَيَذَكَرُ أَهْلُ اللُّغَةِ أَنَّ الْحَضَرَ وَالْحَاضِرَةَ وَالْحَضَارَةَ خِلَافَ الْبَادِيَةِ
وَالْبَدَاوَةِ وَالْبَدْوِ. وَالْحَضَارَةُ الْإِقَامَةُ فِي الْحَضَرِ. وَالْحَاضِرُ وَالْحَضَرُ: هِيَ
الْمَدْنَ وَالْقَرْيَ وَالرِّيفَ، سَمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ أَهْلَهَا حَضَرُوا الْأَمْصَارَ
وَمَسَاكِنَهُمُ الدِّيَارَ الَّتِي يَكُونُ لَهُمْ بِهَا قَرَارٌ^(٢). وَقَدْ عُرِفُوا بِأَهْلِ الْقَارِيَةِ،
وَذَلِكَ فِي مَقَابِلِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، لِأَهْلِ الْبَدْوِ^(٣).

و«أَهْلُ الْقَرَارِ»، هُمُ الْحَضَرُ؛ لِأَنَّهُمْ اخْتَارُوا الْقَرَارَ، وَأَحْبَبُوا
الِاسْتِقْرَارَ وَالْإِقَامَةَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ. وَيُرَى جَوَادَ عَلِيٍّ أَنَّ الطَّبِيعَةَ وَفَرَّتْ
لَهُمْ كُلُّ شَيْءٍ يُغْرِي عَلَى الْارْتِبَاطِ بِالْأَرْضِ، فَلَوْ وُلِدَ الْأَعْرَابِيُّ بَيْنَ الْحَضَرِ
وَتَوَفَّرَ لَدَيْهِ مَا يُؤْمِنُ لَهُ رِزْقُهُ الدَّائِمُ فِي مَكَانِهِ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ لَمَا تَنَقَّلَ
وَارْتَحَلَ، وَلِصَارَ حَضْرِيًّا مِثْلَ سَائِرِ أَهْلِ الْحَضَرِ، وَلَكِنَّ الطَّبِيعَةَ حَرَمَتْهُ

١- المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٣، ص ٥٣٥.

٢- المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٦.

٣- ابن منظور: المصدر السابق، ج ١٥، ص ١٧٨.

من نَعَم الاستقرار، فصار بدويًا يتتبع العشب والماء. ومن ثمَّ، فالطبيعة أثرها الواضح؛ فهي المسئولة عن البداوة وانتشارها في شبه الجزيرة العربية^(١). ومن هنا قيل للحضري الذي لا ينتجع ويكون من أهل الأمصار «القرَّاري»، ولما كان أكثر «أهل القرَّار» هم من الصنَّاع، قيل لكل صانع: «قرَّاري». وذكر بعض أهل اللغة أن القراري هو الحَيَّاط؛ واستشهدوا على ذلك بقول الأعشى ميمون بن قيس:

يشقُّ الأمورَ ويجتأبها كشقَّ القرَّاري ثوب الرदन
وذكر آخرون أن القرَّاري هو القَصَّاب (الجرَّار). وقد تجوَّز الناس - فيما بعد - فقالوا: خياطٌ قرَّاري، ونجَّارٌ قرَّاري^(٢). ويُقال لسكان القرية: القارِّي، كما يُقال لسكان البادية: البادي. والقاريَّة: سكان القرى، أي خلاف البادية والأعراب. والقرية: كلُّ مكانٍ اتصلت به الأبنية واتَّخَذَ قرارًا، وتقع على المدن وغيرها، وسكانها من الحضرة. والقرية في نظر علماء اللغة لفظة يمانية الأصل؛ يقولون إنها المصر الجامع، وكل مكانٍ اتصلت به الأبنية واتَّخَذَ قرارًا، وتقع على المدن وغيرها^(٣)، ولكن الأغلب أنها أصغر حجماً من المدن، وأنها تكون غير

١ - جواد علي: المرجع نفسه.

٢ - المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٣، ص ٤٩٠.

٣ - المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٩٠.

مَسَوْرَةٍ، فإذا أحاط بها سورٌ صارت مدينة؛ وذلك على نحو ما نفهم من نصوص الجاهليين ومن المتعارف عليه بين الساميين من أن القرية أصغر حجمًا من المدينة، وأن المدن هي القرى الكبيرة المَسَوْرَة^(١). وقد فَهَمَ علماء اللغة هذا المعنى بالنسبة للمدينة أيضًا؛ إذ قالوا: المدينة: الحصن يُبنى في أَصْطَمَة الأرض^(٢). وتقابل لفظة «هكر» و«هجر» و«هجرن» و«هكرن» في لغة أهل اليمن، وهي لا تزال مستعملة في لغة اليمن إلى اليوم، وذكر علماء اللغة أن «هجر» هي القرية بلغة حمير^(٣). ووَردَ أن العرب تسمي القرى «مصانع»، وواحدتها: مصنعة؛ يقال: هو من أهل المصانع، أي القرى، والمصانع أيضًا: المباني من القصور والحصون^(٤). ويُطلق العرب على الرجل من أهل القرى مصطلح: "أخضر النواجد"، يريدون أنه ممن يأكل الكَرَّاث والبصل والبقول والخضر^(٥)، ولا يتناول الأعراب هذه الخضر. وفي العربية لفظة «الحير» بمعنى شبه الحظيرة

١- قاموس الكتاب المقدس (ج٢)، بيروت، ١٩٦٤-١٩٦٧م، ج٢، ص٣٢١؛

J. Hastings, A Dictionary of the Bible, Vol I, P. 143.

٢- ابن منظور: لسان العرب، ج١٣، ص٤٠٢؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج٩، ص٣٤٢.

٣- المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج٣، ص٦١٤.

٤- المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج٥، ص٤٢٢.

٥- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الليثي الكناني البصري): الحيوان (ج٨)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، د.ت، ج٣، ص٢٤٨.

والحمى، و«الحيرة» بمعنى المعسكر والمقام، وكذلك «الحائر»^(١). وهي من مواطن الحضرة أي من المستوطنات، وقد كانت مستعملة بين الجاهليين، ومثلها: «الحاضرة» و«الحضرة» و«الحضر»، وهي المدن والقرى والريف، وهي من مساكن الحضرة وأهل القرار^(٢). وتسمّى المدن بأسماء تُعرف بها، أما القرى والمستوطنات الصغيرة فقد تسمّى بأسماءٍ وقد تُنسب إلى أصحابها المالكين لها أو إلى القبائل والعشائر أو الأفاخذ أو الأسر النازلة بها^(٣).

وهكذا كان من الصعب التمييز - عند الشعوب القديمة - بين القرى والبلدان والمدن. وكلُّ بلدةٍ أو مدينةٍ كانت قريةً في الأصل، أي مستوطنة صغيرة غير محصّنة، وعندما ازداد عددُ سكّانها، وكثُرَ عمرانها وما لها لأسبابٍ عديدةٍ، توسّعت وحصّنت أهلها أنفسهم بحصونٍ وأطامٍ أو بسورٍ وخندقٍ يحيط به لمنع العدوِّ من الدنوِّ منها^(٤). وبهذه التحصينات وبكثرة عدد السكّان تميّزت هذه المستوطنات السكنية بعضها عن بعضٍ، ولهذا كانت الشعوب القديمة لا تطلق لفظة «مدينة» إلا على القرى المحصّنة المسوّرة، ومن ضمن هذه الشعوب العرب.

١- المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٣، ص ١٦٤.

٢- المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٦.

٣- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ١٠.

٤- قاموس الكتاب المقدس، ج ٢، ص ٣٢١.

وتُطلق لفظة عرب على أهل المدر خاصة، أي على الحضر والحاضر والحاضرة من العرب، أما أهل البادية، فعُرفوا بالأعراب. مع أن كلمة العرب قد أُطلقت لتشمل العرب بنوعيهما: عرب الحاضرة وعرب الحاضرة. ويبدو أن هذا الإطلاق إنما وُضع قبيل الإسلام^(١). إذن فالحدُّ الفاصلُ بين الحضارة والبداءة هو طرازُ الحياة ونوعها؛ فالحضرُ أهلُ قرارٍ. والأعرابُ ينتجعون ويتتبعون مساقط الغيث ويرعون العشب والكلاء، ويشربون «الكرع» وهو ماء السماء، فلا يزالون في النجع إلى أن يهيج العشب من عام قابل وتُنشَّ الغدران، فيرجعون إلى محاضرهم على إعداد المياه^(٢). وحياتهم على الإبل التي تنفرد عن غيرها من الحيوانات بقابليتها على المعيشة في البادية وبقوَّة صبرها على الجوع والعطش، فلا يعتنون بتربية ماشيةٍ غيرها. ومن هنا نقصد بالأعراب: البدو الحقيقيين، أبناء البادية وأصحاب الإبل الذين ينتجعون ويتتبعون مساقط الغيث ويشربون الكرع، ويكون تماسهم بالحضارة والحضر قليلاً^(٣).

١- الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج١، ص١٢.

٢- الأزهرى: تهذيب اللغة، ج١، ص٢٤٤؛ ابن منظور: لسان العرب، ج٨، ص٣٤٧؛

المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج٥، ص٥١٩.

3 - Ronald De Vaux, Ancient Israel, Its Life and Institutions, Michigan, William B. Eerdmans Publishing company, 1997, P. 3.

وما أقوله يخصُّ أعراب نجد وبادية الشام بالدرجة الأولى. أما أعراب بلاد العرب الجنوبية، فإن وضعهم يختلف عن وضع هؤلاء الأعراب؛ فهم وإن عُدوا أعراباً ونُصَّ عليهم بـ«أعراب» و«أعراب» في نصوص المسند اليمينية، لكنهم لم يكونوا أعراباً رُحَلًا، يعيشون على تربية الإبل والغارات وعلى بعض الزراعة، وكره الاشتغال بالحرف، بل كانوا شبه مستقرّين؛ سكنوا خارج المدن والقرى في مستوطنات متجمّعة مؤلّفة من بيوتٍ طينيةٍ وأكوخ، ومارسوا تربية الإبل والماشية الأخرى، واشتغلوا بالزراعة والحرف اليدوية لم يجدوا في ذلك بأسًا. وكانوا يغيرون على أهل الحضر إن وجدوا فرصةً مواتيةً، ولم يكونوا أقوياء بالنسبة إلى الحضر؛ لوجود حكوماتٍ منظمّة، في استطاعتهم ضربهم إن تحرّشوا بأهل المدن والقرى. ولهذا لا نجد للأعراب ذكرًا في نصوص المسند القديمة، ولم يظهر اسمهم فيها كقوّةٍ إلا بعد الميلاد وقبيل الإسلام؛ حين ارتبك الوضع السياسي في بلاد العرب الجنوبية، وتدخل الحبشة في شئونها، وولع بعض ملوكها مثل «شمر يهرعش» في إثارة الحروب. مما أفسح المجال للأعراب فجرّبوا حظّهم بالدخول في لعبة الحرب، فلما وجدوا لهم حظًا حسنًا وربحًا طيبًا مارسوها مع هذا الحاكم أو ذاك، وظهر عندئذٍ اسمهم في المسند، بل دخل في اللقب الرسمي الذي حمّله الملوك فصار اللقب: «ملك سبأ وذو ريدان

وحضرموت وأعرابها في الهضاب وفي التهائم»^(١). وطمع أعرابُ نجد في الحصول على غنائم عرب الجنوب فارتحلوا نحوها، وزاد بذلك عدد الأعراب. ومن هؤلاء كِنْدَةَ الذين تركوا ديارهم بنجد بعد نكبتهم وانضمُّوا إلى إخوانهم في بلاد العرب الجنوبية فصار لهم فيها شأنٌ كبيرٌ، حتى ذُكروا في النصوص، ومنها نصوص أبرهة^(٢).

ومعاش الحضرم على الأرض، يزرعونها ويعيشون عليها، أو على التجارة، أو على الحرف اليدوية ونحوها. ومن طبيعة أهل الحضرم الاستقرار في أرضٍ تكون وطيناً ثابتاً لهم، ومقاماً يقيمون فيه ويجبونه. أما أهل الوبر، فهم رُحَّل يتنقلون طلباً للماء والكأ والامتيار، فوطنهم متنقِّل قلق غير مستقر، الأرض كلها وطنهم، ولكنها الأرض التي يكونون فيها، فإذا ما ارتحلوا عنها، صارت الأرض الجديدة وطيناً لهم جديداً، أما الأرض القديمة فتكون وطيناً للطارئ الذي يحلُّ فيها^(٣).

1 - Sabatino Moscati, *Ancient Semitic civilizations* Putnam, 1960, P. 12; *La revue Le Muséon, Revue d'études orientales*, PP. 3-4, 490.

٢- جواد علي: *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، ج ٢، ص ٥٥٩-٥٦٠، ج ٣، ص ٤٨٣-٤٨٤، ج ٤، ص ٢٧٨؛ محمد مبروك نافع: *عصر ما قبل الإسلام*، ص ٦٥؛ محمد بيومي مهران: *دراسات في تاريخ العرب القديم*، ص ٣٣٦؛

F. Praetorius, *Bemerkungen zur den beiden grossen Inschriften vom Dambruch zu Marib*, In *ZDMG*, 1899, PP. 541, 618.

٣- جواد علي: *المرجع السابق*، ج ٤، ص ٢٧٨.

والمشهور عند العرب والأعاجم أن العرب قومٌ يكرهون الزراعة والاشتغال بالحرف والصناعات، ويستخفون بشأن من يشتغل بها ويزدرونه، فلا يتزوجون منه ولا يزوجونه منهم. وينطبق هذا القول على الأعراب وعلى بعض أهل الحضر إلى حد ما، لكنه لم ينطبق على كل العرب؛ فعراب الحضر الذين وجدوا الماء بغزارة زرعوا وغرسوا الأشجار، لم يجدوا في ذلك خسة ولا دناءة. والعرب الذين توفرت لهم مواد العمل وظروف العمل، اشتغلوا بالحرف، كما هو شأن الطائف وبلاد العرب الجنوبية بل وبعض أهل مكة أيضًا. أما الذين ازدروها وكرهوها فهم الذين لم تتوفر لهم الأسباب التي تغريهم على الاشتغال بالحرف، ولم تتوفر لديهم المواد الأولية ولا الظروف المساعدة على قيام الحرف. لذلك كرهوها كره من يكره شيئاً لا يملكه ولا يناله، أو لأن يده لا تصل إليه، ولو ملكه لغير حكمه عليه. وقد عير علي بن أبي طالب الأشعث بن قيس الكندي بأن أهل اليمن خياطين، فقال له: "عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين، حائك بن حائك"^(١). وقد أشير إلى شبيه ذلك في المناظرة المشهورة بين خالد بن صفوان التميمي المنقري وإبراهيم بن مخرمة الكندي أمام أبي العباس السفاح، فافتخر إبراهيم

١- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ٢١، ص ١٤-١٥؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٢٩١.

وهو يمنيُّ بنفسه على خالدٍ وهو تيميُّ، فأجابه بأن أهل اليمن: "بين حائك بُرد، ودابغ جلد، وسائس قرد"^(١). وقد عيّر أمية بن خلف القرشيُّ الجمحيُّ حسَّانَ بن ثابت الخزرجيَّ باشتغال أهل اليمن بالحرف، بقوله:

يَمانياً يَظَلُّ يَشُدُّ كَيراً
ويَنفُخُ دائِباً هَبَ الشَواظِ^(٢)

وقد أمدَّ أهل اليمن الحجاز وأماكن أخرى من شبه الجزيرة العربية بالسيوف وبالمصنوعات المعدنية وبالبرود والأنسجة الأخرى. كما عرّفوا بإتقانهم البناء والنجارة وغير ذلك من حرف الحضرة التي دلَّ عليها الشعر الجاهلي. وقد عيبَ على أهل اليمن اشتغالهم بالحرف: كالحداذة والحياكة والنسيج وما شاكل ذلك من الحرف، ولكن من عابهم كان عالماً عليهم وعلى غيرهم من أهل الحرف في أكثر الأمور التي كانت تخصُّ شؤون الحياة اليومية، كالسيوف والخناجر مثلاً، وهي عمادُ المحافظة على حياة الإنسان في البادية. كما اعترف لهم بالتفوق على من

١- الزبير بن بكار (أبو عبد الله الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير القرشي الأسدي الزبيري): الأخبار الموفقيات، تحقيق: سامي مكّي العاني، بيروت، عالم الكتب، ط ٢، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، ص ١١٢؛ ابن عساکر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٧١، ص ١٩٨.

٢- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٤٧؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٧، ص ٤٤٧؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٩، ص ٣٧١.

كان يزدري الصناعات؛ فكانوا يخافونهم في الحروب، ويهابونهم عند القتال، لامتلاكهم أسلحةً لا يملكونها هم. وكانوا يلجئون إليهم لتنصيب رئيسٍ منهم عليهم، تهابه القبائل لصعوبة انصياع القبائل لقيادة رئيسٍ منهم؛ بسبب التنافس القبلي، كما كانوا يخضعون لحكم اليمن بسبب تفوقهم عليهم في السلاح والثقافة، إلى غير ذلك من أسبابٍ ترجع في الواقع إلى الطبيعة التي عطفت على البياني والعربي الجنوبي، ففاقوا على الأعراب بسببها^(١).

ولما كانت طبيعة الجفاف هي الغالبة على شبه الجزيرة العربية، كان لهذه الطبيعة أثرها في حياة العرب؛ فغلبت البداوة على الحضارة والاستقرار، وأثرت في النُظم والآراء السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحربية وفي سائر نواحي الحياة الأخرى؛ فقد حالت دون قيام مجتمعاتٍ كبرى قائمةً على الاستقرار والاستيطان واستغلال الأرض، وجعلت من الصعب قيام الدول الكبيرة في هذه البلاد وتكوين حكوماتٍ تقوم على احترام جميع أبناء الحكومة دون نظرٍ إلى البيوتات والقبائل والعشائر. وفي الأماكن التي توافرت فيها المياه النابعة من الأرض أو النازلة من السماء، نشأت مجتمعاتٌ مستقرّةٌ، وظهرت حكوماتٌ، غير أنها حكوماتٍ اختلف طابعها وشكلها

١ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٢٧٩-٢٨٠.

باختلاف المحيط الذي ظهرت فيه. والأحوال الطبيعية التي أَلَّت بها، والقدرة التي تيسَّرت لديها، فيها الحكومات الصغيرة التي قد تكون حكومات «قرية» أو رئاسات عشائري، وفيها ما يمكن أن يعبَّر عنه بحكومات مدن، إذا جاز لنا إطلاق مصطلح مدن عليها. وفيها حكومات أكبر مثل حكومات الحيرة والغساسنة، وفيها حكومات كبيرة إذا مثل حكومات العرب الجنوبيين، وهي حكومات كبيرة إذا قيست إلى الحكومات التي كوَّنها سادة القبائل في أنحاءٍ أخرى من شبه الجزيرة العربية، ولم تعمَّر طويلاً، بل كانت مثل الفقاعة، لا تكاد تنتفخ حتى تزول^(١).

فالتبيعة إذن هي التي صيَّرت العربَ على هذه الحال، وهي التي غلَّبت عليهم البداوة؛ إذ حرمتهم من الماء، وجادت عليهم برمالٍ تلفح الوجوه، وبحرارةٍ شديدةٍ، وبأرضٍ متسعةٍ تظهر كأنها بحرٌ من رملٍ لا حدَّ له، صيَّرت مَنْ وُلِدَ فيها إنساناً قلقاً هائماً على وجهه، ينتقل من مكانٍ إلى آخر بحثاً عن الماء والطعام. خلا الأماكن السخية التي خرجت منها عيونٌ جرت فوق الأرض بقدرٍ ومقدارٍ، أو مواضع قَرَبَ الماء فيها من سطح التربة فاستنبطه الإنسان، أو أماكن انهمرت من سائها أمطاراً، فاستهوت الإنسان، فاستقرَّ بها وتخصَّص، ومن ثمَّ صار العرب بدوًّا وحضراً^(٢).

١ - جواد علي: المرجع السابق، ج٤، ص ٢٨٠.

2 - J. Hastings, A Dictionary of the Bible, Vol I, P. 133.

وكان من أثر اختلاف طبيعة الجوِّ والمناخ والأرض في أهل شبه الجزيرة العربية أن صار لأهل المدر مجتمعٌ يختلف في شكله وتكوينه عن مجتمع أهل الوير، وإن صار لأهل المدر جملة مجتمعاتٍ اختلفت في شكلها وتكوينها باختلاف الظروف المؤثرة التي تحدت عنها، وباختلاف المؤثرات الخارجية المحيطة بها أو المجاورة لها والقريبة منها في ظروف تلك المجتمعات. ومن ثمَّ صار مجتمع العرب الجنوبيين - ولاسيما مجتمع اليمن - مجتمعًا خاصًا له طبيعة خاصة وشخصية مستقلة متأثرة بظروف اليمن الكلية من طبيعة أرضٍ وطبيعة جوِّ، وصار لأهل مكة - وهم أشبه بالحضر - مجتمعٌ خاص له طابعٌ متميِّز، وصار لأهل الحيرة طابعٌ خاصٌ بهم، وصار لأهل يثرب كذلك مجتمعٌ وطبيعةٌ خاصَّة متميِّزة، وهكذا قُل عن باقي المجتمعات الحضريَّة^(١).

فمجتمع اليمن مثلًا مجتمعٌ حضريٌّ خاص نجد فيه صفات المجتمع الحضري أكثر مما نراه في أي مجتمعٍ حضريٍّ آخر في شبه الجزيرة العربية؛ فهو مجتمعٌ يختلف حتى (أعرابه) - وهم الطبقة الثانية من هذا المجتمع - عن أعراب بقية شبه الجزيرة العربية؛ فهم - بالقياس إلى بدو شبه الجزيرة العربية - شبه أعراب، ووسطٌ بين البداوة الصرفة وبين أدنى درجات الحياة الحضريَّة الساذجة، المستندة إلى الاستقرار.

1 - Naval Intelligence Division, P. 402.

ومن ثمَّ، فإنَّ مجتمع اليمن هو مجتمعٌ استغلَّ عقله ويده في سبيل
تكييف حياته وإسعاد أيامه، فاستغلَّ الأرض وكَيْفَهَا بحسب قدرته
واستعداده في إنتاج المحاصيل والغلال وفي إنتاج المعادن وتربية
الحيوان، وأقام له قصورًا وحصونًا، واستورد آلات من الشام والعراق
ومصر ليستعملها فتيسَّر له ما يحتاج إليه، وسخَّرها في استغلال الأرض
وفي إقامة الأبنية وفي الأعمال اليدوية التي تحتاج إلى حذق ومهارة،
فتفوقَ هذا المجتمع من ثمَّ وبمزايا إقليمه من جوِّ وأرضٍ على
المجتمعات العربية الأخرى، وأنتج حضارةً لا مثيل لها في بقية أنحاء
شبه الجزيرة العربية^(١).

فعرِفَ اليمن في جاهليته واشتهر بمهارته بحرفٍ ومنتجاتٍ بقي
ذكرها خالدًا بعد الإسلام، وتميَّز عن غيره بحُسن الذوق وبالبراعة في
استعمال أنامله. وحين برع بقية عرب شبه الجزيرة العربية في التعبير عن
أحاسيسهم بكلامٍ منظومٍ، نجد عرب اليمن وعرب جنوب شبه الجزيرة
العربية يعبرون عن أنفسهم بنقشها على الأحجار والمعادن والأخشاب،
ونجد السيوف اليمينية لها خبرٌ وشهرة، ونجد بسُط اليمن وبرودهم
وأكسيتهم مشهورة لها صيتٌ في كل مكانٍ، لا يدانيه صيتٌ أي صنفي

1 - Naval Intelligence Division, P. 405.

مما يُنتج في مكانٍ آخر من بلاد العرب، ونجد لهم ذكرًا في الصياغة وفي الأحجار الكريمة والعطور، وغير ذلك من المنتجات التي تحتاج إلى يد وفكر.

والحضر - وإن استوطنوا واستقرُّوا في أماكن ثابتة - لم يكونوا حضرًا بالمعنى المفهوم من اللفظة عندنا؛ إذ لم يكونوا على شاكله الفُرس والروم مثلاً، ولا على شاكله حضر العراق أو حضر بلاد الشام من غير العرب؛ فهُم حضرٌ من ناحية السُّكنى والاستقرار، أي من ناحية تعلُّقهم بالأرض ونزولهم بها واستيطانهم فيها، وعدم ارتحالهم عنها على نحو ما يفعل الأعراب، واتخاذهم مساكن دائمة في مكانٍ ما. أما من ناحية التفكير وطرز المعيشة ونظم الحياة الاجتماعية، فقد ظلُّوا مخلصين لمثل البوادي ولطبيعتها في الحياة؛ فهُم في قراهم ومدنهم (بيوت وبتون)، يقيمون في (شعاب)، ولهم عصبية، وهُم مثل الأعراب في أكثر مألوف حياتهم^(١).

أما أهل الوبر، وهُم الأعراب، فحياتهم حياة تنقلٍ وارتحالٍ، وعمادُ حياتهم الإبل، ولولا هذا الحيوان الصبور لما تمكَّن الأعرابي من أن يقهر البوادي، وأن يوسِّع تنقله في أنحاءها، وأن يعيش في هذه الأراضي

١ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٢٨٤.

المقفرة الشحيحة التي يندُر فيها سقوط المطر، ويضطرُّ الإنسان فيها إلى الضرب في الأرض بحثًا عن الكلاء والماء. ولهذا صار الجملُ (المال) الوحيد الذي يملكه الأعرابي، يقدرُّ به الأَسعار، ويقدرُّ به الصداق، ويدفع به الديات، ومن ثمَّ فهو مدار ثراء الإنسان عندهم.

ولقد وُصِف الأعراب بالغلظة والخسونة وبصفات لا تلائم الحضارة؛ فقيل: أعرابيُّ فُح، وأعرابيُّ جلف، وما شاكل ذلك. ودُكِرَ أن "الأعرابي إذا قيل له: يا عربي فرح بذلك وهشَّ له، والعربي إذا قيل له: يا أعرابي غضب"^(١). والحقُّ أن النعوت المذكورة لا تلازم جميع الأعراب ولا تنطبق عليهم كلهم؛ فهُم يختلفون مثل أهل الحضرة باختلاف مواضعهم، من قُرب عن الحضارة ومن بُعِد عنها، ومن وجود ماءٍ وخصب، أو جدبٍ وفقرٍ، وما شاكل ذلك.

ومرجعُ هذه الفروق هو التباين في الطبيعة؛ فطبيعة أرض اليمن مثلاً طبيعة لطيفة خفيفة، الحرارة فيها معتدلة بوجه عام، والفروق في درجات الحرارة بين الصيف والشتاء أو بين الليل والنهار ليست كبيرة متناقضة متعاكسة، والضغط الجوي فيها معتدل غير قلبي متغيِّر في اليوم

١- ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٥٨٦-٥٨٧، ج ٩، ص ١٢٨-١٢٩؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٣، ص ٣٣٤.

أو الشهر أو السنة، والأمطار متوفرة بوجه عام، تزور اليمن في مواسم معيَّنة، وجبال اليمن تقف في وضعٍ مناسبٍ أمام الأبخرة المتصاعدة من البحار، حتى تضطرها على الإمطار. ثم إن اليمن هضابٌ وأوديةٌ ومسائل طبيعية تقود السيول إلى أحواضٍ حفرتها الطبيعة، وعلمت هذه الطبيعة الإنسان على رفع حوافها لتحبس المياه في الأحواض، وعلى عمل فتحاتٍ فيها لخروج الماء منها وقت الحاجة. وهي غنيَّة بالمعادن وبالحجر الصالح للبناء وبالأشجار التي غرستها الطبيعة، وأرضٌ على هذا النحو لا بُد وأن تؤثر على أجسام وعقول أصحابها، فجعلتهم من ثمَّ أنشط شعوب شبه الجزيرة العربية في ميدان العمل، والحيلة في كسب العيش وفي إقامة المجتمعات وإنشاء حضارة، وفوقتهم بذلك على سائر العرب وجعلتهم قومًا لا يرون الاشتغال بالحرف عيبًا، ولا امتهان المهنة العملية نقصًا. ولو كانت أرضهم على شاكلة أرض الحجاز أو نجد، ولو كانت طبيعتها ذات طبيعة صحراوية قاسية لما صار أهل اليمن بالشكل الذي ذكرته. ولهذا السبب اختلفت طبائع من يسميهم أهل الأخبار بالقحطانيين الساكنين خارج اليمن في نجد أو في بادية الشام عن طبائع أهل اليمن، فصاروا أعرابًا أقحاحًا يأنفون من الاشتغال بالحرف، ولا يعيشون إلا على تربية الإبل، إلى غير ذلك من

سماتٍ وُسَمَ بها البدو مع أنهم يمانيون كما يذكر أهل الأخبار. ولو كانت طبيعة أرض البادية على نحوٍ آخرٍ، أعني نحوًا يؤمّن العيش والراحة لمن يقيم بها، لما وجدنا ما وصفناه من أوصافٍ عند الأعراب؛ فإن الطبيعة تصقلهم إذ ذاك صقلًا آخر، قد تجعلهم مستقرّين مقيمين على الأقل، ودليل ذلك أثر الأمطار والريبع فيهم، عندما تغيثهم السماء، يبقون في أماكنهم ربما لسنين متوالية، ويقيمون فيها، ولا يخطر بالهم عندئذٍ خاطر الارتحال والتنقل من هذه الأرض. فللطبيعة إذن من حرٍّ وبردٍ ومن اختلافٍ في الضغط الجوي، ومن أشعة شمسٍ محرقةٍ منهكةٍ، ومن أمطارٍ وأهويةٍ ورياحٍ، ومن طبيعةٍ وموقعٍ، ومن هبة الطبيعة إلى السكان من طعامٍ غنيٍّ أو فقيرٍ، من جبوبٍ وثمارٍ وخُصْرٍ وحيوانٍ، أثرٌ بالغٌ في تكوّن الطباع وفي خلق التمايز بين الأجناس البشرية، تُضاف إلى ذلك الظروف الاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي تحيط بالناس، ثم التكوّن الجسماني ومظهره^(١).

والحضر الذين نظروا إلى الأعراب نظرة استصغارٍ وازدراءٍ لما بينهما من تفاوتٍ في الثقافة وفي العقلية هم أنفسهم أشباه حضر، وأخصّ من هؤلاء الحضر حضر الحجاز؛ فخصائص التعرّب غالبية عليهم غلبةً تزيد

١ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٢٨٩-٢٩٠.

على خصائص الحياة الحضرية؛ فقد قامت قراهم مكة ويثرب مثلاً على فكرة الأعرابية القائمة على أساس النسب؛ فكلُّ من مكة ويثرب شِعَاب، كلُّ شِعْبٍ لَفخذ أو عائلة أو ما أشبه ذلك من أسماءٍ تدخل في أسماء القبيلة، تتحزَّب وتتقاتل فيما بينها وتحالف^(١)، كما يتقاتل أو يتحالف الأعراب. ثم إنهم يأنفون من الاشتغال بالحرف، تماماً كما يفعل البدو، ويعافون الزراعة - لا أستثني منها زراعة النخيل - لأن الزراعة في نظرهم من أعمال النَّبْط والرقيق، والروح الفردية سائدةٌ بينهم، موجودةٌ عندهم، إلا في أوقات الشدة والضيقة، والفردية الجارحة من طبائع البادية ومن خصائصها، إلى أمورٍ عديدةٍ تُعدُّ من صميم حياة الأعراب. ويرى جواد علي سبب ذلك أن هذه المستوطنات التي سُمِّوها قرى كانت وسطاً بين البداوة والحضارة، وكانت كالجزر الصغيرة وسط المحيطات الواسعة، محيطاتٍ من الأعراب، تستمدُّ غذائها الروحي والمادي من البداوة أكثر مما تستمدُّه من الحضارة.

١- أعني بذلك حرب الفجار التي كانت بين قريش في الجاهلية، والحرب التي كانت بين الأوس والخزرج قبيل الإسلام. ويدل على ذلك أكثر قول خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: "إنها قريش يقارع بعضها بعضاً". أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١٦، ص ٨٤؛ ابن عساکر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٩، ص ١٢٨؛ الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج ٢، ص ٦.

أضف إلى ذلك عامل الطبيعة الذي يلعب دورًا خطيرًا في تكوُّن المجتمعات، وفي تكييفها بالشكل الملائم. ولذلك لم تتكوَّن في يثرب أو في مكة أو في غيرها حياةً مشابهةً لحياة حضر العجم في الأماكن الأخرى مثل مدن وقرى العراق وبلاد الشام ومصر، بل وحتى مدن اليمن وقراها وهم بالطبع من العرب^(١).

ومن ثمَّ، نجد حضر اليمن، بل وأعراب اليمن أيضًا يختلفون عن حضر وأعراب الحجاز ونجد وبلاد العرب الشرقية في كثيرٍ من الخصائص والصفات، مع أنهم كلهم عرب. فحضر اليمن لا يأنفون من العمل، ولا يستصغرون شأن الحرف، ولا يأنفون من الزراعة؛ بينهم الحائك والنسَّاج والمشتغل في الأرض والحدَّاد والصانع والنجَّار وعامل البناء ودابغ الجلود والإسكافي، مع أنها حرفٌ يراها العربي في بقية مواضع شبه الجزيرة العربية من حرف العبيد والطبقات الدنيا من الناس.

وأعراب اليمن الذين ميَّزهم حضر اليمن عن أنفسهم في الجاهلية؛ بإطلاق لفظة أعراب عليهم؛ لأنهم لم يكونوا في مستواهم وفي درجتهم من الحضارة، فهم بالقياس إلى عرب الحجاز أو نجد رعاة أو شبه

١ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٢٨٨.

أعراب، وهم - مع ذلك وبوجه عام - أرقى مستوى وأكثر إدراكاً من أعراب الحجاز ونجد؛ فلقد وطَّنا أنفسهم في أطراف الحواضر وعند مواضع الخصب والماء، وزرعوا ورعوا ماشيةً وأنعاماً، واستقرُّوا في بيوتٍ من المدر والأحجار. وهي حياةٌ لا يألُفها البدوي القُح ولا يراها من مقوِّمات البداوة، ثم إنهم لم يكونوا رُحَّلاً على شاكلة أعراب الحجاز أو نجد أو بادية الشام. وإذا كنا نرى بعض قبائل اليمن وهي ترحل عن مواضعها، فقد كان رحيلها لسببٍ قاهرٍ؛ مثل حروبٍ أو كوارث طبيعية جعلت من الصعب عليها البقاء في منازلها، فلم يكن أمامها للمحافظة على حياتها غير الرحيل إلى مكانٍ آخر^(١).

ومع فقر البادية وغلظ معاشها وشحها، فإن الأعرابي يحنُّ إليها، ولا يصبر عن فراقها وإن أخذ إلى الريف؛ إذ يذكر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م) ذلك: "وترى الأعراب تحنُّ إلى البلد الجذب، والمحلَّ القفر، والحجر الصلد، وتستوخم الريف"^(٢)، فهم وإن عرفوا بالتنقل والترحال بسبب البداوة، إلا أنهم يحنُّون إلى أوطانهم، ولا ينسون موطنهم القديم، يستوي في ذلك العربي والأعرابي. وهم يرون أن في

1 - Naval Intelligence Division, P. 402.

٢ - رسائل الجاحظ، ج ٢، ص ٣٨٨ (رسالة في الحنين إلى الأوطان).

الغربة كربة، وإن الإنسان إذا صار في غير أهله ناله نصيبٌ من العذل^(١)،
ويذكرون أن العرب كانت "إذا غزت وسافرت حملت معها من تربة
بلدها رملاً وعفراً؛ تستشقه عند نزلةٍ أو زكامٍ أو صداع"^(٢). والأعرابي
لا يبالي بخشونة بلاده وحرّها؛ فقد قيل لأعرابيٍّ: "كيف تصنع في
البادية إذا اشتدَّ القيظُ وانتعل كل شيءٍ ظله؟ قال: وهل العيش إلا
ذاك؟! يمشي أحدنا ميلاً فيرفُضُ عرقاً، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها
كسائه، ويجلس في فيئه يكتال الريح، فكأنه في إيوان كسرى"^(٣).
وللمسعودي كلامٌ في اختيار العرب سُكنى البادية وسبب ذلك، كما
تحدّث عن أثر البوادي في صحّة أجسام العرب، وفي تكوين أخلاقهم،
مما جعلهم يَختلفون بذلك عن بقية الناس^(٤).

ومن أمثلة حنين الأعراب إلى أوطانهم يروى أن أعرابياً اعتلَّ في
أرض عُربٍ فقيل له: ما تشتهي؟ فقال: حلّ فلاة وحسو مقلاة"^(٥).
ويروى أن ميسون بنت بحدل الكلبية - زوج معاوية بن أبي سفيان -

١- رسائل الجاحظ، ج ٢، ص ٣٩٠ (رسالة في الحنين إلى الأوطان).

٢- رسائل الجاحظ، ج ٢، ص ٣٩٢ (رسالة في الحنين إلى الأوطان).

٣- الجاحظ: المصدر نفسه.

٤- مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ١٣٠-١٣١.

٥- رسائل الجاحظ، ج ٢، ص ٣٩٠ (رسالة في الحنين إلى الأوطان).

كانت تحنُّ إلى وطنها، وقد سمعها معاوية تنشد أبياتاً فيها شوقٌ وحنينٌ إلى البادية؛ فخيمتها التي تلعب الرياح فيها خيرٌ عندها وأحبُّ إليها من العيش في قصرٍ منيفٍ، ورجلٌ نحيفٌ من بني عمها أحبُّ إليها من (عَلَجٍ عَليْفٍ)، أي حضري سمين من كثرة الأكل^(١). وانتقل أعرابيٌّ من البداوة إلى الحضارة، فرأى طائرًا بريًّا في الحضرة، فقال يخاطبه: "فارق هذا المكان، فإنه ليس لك فيه الشجر الذي تعشش عليه، وأشفق من أن تمرض كما مرضتُ"^(٢).

والعربيُّ الذي أَلَفَ الحضارة وأمعن في الترف وتفنَّن في العيش بالمدن، لا يفقه سرَّ حبِّ الأعرابي البادية؛ لأنه يرى أن كلَّ ما فيها ضيق وجوع وحر وشمس وفقر، فيُسخر من الأعرابي ويضحك منه لحنينه إلى باديته. ولما استظرف الوليد بن عبد الملك أعرابياً واستملحه، فأبقاه

١- ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٧٠، ص ١٣٣؛ عبد القادر البغدادي: خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ٨، ص ٥٠٣-٥٠٤؛

H.W. Freeland, *Gleanings from the Arabic, The Lament of Maisun, the Bedouin Wife of Muâwiya*, 1886, P. 18; Nabia Abbott, *Women and the State in Early Islam*, 1942, P. 341; Terri Deyoung, *Love, Death, and the Ghost of Al-Khansâ*, Leiden, Brill, 2000, P. 45; E.G.J. Åkesson, *Arabic Morphology and Phonology*, Leiden, Brill, 2001, PP. 142-143.

٢- الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج ٣، ص ٤٢٨.

عنده وسأله عن سبب حنينه إلى وطنه أجابه جوابًا خشنًا، مثلَّ جفاء الأعراب وصلَّفهم، فقال الوليد وهو يضحك: "أعرابيٌّ مجنون" (١)، ولم يتأثر منه؛ لأنه أعرابي، والأعرابي في حكم المجانين.

ومساكن العرب متباينةٌ مختلفةٌ؛ منها: البيوت المتقلِّة، ومنها المباني المبنية بالمدْر أو الحجر، وهي أبنية الحضر، وهي مختلفةٌ أيضًا في طرازها المعماري وفي سعتها ومادتها؛ ويكون اختلافها باختلاف مكانها، وباختلاف مكانة صاحبها ومنزلته من حيث الفقر أو الغنى (٢). وذكر علماء اللغة أن البناء، ويراد به البيت أيضًا الذي يسكنه الأعراب في الصحراء، ومنه الطراف والخباء والبناء والقبة والمضرب (٣).

والبيت لفظة تطلق على الصغير من البيوت وعلى الكبير منها. وقد جعل ابن الكلبي بيوت العرب ستة: قبة من آدم، ومظلةٌ من شعر، وخباءٌ من صوف، وبجاءٌ من وبر، وخيمةٌ من شجر، وأُفنةٌ من حجر (٤).

١- رسائل الجاحظ، ج ٢، ص ٣٩٧ (رسالة في الحنين إلى الأوطان).

٢- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٥.

٣- المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١٠، ص ٤٦.

٤- ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني البغدادي): المجالس (٢ ج)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، دار المعارف، ط ٢، د. ت. ج ١، ص ٧٩؛ ابن سيده

والخيمة في عُرْف العرب: كل بيتٍ من بيوت الأعراب مستدير، أو ثلاثة أعوادٍ أو أربعة يُلقى عليها الثمام ويستظل بها في الحرِّ، أو أعوادٌ تُنصب وتُجعل لها عوارض وتغلَّل بالشجر فتكون أبرد من الأخبية، أو عيدانٌ تُبنى عليها الخيام، أو ما يُبنى من الشجر والسعف يستظل به الرجل إذا أورد إبله الماء، وسُمِّيت خيمة لأن صاحبها يتخذها كالمنزل الأصلي. وورد أن الخيمة لا تكون إلا من أربعة أعوادٍ، ثم تسقَّف بالثمام، ولا تكون من ثياب، وأما المظلة فمِن الثياب وغيرها^(١).

وأصحاب الخيام المصنوعة من شعر الماعز أو من الصوف، هم من الأعراب أصحاب الماشية الذين يعيشون في مواضع تكثر فيها الأمطار، وتكون غير بعيدة عن المدن والقرى ومواقع الماء، ولذلك يعيشون غالبًا على الرعي. وفي سعة الخيمة دلالة على منزلة صاحبها ومكانته وراثته، ولذلك يفتخر العزيز منهم بسعة بيته، أي خيمته. وقد تُقطع الخيمة بقاطع يقسمها قسمين: قسم الحريم، أي للنساء والسكن لا

(أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسى): المحكم والمحيط الأعظم (١١ ج)، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ج ٦، ص ٤٧٦؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١٣، ص ٢٠؛ السيوطي (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضير): الزهر في علوم اللغة وأنواعها (٢ ج)، تحقيق وشرح: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، بيروت - صيدا، المكتبة العصرية، د. ط، ١٩٨٦م، ج ١، ص ١١٨؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١، ص ٥٢٩.
١ - المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٢٩، ج ٨، ص ٢٨٥.

يدخله غريب، وقسمٌ يكون للرجال والضيوف يجلسون فيه ويأكلون، ويكون نادياً ومضيفاً يَخَصُّصُ للقادمين وضيوف صاحب ذلك البيت^(١).

ولسيد القبيلة خيمة كبيرة تكون مضرب القبيلة ومقرّ الرئيس ونادي القوم؛ يسمر فيها رب القبيلة ويأوي إليها الضيوف، وإليها يلتجئ المحتاج ومن به حاجة إلى القرى أو أية حاجة أخرى، ويفتخر سيد القبيلة بمضربه هذا ويتباهى به على أقرانه، وتفتخر به قبيلته أيضاً؛ لأنه يرفع رأسها بين القبائل. وورد المضرب: الفسطاط العظيم، وهو فسطاط الملك^(٢). وتتكوّن خيمة سيد القبيلة من جملة قطع من النسيج خيطة بعضها إلى بعض لتتكوّن منها خيمة كبيرة^(٣).

وتضرب للسادات من الأشراف والأغنياء قبابٌ خاصة تكون من الأدم، فكان لرؤساء القبائل أصحاب العز قبابٌ من أدم، كما كان من عادة ملوك الحيرة ضرب قبابٍ من الأدم لأصحاب الجاه وسادات القبائل الكبار الذين يفدون عليهم. وتعتبر هذه القباب من أمارات التعظيم والتفخيم والامتياز والجاه عند الملوك، ولذلك يُعامل من تُضرب له القبة معاملة خاصة. وتُعرف قبة الأدم بالقبة المبناة أيضاً.

١- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٦.

٢- المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١، ص ٣٤٨، ج ٣، ص ٢٤٧.

٣- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٣٤٨.

وذكر بعض أهل اللغة أن القبة هي البناء، وقيل: البناء من الأدم خاصة، وذكر آخرون أن القبة من الخباء بيتٌ صغيرٌ مستديرٌ، وهو من بيوت العرب، وقيل: إن بيت الأدم، قبة الملك، يجتمع فيها كل ضرب، يأكلون الطعام^(١).

وقد اشتهرت القباب الحُمر المصنوعة من الأدم، يأوي إليها أصحاب اليسار والجاه والمشهورون. وذكّر أن النابغة الذبياني كان يُضرب له بسوق عكاظ قبةً حمراء من أدم، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها^(٢). وذكر الطبري في حديثه عن غزوة الخندق (٥٥ / ٦٢٧ م) أن النبي ﷺ أدار المعركة "وهو ضاربٌ عليه قبة تركية"^(٣)، ولم يُشر إلى شكل هذه القبة ولا إلى سبب تسميتها بذلك.

١- ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم): المعاني الكبير (٣ج)، تحقيق: سالم الكرنكوي وعبد الرحمن بن يحيى بن علي البياني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م، ج٣، ص١٢٥٤؛ ابن منظور: لسان العرب، ج١٤، ص٩٥؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج١، ص٤١٩.

٢- ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار المعارف، د.ط، ١٩٦٦م، ص١٠٠؛ المرزباني (أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى): الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٥م، ص٨٢.

٣- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص٥٦٨؛ الديار بكري (حسين بن محمد بن الحسن): تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس (٣ج)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٩م، ج٢، ص٢٩٨؛ المجلسي (محمد باقر بن تقي الدين بن مقصود): بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار (١١٠ج)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ط، دن، ج٢٠، ص١٨٩.

وذكر أهل الأخبار أن العرب كانت تضرب الأخبية لأنفسها والمضارب للموكها، والمضارب إنما ترتبط بالأوتاد^(١). وذكر بعض أهل اللغة أن الخباء بيتٌ صغيرٌ من وبرٍ أو صوفٍ ولا يكون شعر، فإذا كان أكبر من الخباء فهو بيت، ثم مظلةٌ إذا كبرت عن البيت، وهي تسمى بيتاً أيضاً إذا كان ضحماً مزوّقاً. وذكر آخرون أن الخباء بيتٌ يُعمل من وبرٍ أو صوفٍ أو شعرٍ، ويكون على عمودين أو ثلاثة، والبيت يكون على ستة أعمدة إلى تسعة، ودُكِرَ أن الخباء هو البيت كيفما كان^(٢).

ودُكِرَ أن المظلة هي الكبير من الأخبية، قيل: لا تكون إلا من الثياب، وهي كبيرة ذات رواق، وربما كانت شقة وشقتين وثلاثاً، وربما كان لها كفاء، وهو مؤخرها. وقال بعض العلماء: لا تكون المظلة إلا من الشعر خاصة، وهو من بيوت الأعراب دُكِرَ في قول أمية بن أبي عائذ الهذلي:

وليلٍ كأن أفانينه صراصرٌ جُلِّلن دُهَمَ المظالي^(٣)

١- الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري): مجمع الأمثال (ج٣)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، د. ط. ١٣٧٤هـ / ١٩٥٧م، ج١، ص ٣٦٤.

٢- ابن سيده: المخصص، ج٣، ص٣؛ ابن منظور: لسان العرب، ج١٤، ص٩٥، ٢٢٣؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج١، ص٥٩-٦٠، ٥٢٩.

٣- أبو مسحل الأعرابي (عبد الوهاب بن حريش): النوادر، تحقيق: محمد عثمان، مراجعة

والمضرب: الفسطاط العظيم، وهو فسطاط الملك، وقد استعمل للملوك خاصة، ولأصحاب الجاه والعز والمكانة، فكانوا إذا مدحوا إنساناً وأرادوا الإشادة بمكانته ومنصبه قالوا: "إنه لكريم المضرب شريف المنصب"، وإذا أرادوا ذمَّ إنسانٍ قالوا: "ما يُعرف له مضرب عسلة"، و"لا منبض عسلة"، أي من النسب والمال، يقال ذلك إذا لم يكن له نسبٌ معروفٌ ولا يُعرف إعراقه في نسبه^(١). ولما كانت المضارب من بيوت الملوك وخيار الناس، صارت المضارب كناية عن الجاه والشرف^(٢).

وإشراف: إميل بديع يعقوب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠١١م، ص٣٩؛ أبو سعيد السكري (الحسن بن الحسين بن عبيد الله): شرح أشعار الهذليين (ج٣)، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مراجعة: محمود محمد شاكر، القاهرة، مطبعة المدني، د.ط، د.ت، ج١، ص٥١٢؛ ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، ج١٠، ص٦؛ ابن منظور: المصدر السابق، ج١١، ص٤١٨؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج٧، ص٤٢٧.

١- الأزهري: تهذيب اللغة، ج٩، ص٢٠٥؛ ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا): معجم مقاييس اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب وفاطمة محمد أصلان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ج٢، ص٢٦٤؛ الزنجشيري (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر): المستقصى في أمثال العرب (ج٢)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٧م، ج٢، ص٣١٩؛ الزنجشيري: أساس البلاغة (ج٢)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ج١، ص٥٧٨؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج١، ص٣٤٩.

٢- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٥، ص٨.

والسرادق: كل ما أحاط بشيءٍ من حائطٍ أو مضربٍ أو خباءٍ،
وقيل: كل بيتٍ من كُرْسُفٍ فهو سرادق^(١). وترد اللفظة بالفارسية
بمعنى حائطٍ أو حاجزٍ من نسجٍ غليظٍ حول خيمة^(٢)، وهو من بيوت
الأعراب وَرَدَ في قول يُنسب لرؤبة بن العجاج أو لعبد الله الأعور
كذَّاب بني حرماز:

يا حكم بن المنذر بن الجارودُ سرادقُ المجدِ عليك ممدود^(٣)
وَذَكَّرَ أن الفسطاق ضربٌ من بيوت الشعر، والظاهر أنه البيت
الكبير. ووَرَدَ الفسطاق العظيم، وهو فسطاق الملك. وَذَكَّرَ أن الفسطاق
هو مجتمع الناس، وأن الفسطاق ضربٌ من الأبنية في السفر دون
السرادق^(٤).

١- مجد الدين ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج ٢، ص ٣٢٣؛ ابن منظور: لسان
العرب، ج ١٠، ص ١٥٧؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ١٣، ص ٢١٢؛ المجلسي:
بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج ٥٥، ص ٤٥.

٢- الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل): مفردات ألفاظ القرآن،
تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دمشق، دار القلم، ط ٤، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ص ٤٠٦-
٤٠٧.

٣- ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص ٧٧؛ البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر):
جمل من أنساب الأشراف (ج ١٣)، تحقيق: سهيل زكار ورياض زركلي، بيروت، دار الفكر،
ط ١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ج ١٣، ص ٥٧؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٨،
ص ٥٨؛ ابن منظور: المصدر نفسه.

٤- ابن منظور: لسان العرب، ج ٧، ص ٣٧١؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر

والطوارف بيتٌ أو خباءٌ من آدم ليس له كفاء يتخذهُ الأغنياء،
والطوارف من الخباء ما رُفِعَت من جوانبه ونواحيه للنظر إلى خارج،
وحلَّقَ فيها حبالٌ تُشدُّ إلى الأوتاد^(١)، ذُكِرَ في بيتٍ يُنسب لطفرة بن العبد
أو لعروة بن الورد:

رأيتُ بني غبراء لا ينكرونني ولا أهلَ هذاكَ الطرافِ الممدِّدِ^(٢)

وتكوّن بيوت الأعراب المتناثرة، وهي خيامها، منازل القبيلة
ومضاربها. وتحيط خيامها بخيمة أو خيام الرئيس، فتكون بذلك
مستوطنة بدوية، ويرتبط حجم هذه المستوطنات بسعة ماء المكان وبعده
بيوت القبيلة النازلة به، فإن كان الماء قليلاً، قلَّ عدد خيامها، وإن كان
غزيراً، كثر عددها. واتسعت رقعة المضارب اتساعاً يتناسب مع كفاءة
الماء وما على الأرض من رزق تعيش إبلهم عليه. ويظهر من تضارب
آراء أهل اللغة في تعريف الأسماء المذكورة، أنهم أخذوا معانيها من
موارد مختلفة من رعاةٍ ومن أعرابٍ وشبه حضرٍ وجهاتٍ مختلفةٍ، فكان

القاموس، ج ٣، ص ٢٤٧، ج ٥، ص ١٩٨؛ المجلسي: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار
الأئمة الأطهار، ج ٤، ص ١٣٩.

١- ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، ج ٩، ص ١٥٠؛ ابن منظور: المصدر السابق، ج ٩،
ص ٢١٩؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٣٧، ج ٦، ص ١٧٨.

٢- ديوان طفرة بن العبد، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، بيروت، دار الكتب العلمية،
ط ٣، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م، ص ٢٥؛ ابن سيده: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٥١؛ ابن منظور:
المصدر نفسه؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٣٧، ج ٦، ص ١٧٩.

كل موردٍ يفسر الشيء تفسيرًا مختلفًا عنه عند موردٍ آخر، فتضاربت هذه الآراء^(١).

أما أهل القرى والمدن، أي أهل المدر، وهُم المستقرُّون وشبه المستقرِّين، فإنهم يقيمون في بيوتٍ ثابتةٍ أو شبه ثابتةٍ، وهي تتفاوت بالطبع بتفاوت منازل ودرجات أصحابها؛ فربَّ بيتٍ يكون من طين، ويسقف بجريدٍ أو بأغصانٍ أو بحصيرٍ يُطَيَّن أيضًا، ويختلف حجم هذا البيت باختلاف العائلة، وغالبًا يُبنى البيت باللبن، وتكون حالة أصحابها أحسن من أصحاب بيوت الطين. وربَّ بيتٍ يكون من خيمةٍ أو من أغصان شجرٍ وعيدان وجريد، ويقال له: «العُنة»، وقد قيل: إن العُنة الخيمة تتخذ من أغصان الشجر، وأكثر ما يتخذ ذلك من الثمام لأنه أبرد ظلًّا، وقيل: العُنة البيت يُعمل من الخشب، والجمع: العُنن، وقد وردَ في قول الأعشى:

ترى اللحمَ من ذابلٍ قد ذوى ورطِبٍ يرفعُ فوق العُننِ^(٢)

١- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٨-٩، ج ٨، ص ٣٠.
٢- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، تحقيق: محمد حسين، القاهرة، مكتبة الآداب، د. ط. د. ت، ص ٧١؛ ابن قتيبة الدينوري: المعاني الكبير، ج ٢، ص ١١٢١؛ ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد): الاشتقاق، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، بيروت، دار الجليل، ط ١، ١٤١١هـ / ١٩٩١م، ص ٥٣٤؛ ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد) (٣٢١هـ / ٩٣٣م): جمهرة اللغة (ج ٣)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، بيروت، دار العلم

أما بيوت كبار الناس وأغنيائهم فُستعمل فيها الحجارة والأخشاب وغير ذلك من مواد تجعل البناء يدوم أمداً ويعيش مدّة طويلة.

وكتيجة لتيسّر مواد البناء في بلاد العرب الجنوبية ظهرت مدن لا نجد لها مثيلاً في أنحاءٍ أخرى من شبه الجزيرة العربية؛ مدنٌ كبيرةٌ بيوتها ثابتةٌ وبعضها ذو طوابق متعدّدة تُحاط بأسوارٍ عاليةٍ وأبراجٍ وحصونٍ يأوي فيها المدافعون، وقد تمكّن المتقيّبون من التنقيب في بعض خرائبها ومن وضع مخطّطاتٍ لبعض شعابها أو مخطّطاتٍ عامّةٍ مبدئيةٍ للمدينة كلها وللصور الذي كان يحتضنها. وبفضل المواد المذكورة بقيت أبنيةٌ من أبنية الجاهليين اليمانيين إلى الإسلام، بقيت محافظة على نفسها وعلى شكلها العام، ولولا يد الإنسان التي خرّبت أكثرها لبقيت أزمنةً طويلةً، ولو كانت تلك الأبنية قد بُنيت بالطابوق أو بالبنين وبالمواد المستعملة في البناء وسط وجنوب العراق، لما تمكّنت من البقاء طويلاً؛ لأنها موادٌ لا تتحمّل معاركة الطبيعة زماناً طويلاً، لذلك تنهار بسرعة إذا لم ترعها يد الإنسان دوماً بالإصلاح والتعمير^(١).

للملايين، ط ١، ١٩٨٧م، ج ١، ص ١٤٦؛ ابن سيده: المخصص، ج ١٠، ص ١٨٧؛ ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج ٤، ص ٢١؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١٣، ص ٢٩٣؛ الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١٨، ص ٣٨٨.

1 - A. Grohman, Arabien, Munchen, 1963, P. 140.

وللأسف، فقد زال أكثر مباني العرب قبل الإسلام؛ بسبب اعتداء الإنسان عليها بجهله، فقد حمله كسله وجهله على تدمير تلك الأبنية؛ لاستعمال حجارتها في بناء بيوتٍ جديدةٍ ولأغراضٍ أخرى. وقد حُطِّمَتْ ودُمِّرَتْ قصورٌ عظيمةٌ باليمن، بقيت بعضها قائمةً إلى الإسلام، مثل قصر «غمدان» بصنعاء، الذي يبالغ أهل الأخبار في وصف ارتفاعه وضخامته، وقد كان مؤلفاً من طبقاتٍ بعضها فوق بعض، ثم هُدِمَ وقلَّ في الإسلام؛ إذ أمر عثمان بن عفان بهدمه، فزالت معالمه^(١). وقد هُدِمَ قصر «يهر» «ذي يهر» بيت حنبص، وهو أثرٌ جاهليٌّ مهمٌّ ظلَّ قائماً إلى حوالي سنة ٢٩٥هـ / ٩٠٧م؛ إذ أمر ابن أبي الملاحف القرمطيُّ بإحراقه، فأحرق، وظلَّت أخشابه تحترق أربعة أشهر على ما يزعمه الرواة^(٢)، ربما هي مبالغةٌ منهم. وفُعلَ مثل ذلك في العراق؛ فقد هُدِمَتْ قصور المناذرة بالحيرة، لانتحاذ حجارتها مادةً لبناء الكوفة، و"وجد في قراطيس هدم قصور الحيرة التي كانت لآل المنذر، أن المسجد الجامع بالكوفة بُنيَ ببعض نقض تلك القصور، وحُسبت لأهل الحيرة قيمة ذلك من جزيتهم"^(٣). وقد أضاعت هذه الأعمال معالم قيمةً من تراث العرب قبل الإسلام.

١- المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٢، ص ٤٤٦.

٢- الهمداني: الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، ج ١، ص ١٢.

٣- البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر): فتوح البلدان، تحقيق: عمر أنيس الطباع وعبد الله أنيس الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف، د. ط، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص ١١٦.

ويظهر أن أهل الحجاز لم يكونوا على شاكلة أهل اليمن في بناء البيوت الضخمة من الحجارة ومواد البناء الأخرى التي يُعمَّر بها البناء طويلاً؛ بدليل أن ما نشاهده في اليمن وفي مواطن أخرى من شبه الجزيرة العربية من بقايا معابد ومبانٍ ضخمةٍ، وعدم وجود شيءٍ من ذلك في الحجاز، وبدليل ما أورده أهل الأخبار من قصصٍ عن مباني اليمن، وما شاهدوه من بقايا في أيامهم هناك، وهي تتحدَّث عن فنِّ عمرائيٍّ متقدِّمٍ، في حين خلت أخبارهم من هذا القصص عن الحجاز، بل يظهر من أن أكثر أبنية الطائف ومكة ويثرب لم تكن إلا أبنيةً صغيرةً ضيقةً، أكثرها من اللبن أو الطين، وقد عرَّشَت بجريد النخل والعيدان وبالأخشاب المحتطبة من التلال والجبال؛ ولا نجد في وصف الأخباريين لقرى الحجاز وبيوتها ما يفيد بوجود أبنية ضخمة فيها على طراز اليمن؛ فلم يتحدَّث أهل الأخبار عن وجود قصورٍ فيها تشبه قصر ذي ريدان أو قصر غمدان أو غير ذلك من القصور. حتى مكة وهي أم القرى لا يشير الأخباريون إلى وجود بناء ضخم فيها على طراز أبنية اليمن، ولا لوجود بيتٍ كبيرٍ فيها على طراز بيوت سُراة أهل اليمن؛ فقد عرِّفَت بيوت مكة بعروش مكة؛ لأن بيوتها كانت عيداناً تُنصب ويُطلَّل

عليها^(١). ودار الندوة، وهي دار قصي بن كلاب - مؤسس مُلك قريش - لم تكن دارًا ضخمة؛ على ما يظهر من روايات أهل الأخبار^(٢)، ويظهر أن أهل الأخبار لم يحفلوا بالنواحي العمرانية من الجاهلية، لذلك صارت معلوماتنا بسيطة جدًا عنها من هذه الناحية، فلا نكاد نعرف شيئًا عن عمران الحجاز قبل الإسلام.

ودار الندوة هي أول دار بُنيت بمكة على حدّ قول الرواة، وكانت أشهر دار بمكة وأُنشَرها في الناس خبرًا، ثم تتابع الناس فبنوا من الدور ما استوطنوه^(٣). ويذكر أهل الأخبار أن مكة لم تكن ذات منازل، وكانت قريش بعد جُرهم والعمالقة ينتجعون جبالها وأوديتها ولا

١- ابن أبي شيبة: المصنف، ج ١، ص ٣٦٥؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج ٦، ص ٣٤٢؛ مجد الدين ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج ٣، ص ١٨٨؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٦، ص ٣١٥؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٩، ص ١٣٩.

٢- ابن هشام: سيرة النبي ﷺ، ج ٢، ص ١٢٤؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٧٠؛ البلاذري: جمل من أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٢؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٢٥٨؛ ابن دريد: الاشتقاق، ص ٩٧؛ عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٣.

٣- البلاذري: المصدر السابق، ج ١، ص ٦٤؛ تاريخ يعقوب، ج ١، ص ٢٣٩؛ الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري): الأحكام السلطانية، تحقيق: أحمد جاد، القاهرة، دار الحديث، ط ١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ص ١٦٣؛ ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر): البداية والنهاية (٢١ ج)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة، دار هجر، ط ١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ج ٣، ص ٢٣٦.

يخرجون من حرمها انتساباً إلى الكعبة لاستيلائهم عليها وتخصّصاً بالحرم لخلوهم فيه، ولما كان كعب بن لؤي بن غالب جمع قريش صار يخطب فيها في كل جمعة، وبذلك أُلّف بين قريش حتى جاء قصيُّ بن كلاب ففعل ما فعل^(١). ولدينا خبرٌ آخر يذكر أنه كان حول الحرم غوطةً مشتبكةً بأشجارٍ ذات شوكٍ تكوّنت من قديم الأزل فقطعها عبد مناف بن قصي، وهو أوّل من بنى داراً بمكة ولم تُبن دارٌ قبلها، بل كان بها مضارب للعرب من الشعر الأسود^(٢). ووَرَدَ في روايةٍ أخرى أن ثاني دارٍ بُنيت بمكة - بعد دار الندوة - هي دار العجلة، وهي دار سُعيد بن سعد بن سهم، وزعم بنو سهم أنها بُنيت قبل دار الندوة^(٣).

ويظهر من روايات الأخباريين عن بيوت مكة - وهي بيوت ساداتها وأثريائها - أنها كانت مقامة بالحجر، وبها عددٌ من الغرف، ولها

١- الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ١٦٢؛ ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (٢٧ج)، تحقيق: كامل سلمان جيوري وآخرون، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠١٠م، ج ١، ص ١٩٢.

٢- أبو الحسن العاملي الموسوي (العباس بن علي بن نور الدين علي القرشي الهاشمي الحسيني المكي): نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس (٢ج)، تحقيق: محمد مهدي الخراسان، النجف الأشرف - قم، منشورات المطبعة الحيدرية، ط ١، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ج ١، ص ٢٤.

٣- البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٨.

بابان متقابلان: بابٌ يدخل منه الداخل، وباب يقابله يخرج منها الخارج، ولعلَّها بُنيت على هذا الوضع لِيَتِمَّ كُنَّ النساء من الخروج من الباب الآخر عند وجود ضيوف في رحبة الدار عند الباب المقابل. ومعنى هذا أن أمثال هذه الدور كانت واسعة تطلُّ على زقاقين. ولبعض الدور «حجر» عند باب البيت، يُجلس تحته لِيَسْتَظِلَّ به من الشمس، وكان منزل خديجة بنت خويلد - زوج النبي ﷺ الأولى - ذا حجرٍ من هذا الطراز^(١).

وزعم بعض أهل الأخبار أن أهل مكة كانوا يبنون بيوتهم مدورةً؛ تعظيماً للكعبة، وأن العرب تسمي كل بيتٍ مربع كعبة^(٢)، وأن أول من بنى بيتاً مربعاً وجعل له سقفاً حميد بن زهير بن الحارث القرشيّ الأسديّ، فكان أول من خالف سنة قريش، وخرج على عرف أهل مكة، فجعلت قريش يرتجزون وهو يبيّن:

رَبَّعَ حميد بن زهير بيتاً إما حياة أو إما موتاً^(٣)

١- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٢٨٢.

٢- ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر الأصفهاني): الأعلام النفيسة، بيروت، دار صادر، نسخة مصورة عن طبعة ليدن ١٨٩٣ م، ص ٥٨.

٣- الفاكهي (أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس الكناني المكي): أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه (٦ ج)، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، بيروت، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م، ج ١، ص ٢٢١-٢٢٢؛ الأزرقى (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الغساني المكي): أخبار مكة وما فيها من الآثار (٢ ج)، تحقيق:

فلما لم تصبه عقوبة، ربّعت قريش منازلها^(١). ولو أخذنا بهذه الرواية عن التغيير الذي طرأ على طراز العمارة في مكة، فإن ذلك يحمّلنا على القول: إنه يجب أن يكون قد حدث في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، في وقتٍ ليس ببعيد العهد عن أيام النبي ﷺ؛ لأننا نجد أن واحداً من أبناء حميد بن زهير هذا، وهو عبد الله، بارز عليّ بن أبي طالب يوم أحد سنة ٣هـ / ٦٢٥م، فقتله عليّ^(٢).

ويتبيّن من غربلة روايات الأخباريين المتقدّمة عن مدى سعة الحرم وعن زمان بناء الدور بمكة، أن بطن مكة لم تُبن البيوت المستقرة فيه إلا منذ أيام قصي بن كلاب، أما ما قبل ذلك فقد كان الناس يسكنون ظواهر مكة، وهي مواضع مرتفعة تكون في سفوح الجبال والمرتفعات

رشدي الصالح ملحق، بيروت، دار الأندلس للنشر، ط ٣، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ج ١، ص ٣٩٠-٣٩١؛ مصعب الزبيري (أبو عبد الله مصعب بن عبد الله بن ثابت): نسب قريش، تحقيق: ليفي بروفنسال، القاهرة، دار المعارف، ط ٣، ١٩٨٢م، ص ٤٤٣.

١- الزبير بن بكار (أبو عبد الله الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير القرشي الأسدي): جمهرة نسب قريش وأخبارها (٢ج)، تحقيق: عباس هاني الجراخ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠١٠م، ج ١، ص ٢٦٤؛ الفاكهي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٢٢.

٢- مصعب الزبيري: المصدر السابق، ص ٢١٢؛ الزبير بن بكار: المصدر نفسه؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٥، ص ٧؛ ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكفائي): الإصابة في تمييز الصحابة (٨ج)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ج ٤، ص ٣٢٨.

المحيطة بالمدينة. أما باطن مكة، وهو الوادي الذي فيه البيت، فقد كان حرماً آمناً لا بيوت فيه، أو أن بيوته كانت قليلة حصرت بسدنة البيت ومن كانت له علاقة بخدمته، لذلك نبت فيه الشجر حتى غطى سطح الوادي، من السيول والأمطار. ولم يكن في وسع أحد التناول على ذلك الشجر؛ لأنه شجر حرم آمن، وبقي هذا شأنه يغطي الوادي ويكسو وجهه بغوطة، حتى جاء قصي بن كلاب أو ابنه عبد مناف، فتجاسر عليه أحدهما بقطعه، وخاف الناس من فعله؛ خشية غضب رب البيت، ونزول الأذى بهم إن قطعوه، فلما وجدوا أن الله لم يغضب، ولم ينزل بهم سوءاً، اقتفوا أثره، فقطعوا الشجر، واستحوذوا على الأرض الحرام، وظهرت البيوت فيه، وأخذت تتجه نحو البيت حتى أحاطت به، ولم يكن له يومئذ جدار، حتى ضايقته وصغرت فناءه وصغرت مسجده^(١).

وقد كانت بيوت المتمكنين من الناس وأصحاب العز والجاه من ذوي المال واليسار مشيدة بالحجارة واللبن. ويذكر علماء اللغة أن كل بيت مربع مسطح فهو «أجم». ويظهر في بيت ورد في معلقة امرئ القيس:

١- ابن هشام: سيرة النبي ﷺ، ج ٢، ص ١٢٤؛ البلاذري: جمل من أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٨؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٢٥٨؛ عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٣؛ أبو الحسن العاملي الموسوي: نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس، ج ١، ص ٢٤.

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ولا أُجمًا إلا مشيدًا بجندل^(١)
أن آجام تيماء كانت مشيدةً بالجندل، والجندل هو الحجر، وقيل:
الصخور، وذُكرَ أنها الصخرة كُرأس الإنسان^(٢). وقد استعين بتشيد
السقوف بجذوع النخل. ويقال للآجام: القصور بلغة أهل الحجاز،
وعُرفت كذلك بالآكام^(٣)، وهي بمثابة الحصون يتحصن بها أوقات
الخطر. والقصر عند العرب: كل بناءٍ من حجر^(٤).

وليست لدينا صورًا واضحةً دقيقةً عن بيوت الأغنياء، وعن
محتوياتها وعمّا فيها من أثاثٍ وأدواتٍ، غير أن بعضًا منها يجب أن يكون
واسعًا كبيرًا حوى كل وسائل الراحة المتوفرة في ذلك العهد؛ فرجلٌ
مثل عبد الله بن جُدعان كان ثريًا ثَقيل الثراء، يملك آنية الذهب
والفضة، ويتفنن في مأكله بأكلاتٍ غريبةٍ، وقد أحضر طبّاحين من

١- ديوان امرئ القيس، برواية الأصمعي والمفضل الضبي وأبي سعيد السكري، نسخة
الأعلم الششمري وابن سنان الطوسي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار
المعارف، ط٤، ١٩٨٤م، ص٢٥؛ ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج١، ص٦٥، ١١٢؛
ابن منظور: لسان العرب، ج١٢، ص٨.

٢- الأزهري: تهذيب اللغة، ج٨، ص٤٩٢؛ ابن منظور: المصدر السابق، ج١١، ص١٢٩؛
المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج٧، ص٢٦٦.

٣- مجد الدين ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج١، ص٧٨.

٤- المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج٣، ص٤٩٤.

الخارج كالعراق مثلاً ليطبخوا له طعاماً غريباً أعجمياً^(١). فرجلٌ مثل هذا لا بد أن يكون بيته بيتاً كبيراً يتناسب مع ثراء صاحبه وماله وأنه بُني بناءً محكمًا، وأحصنت جدرانها وارتفعت حتى يكون في مستطاعه التحصن فيه وقت الخطر والمحافظة على نفسه من اللصوص والطامعين في ماله ليل نهار.

ولا بد أن يكون بيت ابن جُدعان هذا قد بُني من أجنحةٍ متعدّدة: جناح لسكنائه مع نسائه، وجناح لقيانه وخادmatesه، وجناح لخدمه وعبيده، وجناح لاستقبال أصحابه وندمائه وأصحاب الحاجات والأشغال؛ فقد كان يجلس للأصدقاء يتسامر معهم ويسمعون غناء قيانه، وعلى رأسهن: الجرداتان، وهما قيتاته المختارتان، وكان لهما صوتان شجيان، وقد اشتهرتا بمكة، وخلد ذكرهما حتى الآن^(٢)، فلا يُعقل أن يكون بيته صغيراً أو بدائياً؛ إذ لا يتناسب ذلك مع ما يذكره أهل الأخبار ويروونه عن ثرائه وبذخه وعن شربه في آنية من الذهب

١- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ٨، ص ٣٢٩-٣٣٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٢٦٥؛ التويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٥، ص ٤١.

٢- ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم): عيون الأخبار (٤ ج)، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ط ١، ١٩٩٦ م، ج ٣، ص ٢٦٨؛ أبو الفرج الأصفهاني: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٢٧؛ خليل البدوي: موسوعة نساء شهرات، عمان، دار أسامة للنشر، ط ١، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م، ص ٨٤.

والفضة، إلى غير ذلك مما يحملنا - لو صدقنا روايات الأخباريين - على أن بيته يجب أن يتناسب مع ثرائه.

وعاصر ابن جُذعان نفرًا آخر كانوا من أغنياء مكة ذوي المال والثراء، لهم ذوقٌ في الجمال وحبُّ الشراب، وكان لهم خدمٌ وحشمٌ. ورجالٌ من هذا الطراز لا بد أن تكون بيوتهم حسنة ومن حجارة، وفيها وسائل الراحة، ولها مواضع خاصة لإقامة النساء، وأماكن خاصة لاستقبال الضيوف، ومواضع أخرى لإقامة أهل الخدمة والعبيد، وغرف لحفظ الأطعمة والأشربة، وأخرى للدواب التي يرتبطها للركوب. وقد تُبنى دكك عند باب البيت؛ يجلس عليها الدرابتة، أي البوابون؛ لحراسة الدار ومنع الغرباء من الدخول. وقد أُشير إليها في بيتٍ يُنسب للمثقَّب العبدِيّ:

فابقى باطلي والجِدُّ منها كدكانِ الدَّرَابِنَةِ الْمُطَيَّنِ^(١)

ويظهر من روايات أهل الأخبار أن بيوت يثرب امتازت عن مكة بأنها تكوّنت من طابقين، وكانوا إما يسكنون الطابقين كليهما، وربما أودعوا ماشيتهم ودوابهم الطابق الأرضي، أو في مواضع خاصة بها

١- ابن دريد: جمهرة اللغة، ج٢، ص٦٨٠؛ ابن منظور: لسان العرب، ج١٣، ص٢٧٠؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج٧، ص١٣٠.

ملحقةً بهذا الطابق. وكانت دار أبي أيوب الأنصاري (ت ٥٢هـ/ ٦٧٤م) التي نزل بها النبي ﷺ ذات طابقين، نزل الرسول ﷺ طابقاً منها، وسكن أبو أيوب الطابق الثاني^(١).

ويظهر من وصف الأخباريين لمكة أنها لم تكن مسورة، وإنما كانت ذات منافذ وطرق تؤدي إلى داخل المدينة وتمر بالشعاب. وعلى كل أهل شِعْبٍ حماية شعبه من الأطراف عند دنو عدوٍّ من مكة. وأما المدينة فلم يكن لها سورٌ كذلك ولا حائطٌ يحيط بها ولا خندق يقف حائلاً أمام من يريد مدينتهم بسوء. وقد كان عماد دفاع أهل يثرب بالتحصن في بيوتهم، وبسد منافذ الطرق أثناء الخطر^(٢).

وقد حلَّ سادات يثرب مشكلة الدفاع عن أنفسهم وأموالهم ببناء أبنيةٍ حصينة ذات جدرانٍ سميكة، تسمى الآطام، يُقال للواحد منها: الأطم. والآطم: كل حصنٍ بُني بالحجارة، وقيل: هو كل بيتٍ مربعٍ

١- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٣٧؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٩٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٤، ص ٥٣٠؛ السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ج ١، ص ٢٦٤؛ ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني): فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣ج)، تحقيق: عبد العزيز عبد الله بن باز وآخرون، المدينة المنورة، المطبعة السلفية، د. ط، ١٣٨٠هـ، ج ٧، ص ٢٦٦.

٢- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ١٣١، ج ٥، ص ١٦.

مسطَّح، وقال الأصمعيُّ: هي الدور المسطَّحة السقوف^(١). وقد اشتهرت يثرب بهذه الآطام، وكانت تتكوَّن من طابقين في الغالب أو ثلاثة طوابق تكون ضخمة نوعاً ما يعيش فيها ساداتها، وتكون حصوناً لأهل المدينة يتحصَّنون بها عند دنوِّ الخطر منهم، وقد بُنيت بالآجر وباللبن أحياناً وبالطين في بعض الأحيان، حيث تُجعل الجُدُر عريضة؛ لتقف صامدةً أمام الدهر وأمام المهاجمين، وتتخذ في أعلى الأطم مواضع يقف عليها المدافعون لرشق المهاجم بالسهم أو الحجارة أو بصبِّ الماء الحار أو النار عليه إن قرب من جدار الأطم. وقد انُخِذَت الأطم في يثرب لعدم وجود سورٍ حولها يحميها من الأعداء، ولكونها مكشوفة، لا تحميها حواجز طبيعية يتحصَّن بها أهل المدينة عند دنوِّ الخطر منهم، فلم يجدوا أمامهم من وسيلةٍ سوى بناء هذه الأطم للدفاع عن أنفسهم^(٢).

أما الطائف، فقد كانت القرية أو المدينة الوحيدة في الحجاز المحاطة بحائطٍ أو بجدارٍ يمكن أن نسَّميه سوراً، وكان يحيط بالمدينة وبه مواضع يُتحصَّن فيها. ويزعم أهل الأخبار أنها سُمِّيت طائفاً بحائطها

١- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١، ص ٣١؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١٢، ص ١٩؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٨، ص ١٨٧.
٢- ابن رسته: الأعلام النفيسة، ص ٦٠، ٦٢؛ أبو الفرج الأصفهاني: المصدر السابق، ج ١٩، ص ٩٤؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦١.

المطيف بها، أما اسمها القديم فهو «وَحْج». ولهم رواياتٌ عن كيفية قيام ذلك الحائط؛ وقد زعم بعض الأخباريين أن الذين أقام حائط الطائف رجلٌ حضرميٌّ من قبيلة الصدف يقال له: الدمون بن عبد الملك وكان تاجرًا، وكان قتل ابن عم له يقال له: عمرو، ثم فرَّ هاربًا ومعه مألٌ كثيرٌ، ثم جاء إلى مسعود بن معتب الثقفي، فقال: أريد أن أحالفكم على أن تزوجوني وأزوجكم وأبني لكم طوفًا عليكم مثل الحائط لا يصل إليكم أحدٌ من العرب، فوافقوا على ذلك، وبني لهم طوفًا عليهم، فسُمِّيت الطائف، فزوّجوه^(١).

وقد حاول بعض أهل الأخبار إعطاء الطائف مسحة دينية؛ فزعموا بأنها من دعوات النبي إبراهيم، وأنها قطعة من أرض ذات شجرٍ كانت حول الكعبة، ثم انتقلت من مكانها بدعوة إبراهيم، فطافت حول البيت، ثم استقرت في مكانها، فسُمِّيت الطائف. وزعم بعضهم أن جبريل اقتطعها من فلسطين، وسار بها إلى مكة فطاف بها حول البيت، ثم أنزلها حول الطائف، فسُمِّيت الطائف^(٢). وهكذا أكسبت

١- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٦، ص١٠.

٢- ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٣، ص٤٩٩؛ عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١، ص٤٢٠؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج١، ص١٨٤.

هذه الروايات الطائف قديسةً، وجعلت لها مكانة دينية. وهي رواياتٌ يظهر أنها وُضعت بتأثير سادات ثقيف المتعصّبين لمدينتهم، والذين رأوا أن مدينتهم ليست أقلُّ شأنًا من مكة أو يثرب. وقد كان بها ساداتٌ وأشرافٌ ذوو مالٍ وثراء.

ويظهر من روايات أهل الأخبار أن قرى الحجاز ومدنها كانت شعابًا، أي أحياء تكوّنت على الطريقة البدوية؛ وذلك بإقامة كل عشيرةٍ في حيٍّ معيّنٍ من أحياء القرية أو المدينة. وتكون بين أهل الحي عصبية مثل العصبية للقبيلة، وينتمي أفراد الحي إلى القبيلة أو العشيرة التي يرجع إليها. ويُشعر أن بين أفراد الحي قرابة ورابطة دم. وقد يُقال للمنزل أو المحلّة: «الرّبْع»، والجمع: «رَباع». وذُكر أن الرباع: المنازل وجماعة الناس^(١)، فتتألف كل قرية أو مدينة من رباع.

وقد عرف العرب المصاييح والقناديل قبل الإسلام؛ وكانت صوامع الرهبان وأديرتهم معروفة في بلاد العرب في طريق الشام، يمرّون عليها وينزلون بها في ضيافة رهبانها، وكان الرهبان يتركون كوى صوامعهم مفتوحةً ليظهر ضوءها فيهتدي بها المسافرون، وقد ارتبطت

١- ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج ٢، ص ٤٨٠؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٨، ص ١٠٢؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ١١، ص ١٣.

المصاييح في شعر العرب بالرهبان، وتركت أثرًا ملحوظًا في مخيلة

الشعراء؛ إذ نرى ذلك في شعر يُنسب لامرئ القيس:

يُضيءُ سناه أو مصاييح راهبٍ أمال السليط بالذبالِ المفتلِ

وقوله:

نظرتُ إليها والنجومُ كأنها مصاييح رهبانٍ تُشبُّ لُقْفَالِ^(١)

ووردت في شعر يُنسب للمزرد بن ضرار الذبياني:

كأن شعاع الشمسِ في حُجراتها مصاييحُ رهبانٍ زهتها القنادلُ^(٢)

وعلى الرغم من ذلك، لم يعرف أغلب عرب شبه الجزيرة العربية

المصاييح أو الإنارة بالليل - أستثني من ذلك ممالك اليمن والعراق

والشام - ويدلنا على ذلك ما روي عن عائشة بنت أبي بكر أنها قالت:

١- ديوان امرئ القيس، ص ١٧، ٣١؛ ابن رشيح القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه،

ص ٥؛ عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ١، ص ٨٣-٨٤.

٢- المفضل الضبي: المفضليات، ص ٩٩؛ المرزباني (أبو عبيد الله محمد بن عمران بن

موسى): معجم الشعراء، تحقيق: فاروق أسليم، بيروت، دار صادر، ط ١، ١٤٢٥هـ/

٢٠٠٥م، ص ٤٩٦؛ أبو الحسن البصري (صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن):

الحماسة البصرية (٤ج)، تحقيق: عادل سليمان جمال، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط ١،

١٤٢٥هـ/ ١٩٩٩م، ج ٢، ص ٣٢٣.

"ولم يكن في البيوت يومئذ مصابيح"^(١)، بل كانت المصابيح ترفُّ لم يعرفه العرب؛ فقد كانوا يأكلون زيوت وُدُهْن المصابيح، فقد رُوِيَ عن عائشة أنها قالت: "لو كان عندنا مصباحٌ لآتدمننا به"^(٢)، أي لو كان عندنا ما يُستصبح به من الزيت لآتدمننا به، وقد جاء ذلك المعنى في روايةٍ أخرى على لسانها أنها قالت: "لو كان عندنا ما يُسرج به أكلناه"^(٣). وقد استدعت بعض الظروف إشعال نيران بالليل، مثل يوم

١- ابن أبي شيبَةَ: المصنف، ج ٢، ص ١٩؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج ٦، ص ٢٢٥؛ صحيح البخاري، ص ١٠٧، ١٣٤؛ مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن ورد بن كوشاذ القشيري النسابوري): المسند الصحيح المختصر من السنن ينقل العدل عن العدل عن رسول ﷺ، تحقيق: صدقي جميل العطار، بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ص ٢٤٣.

٢- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٣١٠؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج ٦، ص ٩٤، ٢١٧، ج ١٨، ص ٦٣؛ الطبراني (أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي): المعجم الأوسط (١٠ ج)، تحقيق: طارق بن عوض الله وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، القاهرة، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ج ٨، ص ٣٦٠؛ ابن حجر الهيثمي (نور الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان الأنصاري الخزرجي): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠ ج)، تحقيق: حسام الدين القدسي، بيروت، منشورات دار الكتاب العربي، د. ط، د. ت، ج ١٠، ص ٣٢٤-٣٢٥.

٣- ابن سعد: المصدر نفسه؛ المقرئزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني): إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع (١٥ ج)، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ج ٢، ص ٢٩٠.

المقتلة التي نزلت ببني قريظة؛ فقد "قتلت بنو قريظة يومهم حتى قُتلوا بالليل على شُعل السَّعَف"^(١). وكذلك الشوارع والأزقة لم تعرف الإنارة؛ فقد رُوِيَ عن عائشة أنها قالت: "إن كان رسول الله ﷺ ليصلِّي الصبح، فينصرف النساء مُتَلَفَّعَاتٍ بمروطهن، ما يُعرفن من الغَلَس"^(٢).

ولم يقتصر عدم الإضاءة على البيوت والشوارع، بل وصل إلى البيت الحرام والمسجد النبوي، فقد اختلفوا في أول مَنْ استصبح حول الكعبة، وذلك في الإسلام؛ ف قيل: إن "أول مَنْ أجرى للمسجد زيتاً وقناديل: معاوية بن أبي سفيان"^(٣)، وقيل: "عقبة بن الأزرق بن عمرو

١- الواقدي (أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الأسلمي): المغازي (ج٣)، تحقيق: مارسدن جونس، بيروت، دار الأعلمي، ط٣، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ج١، ص٢٠٣؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص٢٥٠-٢٥١، ٢٥٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص١٢٦؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج١٧، ص١٩٣؛ المقرئ: المصدر السابق، ج١، ص٢٥١.

٢- مالك (أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني): الموطأ (ج٢)، رواية يحيى بن يحيى الليثي، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ج١، ص٣٥-٣٦؛ صحيح البخاري، ص١٤٨؛ صحيح مسلم، ص٢٩٥.

٣- الأزرق: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٤٠٠؛ السيوطي (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر الخضير): الوسائل في مسامرة الأوائل، تحقيق: محمد السعيد بن بسويو زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٦م، ص٣٧.

الغسانيُّ، كان يضع على حرف داره مصباحًا عظيمًا فيضيء لأهل الطواف وأعلى المسجد. فلم يزل ذلك المصباح على حرف الجدار حتى كان خالد بن عبد الله القسريُّ، فوضع مصباح زمزم مقابل الركن الأسود في خلافة عبد الملك بن مروان" (١). وكذلك المسجد النبويُّ فقد اختلفوا في أول مَنْ أضاءه؛ فقد رُوِيَ أن تميمًا الداريَّ أسرج المسجد النبويَّ بمصابيح وقناديل جاء بها من الشام، وقد كان إسلام تميم سنة ٦٣٠هـ/ ٦٣٠م، وقال بعضهم: "أول مَنْ جعل في المسجد المصابيح عمر بن الخطاب" (٢). وإذا ما كان الأمر في العهد النبوي والخلافة الراشدة إلى الدولة الأموية، فبالقطع كان الأمر كذلك قبل الإسلام.

١- الفاكهي: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ج ٢، ص ٦٨، ج ٣، ص ٢٤٠؛ الأزرقى: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج ١، ص ٤٠٠؛ التقي الفاسي (أبو الطيب محمد بن أحمد بن علي المكي): شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (٢ج)، بيروت، دار الكتب العلمية، ١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٤٤٣، ج ٢، ص ٢٩٢؛ ابن فهد (نجم الدين عمر بن محمد بن محمد الهاشمي المكي): إتخاف الوري بأخبار أم القرى (٥ج)، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١، ١٤٠٣هـ، ج ٢، ص ١٢١.

٢- الحلبي (أبو الفرج نور الدين علي بن إبراهيم): إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (٣ج)، تحقيق: عبد الله بن محمد الخليلي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢، ١٤٢٧هـ، ج ٢، ص ١١٢.

الباب الثاني
النظام القبلي

الفصل الأول

القبيلة

من الصعب جدًّا معرفة التاريخ الذي بدأ فيه سكان شبه الجزيرة العربية حياتهم الاجتماعية والسياسية على أساس نظامٍ يحمي حقوق الأفراد، ويوجِّه الجماعات إلى ما يسعد حياتها ويرعى مصالحها^(١)؛ إذ لم تكن بلاد العرب قبل الإسلام دولًا عربية بالمعنى الذي نفهمه الآن؛ ولكن الدولة هي الجماعة في جملتها. وكذلك الحال بالنسبة للمدن؛ إذ لم تكن كحال مدن اليونان، بل كانت القبيلة هي الوحدة الأساسية؛ كثقيف في الطائف، وقريش في مكة، والأوس والخزرج في يثرب. وقد جرى عُرف العرب بالانتساب للقبائل لا إلى المدن. أما مفهوم الأمة عندهم فإنها لم تكن تتميز عن الأسرة إلا بأنها أكبر حجمًا وأكثر عددًا؛ إذ تقوم وحدة الجماعة في الأسرة والقبيلة والأمة بتقديس (اللُّحمة والدم). وقد وُجِدَ نظامٌ حضريٌّ تامٌّ في أقسام شبه الجزيرة العربية؛ إذ قامت في اليمن ممالك الجنوب، وقامت مملكة الحيرة في الشمال الشرقي، وغسان في الشمال الغربي. لكن القبيلة كانت وحدة النظام السياسي والاجتماعي في هذه الممالك، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعبٍ واحدٍ؛ ولكن ظلَّت القبائل وحداتٍ مستقلةً قائمةً متمسكةً بكيانها^(٢). والقبيلة "هي

١ - أمين مدني: التاريخ العربي وبدايته، جدة، دار تهامة، د.ط، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص ٢٥٣.

٢ - أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، القاهرة، دار الفكر

مجموعة من العشائر والمجموعات النسبية أو النجوع والقرى... يسودها نظامٌ اجتماعيٌّ وثيقٌ يربط أفرادها بعضهم ببعض... وهو تضامنٌ لا شعوريٌّ تمليه رابطة القرابة والدم"^(١).

ويرى جواد علي أن المجتمع العربي قبل الإسلام: بدوٌ وحضر، أهل وبر وأهل مدر، يتساوى ذلك عرب العراق وعرب بلاد الشام وعرب جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية. وفي كل مجتمع من هذين المجتمعين تكوّن نظامٌ من أنظمة الحكم يتناسب مع المحيط؛ لأنه نبات ذلك المحيط، وحاصله، وما ينبت في مكانٍ ينبت وقد اكتسب خصائص التربة وخصائص الجو، وما يحيط بالنبات من مؤثراتٍ طبيعيةٍ أو بشريةٍ. ومن هنا صارت «الرئاسة» قاعدة الحكم عند أهل الوب، و«الملكية» و«رئاسة المدن والقرى»، أداة الحكم عند أهل المدر^(٢).

ومنطقة الشرق الأدنى والأوسط على حالها الآن كما كان منذ قديم الزمان؛ فقد لعب المال دورًا خطيرًا في ظهور الملوك، وفي تكوين الحكومات الملكية الكبيرة، وقد عملت هذه الملكيات الكبيرة في

العربي، د.ط، ١٩٦٥م، ص ٢٣-٢٤.

١- إبراهيم مذكور وآخرون: معجم العلوم الاجتماعية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، ١٩٥٧م، ص ٤٦٥-٤٦٦.

٢- جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ١٨٥-١٨٦.

الأراضي الغنية على توسيع رقتها، وطمعت في غيرها، فابتلعتها، وقوّت نفسها بخيراتهما، وعبّأت كل قواها لخدمتها، وأخذت تكتمح غيرها وتتوسّع، وكوّنت الممالك الكبيرة. وقد سمح ملوك الحكومات الكبيرة للملوك الملكيات الصغرى الاحتفاظ بلقب ملك، على أن يكون ذلك مقروناً باعتراف أولئك الملوك بحمايتهم، وبوجوب عدم الخروج على طاعتهم، وبلزوم الاشتراك معهم في الحروب إن طُلبَ منهم الاشتراك فيها، وبدفع جزية مُرضية لهم، مثل الملكيات في العراق والشام واليمن والخليج واليماة. وعندئذٍ لم تتمكن الحكومات الصغيرة الغنية التي عاشت على الزراعة والتجارة من العيش بسلام وأمن؛ إذ طمعت الدول القوية فيها، فأرسلت إليها مَنْ يخيّرهما بين الاستسلام والطاعة أو الهلاك والدمار. من ذلك تهديد فارس لحكومات العراق ومدن الخليج، وتهديد اليونان والرومان لحكومات الأنباط واليمن، لضمّ أصدقاء أغنياء إلى الامبراطورية الرومانية.

أما البوادي والأراضي المقفرة الفقيرة قليلة الماء، فلا يمكن أن تنشأ بها ممالك كبيرة؛ لعدم توفّر مستلزمات المعيشة والتجمّع الكبير فيها، لهذا صارت حكوماتها حكومات (رئاسات)، رئاسة قبيلة أو أحلاف. وقد يجلو للرئيس أن يختار لنفسه لقب ملك، وهو لقبٌ لا يعني في الواقع العملي أكثر من سيد قبيلة. وحكومات قلب شبه الجزيرة العربية

هي من هذا النوع غالباً؛ فهي رئاساتٌ تبدأ من درجة رئاسة بيتٍ، وتنتهي برئاسة قبيلة أو تحالف مكوّن من عدّة قبائل.

وقد كان نظام العرب الاجتماعي قبل الإسلام يقوم على أساس القبيلة وأجزائها. وكان هناك تنوّعٌ كبيرٌ في العادات والأعراف عند العرب، لكن يمكن القول: إنه كان في شبه الجزيرة العربية نظام أساسه السياسي والاجتماعي القبيلة⁽¹⁾.

ومن المعروف أن القبيلة هي كيانٌ سياسيٌ واجتماعيٌ يرتبط أفرادها برباط النسب المشترك، فضلاً عن أنها تضمُّ أفراداً ينتسبون إليها بالولاء والاستلحاق والجوار. لذا فقد انتظم أفراد المجتمع العربي قبل الإسلام في عددٍ من القبائل، حتى الممالك التي ظهرت في شمال شبه الجزيرة العربية ووسطها وجنوبها هي في الأصل قبائل سمحت لها الظروف السياسية والاقتصادية أن ترتقي في نظامها إلى ممالك. ولا بد لهذه القبائل من زعاماتٍ يتمُّ اختيارهم وفق شروط وإمكانات لا يمتلكها إلا النخبة من أفراد القبائل؛ فضلاً عن شرط الوراثة الذي ناقشناه وشرف الأصل، لكنها مقيّدةٌ بضوابط المؤهلات القيادية من كرمٍ وعفّةٍ وحكمةٍ وحلمٍ.. وغير ذلك. وقد ضمّن طرفه بن العبد البكريُّ بعضاً

1 - W. Robertson Smith, *Kinship and Marriage in Early Arabia*, Cambridge, MA, Cambridge University Press, 1885, P. 2.

من هذه الصفات، مبرزاً شرف الأصل والمجد والكرم والشجاعة العالية التي تعلق درجاتها بما يطلق عليها «البَّهْم» في قوله:

وتفرَّعنا من ابني وائلٍ هامة المجدِ وخرطومَ الكرمِ
من بني بكرٍ إذا ما نُسِبُوا وبني تغلبِ صرَّابي البهْم^(١)

وتشكّل القبيلة مدخلاً مهماً في كشف البناء الاجتماعي للعرب قبل الإسلام، فقد أدّت دوراً خطيراً في التعبير عن تطلّعات الحياة الاجتماعية؛ حيث كانت مدار حياتهم، والبُعد الأعمق في وجدانهم؛ باعتبارها الوطن الراحل معهم أبداً، الذي يقيهم من الذوبان في هذا المدى الصحراوي، ويؤسّس لهم شرعية أخلاقية وثقافية ضمن شروط البيئة والتاريخ. ومثّلت القبيلة خياراً حقيقياً لذلك العربي القديم، الذي وجد نفسه في عالمٍ مستغلِقٍ بسبب معطيات الجذب والحرب، وما نتج عنها من مؤسسة للقوة التي حاولت فرض معاييرها كمرجعية جوهرية يقوم عليها البناء الاجتماعي في المجتمع العربي القبلي قبل الإسلام.

١ - ديوان طرفة بن العبد، ص ١٠٦؛ الأزهري: تهذيب اللغة، ج ٢، ص ٣٥٦؛ الزمخشري: أساس البلاغة، ج ٢، ص ١٩؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١١، ص ٣٤٠.

وكان للتحدّي البيئي والتاريخي دورٌ حاسمٌ في خيار العرب قبل الإسلام على مستوى البناء الاجتماعي، حيث معطيات الجذب والقنط ونُدرة المياه، جعله يتخذ صورةً واحدةً تقوم على النظام القبلي؛ فالرابطة القبلية هي الهوية والإستراتيجية التي ستأخذ الدور الحاسم في تشكيل الوعي العربي قبل الإسلام. وتجسّدت هذه الرابطة بالعصبية التي تُعتبر قوام الحياة، وتعني وحدة القبيلة باعتبارها كلاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وهي المرجعية والشرعية الأخلاقية؛ إذ أن الحق والخير، هما حقُّ القبيلة وخيرها. وهذه البنية الاجتماعية لم تنشأ في فراغ؛ وإنما صنعتها البيئة الصحراوية التي لا تتسع للتجمّعات الكبيرة، بل تتخذ وحدات اجتماعية تناسب إمكانات البيئة. وهذه التنظيمات ينبغي أن تكون قادرة على التماسك والحركة في آنٍ معاً. ومن هنا كانت القبيلة هي الوحدة الأساسية في البناء الاجتماعي للعرب قبل الإسلام، وهي وحدةٌ سياسيةٌ. وقد تدعو الظروف الطبيعية مثل الجفاف، أو الظروف البشرية الاستثنائية كالحرب إلى تكوين تحالفاتٍ أكبر، وقد تتجزأ القبيلة ذاتها، لكن شبه الجزيرة العربية ظلّت محافظةً على هذه الوحدات القبلية^(١).

١- عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية - دراسة في الهوية والوعي، القاهرة، دار المستقبل العربي، ط٢، ١٩٨٥م، ص٢١.

والقبيلة في البادية دولة صغيرة، أو تنطبق عليها مقومات الدولة، وكان ضيق أسباب الحياة في الصحراء حافزاً لهذه القبائل المتبدية للتنقل والتحرك، كما كان السبب في العصبية التي أملتتها الظروف المحيطة بهم. فتمكّنت بفعل العصبية أن تدافع عن كيائها والتغلب على غيرها؛ لتضمن لنفسها مورد حياة. ولذلك كانت حياة القبائل المتبدية في صراع دائم، وكأنهم يؤمنون بقانون الغاب "الحق مع جانب القوة"^(١). كل ذلك لينالوا من دنياهم الضروريات التي تحفظ حياتهم وكيانهم. أما إذا حدث أن وجد قومٌ كل الضروريات فإنهم قد خطوا نحو الاستقرار والسعي نحو الكماليات؛ وهذا ما يميّز أهل الحضرة عن غيرهم من سكان البوادي^(٢).

وقد اكتظت بلاد العرب قبل الإسلام بالوحدات السياسية التي عُرفت بالقبائل، التي التصق ضمنها الأفراد، حيث لم تعرف بلاد العرب نظام الدولة السياسي، وخلت كذلك من التوافق في اللغة والجنس قبل مجيء الإسلام^(٣). والقبيلة هي عماد الحياة في البادية، بها

١- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٢١٤؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في عصر الجاهلية، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، د. ط، د. ت، ص ٤١٢.

٢- ابن خلدون: المقدمة، ج ١، ص ١٧٢.

٣- علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام - الجاهلية، الدولة العربية، الدولة

يحتمي العربيُّ في الدفاع عن نفسه وماله، حيث لا شرطة في البوادي تؤدّب المعتدين، ولا سجون يُسجَن فيها الخارجون على نظام المجتمع، وكل ما هناك عصبية تأخذ بالحق وأعرافٌ يجب أن تُطاع. والرابط الذي يشمل القبيلة ويجمع شتاتها هو النسب. ويفسر ذلك بارتباط أبناء القبيلة بنسبٍ واحدٍ وبصلبٍ جدِّ أعلى من صلبه انحدر أفراد القبيلة في اعتقادهم، ولهذا نجد أهل الأنساب يُرجعون نسب كل قبيلةٍ إلى جدِّ أعلى، ثم يُرجعون أنساب الجدود، أي أجداد القبائل إلى أجدادٍ أقدم، وهكذا، حتى يصلوا إلى الجدين للعرب: عدنان وقحطان^(١).

وتتألف القبيلة من بيوتٍ، يختلف عددها باختلاف حجم القبيلة، وباختلاف المواسم؛ ففي مواسم الربيع تضطر أحياء القبيلة على الانتشار والابتعاد لتمكّن إبلها من الرعي. فتتجمّع على شكل مستوطنات يتراوح عدد بيوت كل مستوطنة ما بين الخمسين والمائة والخمسين بيتًا. أما في المواسم الأخرى، حيث تنحبس الأمطار وتجفُّ الأرض، فتعود أحياء القبيلة إلى تكتّلها وتجمّعها، فتكون كل مجموعةٍ حوالي خمسمائة بيت أو أكثر؛ تتجمّع للتعاون فيما بينها، وحذر وقوع غزوٍ عليها^(٢).

العباسية، القاهرة، مطبعة المعرفة، د.ط، د.ت، ص ٣٣-٣٥.

١ - جواد علي: المرجع السابق، ج ٤، ص ٣١٣.

2 - W. Caskel, Die Bedeutung der Beduinen in der Geschichte der

والقبيلة في عُرف علماء اللغة جماعة من أبٍ واحدٍ، والقبائل في نظرهم من قبائل الرأس لاجتماعها، أو من قبائل الشجرة وهي أغصانها^(١)، فهي إذن جماعة من الناس تضمُّ طوائف أصغر منها، وهي تنتمي كلها إلى أصلٍ واحدٍ، ولها نسبٌ مشتركٌ يتصل بأبٍ واحدٍ، وهو أبعد الآباء والجدُّ الأكبر للقبيلة. فالرابط الذي يربط أبناء القبيلة ويجمع شملها ويوحّد بين أفرادها هو الدم، أي النسب. والنسب عندهم هو القومية ورمز المجتمع السياسي في البادية. والقبيلة هي الحكومة التي يفقهها العربي الحضري والبدوي؛ حيث لا يشاهد حكومة أخرى فوقها. وما تقرّره حكومته من قراراتٍ يُطاع ويُنفَّذ، وبها يستطيع أن يأخذ حقه من المعتدي.

وهذه النظرة الخاصة بتعريف القبيلة هي التي حملت أهل الأنساب والأخباريين على إطلاق لفظة القبيلة على الحضرة أيضًا، مع أنهم استقرّوا وأقاموا في بيوتٍ ثابتةٍ؛ فقريش عندهم قبيلة، والأوس قبيلة، والحزرج قبيلة، وثقيف قبيلة. ذلك لأن هؤلاء الناس وإن تحصّروا واستقرّوا وأقاموا وتركوا حياة الأعراب، إلا أنهم ظلُّوا رغم ذلك على

Araber, Westdeutscher Verlag, Koln und Opladen, 1952, P. 8.

١- ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، ج٦، ص٤٣٠؛ ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٥٤١؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج٨، ص٧٢.

مذهب أهل الوبر ودينهم في التمسك بالانتساب إلى جدِّ أعلى وإلى أحياءٍ وبطونٍ، وفي إجابة النخوة والعصبية، وما شابه ذلك من سجايا البداوة، فعُدُّوا في القبائل، وإن صاروا حضراً وأهل قرارٍ، وتركوا التنقل وانتجاع الكلاء^(١).

وعلى كل حالٍ، يُفهم من لفظة القبيلة - في الغالب - القبائل التي تتألف من عمائر وما وراء العمائر من أقسام. فإذا ذُكرت القبيلة انصرف الذهن إلى آلاف البيوت تجتمع تحت اسم تلك القبيلة، ولكن الناس يتجوَّزون في الكلام وفي الكتابة فيطلقونها أحياناً على عددٍ قليلٍ من الناس قد يبلغ ثلاثة نفرٍ أو أربعة، مثل: بنو عبد الله بن أفصى بن جديلة، وبنو جَسَّاس بن عمرو بن حُوَيَّة بن لوزان، من بني فزارة. وبنو كليب بن عدي بن جناب بن هبل، وبنو شقرة، من بني تميم. وقد يطلقونها على أكثر من ذلك، ولكن على عددٍ قليلٍ من الناس أيضاً؛ كأن يكون خمسين رجلاً أو ستين^(٢). وهذا الاستعمال هو على سبيل التجوُّز لا الاصطلاح.

١ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٣١٤.

٢ - ابن حبيب (أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو البغدادي): المحبر، رواية: أبي سعيد السكري، تحقيق: إيلزة ليخن شتير، بيروت، دار الأفاق الجديدة، د. ط، د. ت، ص ٢٥٦.

ويرى علماء العربية أن هناك تجمُّعاتٍ هي - في نظرهم - أكبر حجماً من القبيلة أطلقوا عليها الشعب، فقالوا أن الشعب فوق القبيلة؛ ومثاله: بنو قحطان وبنو عدنان، فكلاهما شعب وما دونها قبائل. وذهب بعضهم إلى أن الشعب للعجم؛ فإن الشعوب بالنسبة للعجم مثل القبائل للعرب، ومنه قيل للذي يتعصَّب للعجم: شعوي، وقيل: بل هي للعرب وللعجم. والذي عليه أكثر النَّسَّابون أن الشعب أكبر من القبيلة، وأن الشعب أبو القبائل الذي ينتسبون إليه، أي يجمعهم ويضمهم^(١).

ويظهر أن مرَدَّ هذا الاختلاف هو ما جاء في القرآن: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(٢)، فقدَّم الشعوب على القبائل. فذهب أكثرُ المفسِّرين إلى أن هذا التقديم يعني أن الشعب أكبر من القبيلة، وأن الشعوب الجَماع والقبائل البطون، أو الشعوب الجمهور والقبائل الأفخاذ، أو الشعوب النسب البعيد والقبائل دون ذلك، كقوله: فلان من بني فلان. وتأوَّل آخرون هذا المعنى، فذهبوا إلى أن هذا التقديم أو التأخير لا علاقة له بحجم الشعب أو القبيلة، والآية لا تريد ذلك، وإنما

١- الخوارزمي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف البلخي): مفاتيح العلوم، تحقيق: إبراهيم الإيباري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص ٧٤؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١، ص ٣١٨.

٢- سورة الحجرات: آية: ١٣.

تريد الأنساب، وإنما نزلت في بيان أن الإنسان لا ينسبه وإنما بعمله. وعلى هذا، فإن الشعب في نظرهم دون القبيلة في الترتيب، والشعب بعد القبيلة في الدرجة^(١).

وقد أخذ العلماء بالتأويل الأول للفظة الشعب، حتى صار هذا المعنى هو المفهوم منها عند الناس؛ فهي إنما تعني جنسًا من أجناس البشر له خصائصه ومميّزاته الخاصة، كالشعب اليوناني والشعب التركي والشعب الأمريكي وهكذا. أو جزءًا كبيرًا مستقلًا من أجزاء أُمَّة واحدة؛ كأن نقول: الشعب المصري والشعب السوري والشعب العراقي، أي وحدة جغرافية سياسية ذات كيان.

١ - مجاهد (أبو الحجاج مجاهد بن جبر): التفسير، تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل، القاهرة، دار الفكر الإسلامي، ط١، ١٠/١٤١٠هـ / ١٩٨٩م، ص٦١٢؛ الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير): جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٦ج)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة، دار هجر، ط١، ١/٢٠٠١م، ج٢١، ص٣٨٤-٣٨٦؛ القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الحزرجي): الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان (٢٤ج)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١/١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ج١٩، ص٤١٤-٤١٦؛ السيوطي (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الحضيري): الدر المنثور في التفسير بالمأثور (١٧ج)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط١، ١/١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ج١٣، ص٥٩٣-٥٩٤.

ولفظة الشعب من الألفاظ الواردة في نصوص المسند. وقد وَرَدَتْ فيها بمعنى قبيلة، وتُكْتَب «شعبين»، بمعنى الشعب. وحرف النون في أواخر الأسماء أداةٌ للتعريف في اللغات العربية الجنوبية، فهي إذن مرادف للقبيلة بالضبط. والجمع أشعب، أي شعوب. وَرَدَ: «سبا واشعبهم»، أي سبا وشعوبهم، أو سبا وقبائلهم، بتعبير أدق. وَوَرَدَ «شعبين معن» أي قبيلة معين، و«شعبين همدان» أي قبيلة همدان. ويبدو أن أهل مكة وقفوا أيضًا على هذه اللفظة فاستخدموها في الجاهلية، وأن قبائل حجازية مجاورة لمكة كانت تستعمل لفظة «شعب» و«الشعب» بمعنى القبيلة. ونظرًا لورودها معًا في القرآن، فَرَّقَ العلماء بين اللفظتين، باعتبار أن ذكرهما معًا يعني وجود بعض الاختلاف في المراد منهما، فوقع من هنا بين المسلمين هذا التمييز والاختلاف، وصارت لفظة الشعب تدل على معنى يُخْتَلَفُ عن معنى كلمة «قبيلة» و«القبيلة»^(١).

ويُلبى الشعب في اصطلاح أهل النسب: القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة. فالشعب النسب الأبعد مثل: عدنان وقحطان، سُمِّيَ شعبًا لأن القبائل تشعبت منه. ثم القبيلة وهي ما انقسمت فيها

١- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٣١٧-٣١٨.

أنساب الشعب مثل: ربيعة ومضر، ثم العمارة وهي ما انقسمت فيها أنساب القبائل مثل: قريش وكنانة، ثم البطن وهو ما انقسمت فيه أنساب العمارة مثل: بني عبد مناف وبني مخزوم، ثم الفصيصة وهي ما انقسم فيه أنساب القبيلة مثل بني هاشم وبني أمية، ثم الفصيصة وهي ما انقسم فيه أنساب الفخذ مثل: بني عبد المطلب وبني العباس^(١). وجعل ابن الكلبي مرتبة بين الفخذ والفصيصة هي مرتبة العشيرة، وهي الرهط^(٢). ووَرَدَ أن البطن دون القبيلة أو دون الفخذ وفوق العمارة وذكر بعضهم أن أول العشيرة: الشعب ثم القبيلة ثم الفصيصة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ^(٣)، وذلك على رأي من جعل العشيرة: العامة، مثل: بني تميم وبني عمرو بن تميم. أي الجماعة العظيمة^(٤).

١- الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٨٣؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١٤، ص ٥٧، ج ١٦، ص ١٩٩؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٩، ص ١٤١.
 ٢- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٣، ص ٢٨٣؛ المقرئ (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر): الرسائل، تحقيق: رمضان بدري وأحمد مصطفى قاسم، القاهرة، دار الحديث، ط ١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ص ٦٥؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢، ص ٢٦٢.

٣- القلقشندي (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي الفزاري): نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠١٢م، ص ٢١؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٤١؛ الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج ٣، ص ١٨٩.

٤- المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٠٣.

وزاد بعض العلماء الجذم قبل الشعب، وبعد الفصيصة العشييرة، ومنهم من زاد بعد العشييرة الأسرة، ثم العترة^(١). وربَّها آخرون هكذا: جذم ثم جمهور ثم شعب ثم قبيلة ثم عمارة ثم بطن ثم فخذ ثم عشيرة ثم فصيصة ثم رهط ثم أسرة ثم عترة ثم ذرية. وزاد بعضهم في أثنائها ثلاثة هي: بيت وحي وجماع^(٢). وذكر بعض العلماء أن الجذم: الأصل في كل شيء، فيقال: جذم القوم أهله وعشيرته^(٣)، ومنه حديث حاطب بن أبي بلتعة: «لم يكن رجل من قريش إلا وله جذم بمكة»^(٤).

وذكر بعض العلماء أن العمارة هي الحيُّ العظيم الذي يقوم بنفسه، ينفرد بظعنها وإقامتها ونجعتها^(٥)، وأن الفرق بين الحيِّ والقبيلة هو أن الحيَّ لا يقال فيه: بنو فلان؛ نحو قريش وثقيف ومعدَّ وجذام، والقبائل

١- القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص ٢١.

٢- الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص ٧٤؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١٨، ص ٢٣٥؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٣، ص ٢٦٣؛ الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج ٣، ص ١٨٩.

٣- مجد الدين ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج ١، ص ٢٤٥؛ ابن منظور: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٨٨؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٨، ص ٢٢٢.

٤- أحمد بن حنبل: المسند، ج ١٢، ص ٢٤٤؛ ابن حجر الهيتمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ٩، ص ٣٠٣.

٥- المفضل الضبي (أبو العباس المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الكوفي): المفضليات، تحقيق: عمر فاروق الطباع، بيروت، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٨م، ص ٤١٤؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٥.

يُقال فيها: بنو فلان؛ مثل بني نُعيم وبني سلول^(١). وقيل: العمارة أصغر من القبيلة، وفي الحديث أن النبي ﷺ «كتب لعماير كلب وأحلافها كتاباً»^(٢)، قال الأحنس بن شهاب التغلبي:

لكل أناسٍ من معدِّ عمارةٍ عروُضٌ، إليها يلجأون، وجانبٌ^(٣)،
وقسم النويري النظام القبلي عند العرب إلى عشر طبقات^(٤)،
وابتداً بالجذم وهو الأصل: وهو قحطان وعدنان، وهو الطبقة الأولى.
ثم الطبقة الثانية وهي الجماهير، ثم الطبقة الثالثة: الشعوب، ثم الطبقة
الرابعة: القبيلة، وهي التي دون الشعب وتجمع العماير، ثم الطبقة
الخامسة: العماير، وهي التي دون القبائل وتجمع البطون، ثم الطبقة
السادسة: البطون، وهي التي تجمع الأفخاذ، ثم الطبقة السابعة:
الأفخاذ، وهي أصغر من البطن، والفخذ تجمع العشائر. والطبقة

١- الخوارزمي: المصدر نفسه.

٢- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٨٦-٢٨٧، ٣٣٤-٣٣٥؛ ابن عبد ربه: العقد
الفريد، ج ١، ص ١٩٤؛ الآبي (أبو سعد منصور بن الحسين الرازي): من نثر الدر (٤ ج)،
تحقيق: مظهر الحجري، دمشق، منشورات وزارة الثقافة السورية، د. ط، ١٩٩٧ م، ج ١،
ص ١٥٢؛ مجد الدين ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٩٩؛ ابن منظور: المصدر
السابق، ج ٤، ص ٦٠٦.

٣- الفضل الضبي: المصدر السابق، ص ٢٠٤؛ ابن دريد: جمهرة اللغة، ج ٢، ص ٩٣؛
الأزهري: تهذيب اللغة، ج ١، ص ٤٦٥؛ ابن سيده: المخصص، ج ١٢، ص ٥٨؛ ابن منظور:
المصدر نفسه.

٤- نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢، ص ٢٧٧.

الثامنة: العشيرة، وهُم الذين يتعاقلون إلى أربعة آباء. ثم الطبقة التاسعة: الفصيلة، وهُم أهل بيت الرجل وخاصته. ثم الطبقة العاشرة: الرهط، وهُم الرجل نفسه وأسرته^(١).

وأصغر وحدة من وحدات القبيلة هي الأسرة، أي بيت الرجل. فهي نواة القبيلة وبذرتها وجرثومتها، ومن نموها ظهرت شجرة القبيلة التي يختلف حجمها وتختلف كثرة فروعها وأغصانها باختلاف منبت الشجرة والعوامل والظروف التي أثرت في تكوينها. والبيت هو نواة القبيلة عند العرب، وهو نواة القبيلة عند كل الشعوب القبلية، بل هو نواة المجتمع في كل مجتمع إنساني.

وإن ما ذكرته يمثل مجمل آراء علماء النسب عند العرب في موضوع كيان القبيلة وفروعها التي تتفرع منها درجة درجة، حتى تصل إلى البيت الذي يتكوّن من الأب والأم وأولادهما. وقد رأينا كيف اختلفوا فيما بينهم وتباينت آراؤهم في الترتيب وفي العدد؛ منهم من يقدّم، ومنهم من يؤخّر، ومنهم من يزيد، ومنهم من ينقص. وإن اختلافهم هذا يُشعرنا أن هذا التقسيم المذكور لم يكن تقسيماً ثابتاً عند كل القبائل، وأنه لم يكن تقسيماً جاهلياً، بل كان تقسيماً محلياً اختلف بين قبيلة وأخرى، وأن أسماء أجزاء القبيلة لم تكن أسماءً عامة متبعة عند

١ - النوبري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٤.

الجميع، أي أسماء مقررّة عند كل قبيلة، بل هي أسماء أخذها العلماء من هنا وهناك، ولهذا وقع الاختلاف بينهم، ولو كان عند العرب الجاهليين تقسيمٌ واحدٌ لأجزاء القبيلة فما كان من المعقول أن يقع علماء النسب واللغة فيما رأينا من تباين واختلاف، ووجب اتفاقهم في الترتيب والعدد. فالتقاسيم المذكورة إذن هي من وضع علماء اللغة والنسب والأخبار في الإسلام.

والقبائل مثل الدول أنماطٌ ودرجاتٌ؛ منها قبائل قوية نشطة تعتمد على نفسها في الدفاع عن كيانها، ومنها قبائل أقل من هذه القبائل شأنًا وقوة وتتحالف مع غيرها في الدفاع عن نفسها، لتكوّن من الحلف كتلة قبلية مهابة. وقبائل صغيرة ليست لها قدرة على الدفاع عن حياضها وحدها، لذلك تركز إلى التحالف مع قبائل أخرى أقوى منها لتحافظ بذلك على وجودها. والقبائل القوية هي القبائل الكثيرة العدد والموارد، وإذا ترأسها ساداتٌ ذوو كفاءة وقدرة هابتها القبائل الأخرى وسادت على غيرها، وكونت منها ومن القبائل التي تستولي عليها مملكة، كالذي فعلته كندة. ولم يورد العلماء شروطاً في الحد الأدنى أو الحد الأكبر للقبيلة، وذلك من ناحية عدد العشائر والبطون والأفخاذ، فلم نعثر على حدٍّ معيّنٍ إذا بلغته جماعةٌ من الناس وجب إطلاق لفظ قبيلة عليها. بل

نجد النَّسَّابون يطلقونها أحياناً على بطونٍ وأفخاذٍ، فيقولون: قبائل قريش، ويذكرون أسماءها، بينها هي في الواقع (آل) أو أرهاط وبتون. ويقال للقبائل التي تستقل بنفسها وتستغني عن غيرها أرحى وجمعها أرحاء^(١)، وكانت أرحاءُ العربِ سِتُّ قبائل: بمُصَّر منها اثنتان ولربيعة اثنتان ولليمن اثنتان، واللتان في مُصَّر: بنو تيم بن مُرَّة، وبنو أسد بن خزيمه، واللتان في اليمن: بنو كلب بن وبره، وبنو طيء بن أدد، واللتان في ربيعة: بنو بكر بن وائل، وبنو عبد القيس بن أفصى. وإنما سُمِّيت هذه أرحاء؛ لأنها أحرزت دوراً ومياهًا لم يكن للعرب مثلها، ولم تبرح من أوطانها، ودارت في دورها كالأرحاء على أقطابها، إلا أن ينتجع بعضها في البرحاء وعام الجذب، وكان ذلك منهم قليل^(٢).

وعُرفت القبيلة التي لا تنضم إلى أحد بـ«الجمرة»، ذُكِرَ أنها القبيلة تقاتل جماعة قبائل. وكل قبيلٍ انضمُّوا فصاروا يداً واحدةً ولم يحالفوا

١- الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد): تاج اللغة وصحاح العربية (٧ج)، تحقيق: إميل بديع يعقوب ومحمد نبيل الطريفي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٩م، ج ٦، ص ٣٠٩؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١٤، ص ٣١٤؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١٠، ص ١٤٦.

٢- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٣، ص ٢٨٩؛ سبط ابن الجوزي (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزألي بن عبد الله): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان (٢٢ج)، تحقيق: كامل سليمان الجبوري وآخرون، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠١٣م، ج ٢، ص ٢٩٠.

غيرهم، فهُم جَمْرَةٌ. وقيل: الجَمْرَةُ: كل قوم يصبرون لقتال مَنْ قاتلهم لا يحالفون أحدًا ولا ينضمُّون إلى أحدٍ. تكون القبيلة نفسها جَمْرَةً تصبر لقراع القبائل كما صبرت عبس لقبائل قيس. ولما سأل عمر بن الخطاب الحطيئة عن عبس ومقاومتها قبائل قيس، قال: "يا أمير المؤمنين كنا ألف فارس كأننا ذهبٌ حمراءٌ، لا نَسْتَجْمِر ولا نُحالف"، أي لا نسأل غيرنا أن يجتمعوا إلينا لاستغنائهم عنهم. والجَمْرَةُ: اجتماع القبيلة الواحدة على مَنْ ناوأها من سائر القبائل^(١). وذُكِرَ أن الجَمْرَةَ تكون من ألف فارس، أي القبيلة التي يكون فيها ذلك العدد من الفرسان؛ وقيل: بل ثلاثمائة فارس أو نحوها^(٢).

١- ابن عبد ربه: المصدر السابق، ج٣، ص٢٩١؛ الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل): ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت - صيدا، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ص١٦٠؛ ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ص١٩٨؛ الحصري القيرواني (أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم): زهر الآداب وثمر الألباب (٤ج)، تحقيق: زكي مبارك ومحمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الجيل، ط٤، د.ت، ج١، ص٢٥؛ مجد الدين ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج١، ص٢٩٣؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج٦، ص٢٠٨.

٢- ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص١٤٥؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج٦، ص٢٠٩؛ عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج١، ص٩٠.

أما عن جمرات العرب فقد ذكر بعض العلماء أنهم: بنو ضَبَّة بن أد، وبنو عبس بن بغيض، وبنو الحارث بن كعب، وبنو يربوع بن حنظلة^(١). وذكر آخرون أنها: بنو نُمير بن عامر بن صعصعة، وبنو عبس بن بغيض، وبنو ضَبَّة بن أد، وبنو الحارث بن كعب^(٢). وذكر بعض العلماء أن جمرات العرب ثلاث هُنَّ: بنو ضَبَّة بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر، وبنو الحارث بن كعب، وبنو نُمير بن عامر. فَطِفَّتْ منهم جمرتان؛ طُفِّتْ ضَبَّةٌ لأنها حالفت الرباب، وطُفِّتْ بنو الحارث لأنها حالفت مَذْحِجَ، وبقيت نُمير لم تُطْفَأْ لأنها لم تحالف^(٣). وَوَرَدَ أن الجمرات: عبس بن ذبيان بن بغيض، والحارث بن كعب، وضَبَّة بن أد، وهُم إخوة لأُم؛ أمهم الخشناء بنت برة من اليمن، تزوجها كعب بن عبد المدان بن يزيد بن قَطَن، فولدت له الحارث بن كعب، وهُم أشرف

١- ابن حبيب: المحبر، ص ٢٣٤؛ الثعالبي: المصدر نفسه؛ ابن رشيق القيرواني: المصدر السابق، ص ١٩٧.

٢- المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي النخعي البصري): الكامل في اللغة والأدب (٤ج)، تحقيق: محمد أحمد الدالي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٤، ٢٠٠٤م، ج ٢، ص ٢٣٣؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٣، ص ٢٩١.

٣- أبو عبيدة (معمر بن المنثى التيمي البصري): الديباج، تحقيق: عبد الله بن سليمان الجربوع وعبد الرحمن بن سليمان العثيمين، القاهرة، مطبعة المدني، ط ١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٧٧؛ ابن حبيب: المحبر، ص ٢٣٤؛ الحصري القيرواني: زهر الآداب وثمر الألباب، ج ١، ص ٢٥؛ عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ١، ص ٧٤.

اليمن. ثم تزوّجها بغيض بن ريث بن غطفان، فولدت له عبساً، وهُم فرسان العرب. ثم تزوّجها أد، فولدت له صَبَّة. فجمرتان في مُضر وهما: عبس وصبّة، وجمرة في اليمن وهُم: بنو الحارث بن كعب^(١). وذكر آخرون أن بني الحارث بن كعب، هُم بنو كعب بن عِلَّة بن جَلَد. ومنهم مَنْ عدَّ بني تميمٍ من الجمرات^(٢).

وإذا تأمّلت كلام العلماء هذا في جمرات العرب، تجده يصادم بعضه بعضاً حتى أن الواحد منهم يذكر عدداً، ثم يذكر عدداً غيره في موضعٍ آخر من كتابه. وقد اعتذر بعض العلماء إذ قال: "قلت: فإذا تأمّلت كلامهم تجده مصادماً بعضه مع بعض"، ثم ذكر أمثلة هذا التصادم، ثم خُلصَ إلى هذه النتيجة، واعتذر عنهم بقوله: "وإذا تأمّلت كلامهم علمت أنه لا مخالفة ولا منافاة؛ إلا أن البعض فصّل والبعض أجمل"^(٣). وعندني أن للعواطف القبلية دخلٌ في هذا الاضطراب؛ فبعض النسّابين مَنْ تعصّب لقبيلةٍ فجعلها من الجمرات بسبب صلته بها، ومنهم مَنْ

١- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر، ص ١٩٨؛ القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص ٤٤؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٦، ص ٢٠٨.

٢- العوتبي (أبو المنذر سلمة بن مسلمة بن إبراهيم الصحاري): الأنساب (٢ج)، تحقيق: محمد إحسان النص، دمشق، وزارة التراث القومي والثقافة، ط ٤، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ج ١، ص ٢٤٢، ٥٣٤؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠٧.

٣- المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٣، ص ١٠٧.

تعصّب لغيرها، ومنهم من تعصّب على هذه القبيلة أو تلك فأخرجها من الجمرات، فمن هنا وقع الارتباك عند العلماء حين سألوا نسابي القبائل ورواة الأخبار عن أيام العرب في الجاهلية، وعن الأنساب والقبائل، وهي من أشدّ الأمور حساسية عند العرب، فظهرت العصبية في مؤلفات أهل النسب والأخبار حين شرعوا بالتدوين.

وعلى كل حال، عُرِفَت القبائل القوية التي تفرّعت منها عدة قبائل بـ«أم القبائل»، وسبب ذلك أن القبيلة القوية تكبر بسبب انضمام القبائل الصغيرة إليها، فإذا توسّعت وتضخّم عددها صار من الصعب عليها البقاء في منازلها، فتضطر عندئذٍ على التوسّع والانتشار في أراضٍ جديدة، وقد تغادر أحياناً منها منازلها لتجد لها منزلاً طيباً جديداً، فتبتعد بذلك عن القبيلة الكبيرة التي جمعت تلك الأحياء، فتكون بمثابة الأم للقبائل النازحة تربطها بها رابطة كالأبوة، التي تتحوّل إلى نسبٍ تحفظه ذاكرة أهل الأنساب. ومن هذه القبائل بنو بكر بن وائل^(١)، والقبائل التي عُرِفَت بالبأس والشدة قيل لها: «رضفات العرب»، وهي: شيبان وتغلب وبهراء وإياد^(٢).

١- ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص ٩٦.

٢- ابن حبيب: المحبر، ص ٢٣٤؛ ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم): جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، دار المعارف، ط ٥، د.ت، ص ٤٨٦؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٦، ص ١١٩.

وقيل للقبيلة التي تفرّعت منها قبائل وبطون واستقلّت بأسمائها دون الانتساب إليها، وصارت كأنها جسدٌ قائمٌ، وكل عضوٌ مكتفٍ باسمه معروفٌ بموضعه أطلق عليه لفظ «الجمجمة»^(١)، وذُكِرَ أن الجماجم: السادات والرؤساء، وقد دُعِيَت بجماجم لأنها بمنزلة جمجمة الرأس للإنسان^(٢)، أي أن هذه القبائل من القبائل الرئيسية عند الجاهليين. وقد اختلف المؤرخون حول الجماجم وعددها، فمنهم من قال أربعة وهُنَّ: بنو كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان من قضاة، وطيء بن أدد، وبنو حنظلة بن مالك بن زيد مناة من تميم، وبنو عامر بن صعصعة بن معاوية من هوازن^(٣). وقال بعضهم أن الأربعة المقصودات بالكثرة هُنَّ: "بنو شيبان بن ثعلبة، وبنو جشم بن بكر، وبنو عامر بن صعصعة من هوازن، وبنو حنظلة بن مالك من تميم. وقيل: جاء الإسلام وأربعة أحياء قد غلبوا الناس كثرة: شيبان بن ثعلبة، وجشم بن بكر، يعني: بنو بكر بن تغلب، وبنو عامر بن صعصعة، وبنو

١- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٣، ص ٣، ص ٢٨٩.

٢- ابن منظور: لسان العرب، ج ١٢، ص ١١٠؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٨، ص ٢٣٣.

٣- ابن حبيب: المحبر، ص ٢٣٤؛ ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، ص ٢٨٦.

حنظلة بن مالك، فلما جاء الإسلام طما حيَّان هما: بنو شيبان، وبنو عامر بن صعصعة، وخمد حيان هما: بنو جشم وبنو حنظلة^(١). يعنون في الجاهلية كانت القبائل الأربعة ستغلب العرب في كثرتها وقوتها فلما بُعث النبي ﷺ خمدت قوة جشم وحنظلة بينما زادت قوة وكثرة شيبان وعامر بن صعصعة. وأما القول الأشهر هو أنهم ثمانية: فائتان منها في اليمن، واثنان في ربيعة، وأربع في مُصَر. أما الأربع التي في مُصَر، فهما اثنان في قيس، واثنان في حِندَف، ففي قيس: غطفان وهوازن، وفي حِندَف: كنانة وتميم، والتي في ربيعة: بكر بن وائل وعبد القيس بن أفضى، والتي في اليمن، فَمَذْحَج وُقُضَاعَة^(٢). وزاد بعضهم واحدة، وقال أنهم ثلاثٌ في اليمن: مَذْحَج وُقُضَاعَة والأزد^(٣).

وبين القبائل مَنْ دعاها النَّسَّابون «أثافي العرب»، والظاهر أنها عُرِفَتْ بذلك لكثرة عددها؛ فالأثافية هي: العدد الكثير والجماعة من

١- أبو عبيدة: الديباج، ص ١١٤-١١٥.

٢- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٣، ص ٣، ص ٢٨٩-٢٩٠.

٣- أبو بكر الحازمي (زين الدين محمد بن موسى بن عثمان الهمداني): عجلة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب، تحقيق: عبد الله كنون، القاهرة، شئون المطابع الأميرية، ط ٢، ١٩٧٣م، ص ٥-٦.

الناس^(١)، وذكروا أنها: سُليم وهوازن ابنا منصور بن عكرمة، وغطفان، وأعصر ومحارب^(٢).

ومن مفاخر القبائل اعتزالها القبائل الأخرى وعدم مخالطتها قبيلة ثانية، وتفخر بذلك بحردّها أيضاً، فيقال: "حيّ حَرِيدٌ"، ومعناه: منفرد معتزل من جماعة القبيلة لا يخالطهم في ارتحاله وحلوله لعزته ومنعته؛ لأنه لا ينزل في قومٍ من ضعفٍ وذِلَّةٍ لما هو عليه من القوة والكثرة^(٣). وذكروا أن القبائل المختلفة التي لا تنتمي إلى بعضها برابطة دمٍ أو نسبٍ فيكون أمرهم واحداً يُعرفون بـ«الخليط»؛ وذلك لأنهم كانوا ينتجعون أيام الكلاء، فتجتمع منهم قبائل شتى في مكانٍ واحدٍ، فتقع بينهم ألفة ويكونون يداً واحدةً، فإذا افترقوا ورجوا إلى أوطانهم ساءهم ذلك وريعوا^(٤).

١- الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص ١٦١؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٣،

ص ٩١١؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٦، ص ٣٧.

٢- أبو عبيدة: الديباج، ص ١٢٠؛ ابن حبيب: المحبر، ص ٢٣٤؛ ابن حزم الأندلسي: جمهرة

أنساب العرب، ص ٤٨٦؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٣٣.

٣- وفي هذا المعنى قول جرير بن عطية التميمي البربوعي:

بني على سنن العدو بيوتنا لا نستجير ولا نحل حريدا

ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق: نعمان محمد أمين طه، القاهرة، دار المعارف،

ط ٣، ١٩٨٦م، ص ٣٤١؛ ابن سيده: المخصص، ج ٢، ص ١٨٤؛ ابن منظور: المصدر

السابق، ج ٣، ص ١٤٥؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٣٣.

٤- وفي هذا المعنى قول بشر بن أبي خازم الأسدي:

ولكل قبيلة أرض تعيش عليها وتنزل بها وتعتبرها ملكاً لها، وتنتشر بها بطونها وعشائرها، ولا تسمح لغريب النزول بها والمروء بها إلا بموافقتها وبرضاها. وقد اختص كل بطنٍ منها بناحيةٍ فانفرد بها واعتبرها أرضاً خاصة به.

وتكون الأرض التي تحلُّ القبيلة بها (منزلاً) لها، و(منازل) لأبنائها الذين ينزلون بها، يضربون فيها خيامهم، فتكون الأرض مضارب لها تستوطنها وتقيم فيها وتصير وطناً لها، أي دار إقامة ما دامت تقيم بها. لذلك يعبر عن الأرض التي تقيم بها القبيلة بـ«بيوت القبيلة» و«بيوت العشيرة» لأنها مضرب البيوت.

وتمتدُّ أرض القبيلة إلى المواضع التي تصل بيوتها إليها، فما يقع إلى الداخل فهو من مواطن القبيلة، وما وقع في خارج حدود نفوذ القبيلة خرج عن مواطنها. وتعيّن الحدود بالظواهر البارزة، كجبالٍ أو تلالٍ أو أوديةٍ أو رمالٍ وما شاكل ذلك. ونظراً لعدم تثبيت القبائل لحدودها على

الأظعن الخليط غداة ريعوا بشبوة فالمطيُّ بنا خُصوعُ
ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، قدم له وشرحه: مجيد طراد، بيروت، دار الكتاب العربي،
ط ١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، ص ٩٦؛ ابن منظور: المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٩٤؛ النويري:
نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ١٨، ص ٩؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٥،
ص ١٣٢.

الأرض برسم معالم بارزة لها، صارت الحدود سبباً من أسباب النزاع المستمر والقتال الدائم بين القبائل.

ولكل قبيلة حقٌّ في حماية أرضها، وإذا أراد غريبٌ اجتياز أرضها فلا بد من أن يكون في حماية إنسانٍ منها، وإذا كان المجتاز جماعةً، كقافلةٍ أو قبيلةٍ أو حيٍّ يريد الانتقال من أرضٍ إلى أخرى - ولا بد له من المرور بأرض هذه القبيلة للوصول إلى هدفه - فعليه أخذ إذنٍ من القبيلة يخوّله المرور بها وإلا تعرّض للمنع والقتال. لذا كان لا بد للتجار من ترضية سادات القبائل للسماح لهم بالمرور، بدفع حقّ المرور، وهي إتاواتٌ تعارفت القبائل آنذاك على أخذها من المارة^(١).

١ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٣٤٢-٣٤٣.

الفصل الثاني
سيادة القبيلة

تستند الحياة السياسية في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية على ظاهرة انقسام المجتمع إلى فئتين متمايزتين، هما الحكام المحكومين. ولا يشترط للقول بوجود هذا التمايز بين الحكام والمحكومين أن تكون هناك هيئات حكومية في المجتمع؛ لأن مثل هذه الهيئات لا تظهر إلا بعد تطوُّر طويل. أما في المرحلة الجينية من الحياة السياسية في المجتمع فتتجسّد السلطة في وجود شخصٍ يحظى باحترام أفراد المجتمع ويكون له عليهم حق الطاعة، وقد يكون هذا الشخص شيخاً أو رئيساً أو حاكماً^(١).

والحقيقة أن السلطة السياسية في العشيرة هي تطوُّرٌ للسلطة الأبوية التي يتمتّع بها ربُّ الأسرة على أفراد أسرته؛ لأن العشيرة هي مجموعةٌ من الأسر التي يتصل بعضها ببعضٍ بصلة النسب كما أوضحنا سابقاً. ومن ثمّ فإنّ رئيس العشيرة هو أحد أبرز رؤساء الأسر في العشيرة الذي تتحمّل مسؤولية إدارة الشئون العامة لعشيرته بالتعاون مع بقية رؤساء البيوت والأسر. وقد أطلق ابن خلدون على السلطة السياسية في المجتمع اسم «الوازع»، وذكر أن كل مجتمعٍ بحاجةٍ إلى السلطة أو الوازع الذي يزع الناس من أن يعتدي بعضهم على بعض^(٢).

١- الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج ١، ص ١٨؛ محسن خليل: النظم السياسية، بيروت، دار النهضة العربية، ط ٢، ١٩٦٧م، ص ٣٠-٣٣؛ إبراهيم أحمد العدوي: النظم الإسلامية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، د. ط، ١٣٩٢هـ، ص ١١-١٢.
٢- المقدمة، ج ١، ص ٣٤١.

والواقع، إن فكرة الوازع التي يعنيها ابن خلدون تنطبق على السلطة المادية التي تتجسّد في الدولة وأجهزتها، وهي أبرز ما تكون في المجتمعات الحضريّة، كما تعني أن السلطة المعنوية التي يمارسها بعض الأفراد على بعض في أحوالٍ خاصة، فالوازع "يتدرّج من السلطة المعنوية التي لشيوخ البدو وكبرائهم إلى السلطة المادية التي تقوم على الغلبة والسلطان واليد القاهرة"، التي هي المُلْك عند الحضّر، ويمكن القول أن الوازع الذي يتحدّث عنه ابن خلدون هو وازعٌ اجتماعي، بمعنى أنه سلطة اجتماعية تستمدُّ خصائصها من نوع الحياة الاجتماعية السائدة^(١).

إن هذا التدرّج في طبيعة الوازع إنما يفرضه اختلافٌ في نوعية الحياة السائدة في كلّ من البوادي والحواضر؛ ففي الوقت الذي تتسم فيه الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البادية بالبساطة واليسر تتسم الحياة في الحواضر بالتشابك والتعقيد. لذا فقد تمثّل الوازع عند البدو في سلطة مشايخهم وكبرائهم التي تستند إلى العرف والتقاليد. يقول ابن خلدون: "وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم بما وقر في

١ - محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٦، ١٩٩٤م، ص ١٦٤.

نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة، أما حللهم فيذود عنها من خارج
حامية الحي من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة"^(١).

إن سلطة المشايخ والكبراء هاهنا لا تستند على القهر والتغلب التي
هي إحدى سمات الملك، وإنما تستند على العصبية وإلى ما وقر في
النفوس من الوقار والتجلة التي هي سمة من سمات الرئاسة، فالرئاسة
- على ما يذكر ابن خلدون - "إنما هي سؤددٌ وصاحبها متبوعٌ، وليس
عليهم قهرٌ في أحكامه"^(٢).

والنظام القبليُّ، هو نظامٌ استشاري، الرأي فيه لأصحاب الرأي
فقط، أما الأفراد أي سواد القبيلة، فلا رأي لهم في تسيير الأمور والنظر
فيها، إلا إذا برز أحدهم وظهر في قبيلته بمواهب يُعترف بها، كالحكمة
أو الشرف، فيدخل عندئذٍ في عداد ذوي الرأي، ويكون له عندهم رأيٌّ
مسموعٌ. أما دستور القبيلة، فهو مجموعة التقاليد والأعراف الذي
حفظته من موروثات الآباء والأجداد، فهُم يعتزُّون بهذه. ولعل هذا
القانون ينحصر في كلمة «العصبية» إذ منها تنبع قواعده وأعرافه"^(٣).

١- المقدمة، ج ٢، ص ٤٨٠.

٢- ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٩٥.

٣- ابن منظور: لسان العرب، ج ٩، ص ٢٣٨؛ الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال
العرب، ج ٢، ص ١٨٦؛ حافظ أحمد عجاج كرمي: الإدارة في عهد الرسول - دراسة تاريخية

وليس حكم سيد القبيلة حُكْمًا مُطلقًا، لا مشورة فيه ولا أخذ رأي، بل إن الحكم في القبائل مستمدٌ من رأي وجهاء القبائل وعقلائها وفرسانها وشعرائها، فهو حُكْم «ملاُ القبيلة». وقد يكون بيت سيد القبيلة هو مجلسها وموضع حُكمها، وإذا حدث حادثٌ اجتمع عقلاء القوم في مجلس الرئيس وتباحثوا في الأمر. ويُقال لمجلس القبيلة في اللهجة القتبانية «عهر و» (ع ه ر و)، يُعقد للنظر فيما يقع للقبيلة من أمور^(١). ونجد مثل هذه المجالس عند جميع القبائل؛ فإذا حدث للقبيلة حادثٌ، تجمّع ساداتها للتباحث في الأمر ولا اتخاذ ما يرون اتخاذه من رأي. ولما كانت القبيلة منتشرة لا تستقر في مكانٍ واحدٍ، صارت مضارب سادات الأحياء أندية تلك الأحياء، يجتمع فيه وجوه المضرب للسمر وللبت فيما قد يقع بين الحي من خلاف. وبهذه الطريقة يفصل في الخصومات وفي كل ما يحدث للحي من أمر^(٢).

للنظم الإدارية في الدولة الإسلامية الأولى، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٦م، ص ٣٢.

1 - Naval Intelligence Division of Great Britain Geographical Handbook Series, Western Arabia And The Red Sea, Vol I, P. 122.

٢- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٢٣٨.

ومن أعراف الحكم عند القبائل، أن سيد القبيلة يستمد رأيه من رأي وجوه وأشراف قبيلته في الأمور الهامة التي تخص حياة القبيلة؛ ليستنير برأيهم، وليعرف رأي أتباعه في معالجتها. وتساعد هذه المشورة سادة القبائل في التمكن من إدارة القبيلة إدارةً حسنةً تُرضي الغالبية، وقد توصل السيد إلى النجاح والنصر في الغزو، فيرتفع اسمه ويعلو نجمه. ورأيهم هذا ربما يكون مجرد مشورة ونصح، بمعنى أنه لا يلزم سيد القبيلة العمل بموجبه، فينبذه ويعمل بقراره، لاسيما إذا كان قوي الشخصية متجرباً. وقد يكون النجاح حليفه، فتزداد بذلك هيئته في نفوس أتباعه، وقد يُمنى بخسارة فادحة، فتقضي عليه وعلى رئاسته، وربما تقضي على حياته. وقد لا يكون سيد القبيلة ذا رأي في قبيلته في أحيانٍ أخرى؛ إذ يخالفه قومه، ويعملون بما يرونه^(١).

١ - يعبر عن ذلك قول دريد بن الصمة وكان سيد بني جشم من هوازن فأمر قومه وإخوته بالأغاني، فلم يسمعون نصحه، فقتلوا:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنتُ منهم وقد أرى غوايتهم وأنني غير مهتدي
وما أنا إلا من غزية إن غوت غويتُ، وإن ترشد غزية أرشد

ديوان دريد بن الصمة الجشمي، تحقيق: عمر عبد الرسول، القاهرة، دار المعارف، د. ط، د. ت، ص ٦١-٦٢؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٥، ص ١٦٩؛ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١، ص ٨.

وللأسف لا نملك اليوم نصوصًا في أصول التشريع وقواعده عند العرب قبل الإسلام؛ إذ لم يُعثر على نصّ خاص بهذا الموضوع، ولكن في بعض النصوص إشاراتٌ عابرةٌ يمكن أن نستنبط منها شيئًا عن قواعد التشريع العربي قبل الإسلام. فالعرب من الشعوب التي تميل إلى الأخذ بالرأي، واستشارة الحكماء وذوي الرأي والخبرة والسن؛ فنجد سيد القبيلة غالبًا ما يستشير سادات القبيلة ووجوهها في الأمور الخطيرة التي تقع لقبيلته، كما نجد المدن والقرى تستنير برأي أولي الرأي فيها في المشكلات التي تقع لها، لحلّها وفقًا لما يستقرُّ عليه رأي ساداتها^(١).

وعلى أي حال، كما كانت القبيلة هي مدار مجتمع العرب قبل الإسلام، كان سيد القبيلة هو مدار هذه القبيلة؛ فسيد القبيلة بالنسبة لها كملك مملكةٍ بالنسبة لمملكته، فهو الرئيس والمرجع والمسئول عن أتباعه في الحرب والسلم، يقصده ذوو الحاجات من أبناء قبيلته إن احتاجوه في حاجة. وقد يجمع هذا الرئيس شمل عدة قبائل ويترأسها، وقد ينصب نفسه ملكًا عليها، كالذي فعله ملوك كندة من آل آكل المرار وغيرهم من الملوك. وقد لا نخطئ إذا قلنا أن أكثر مؤسسي الأسر المالكة في بلاد العرب كانوا سادات قبائل في الأصل، استغلوا مواهبهم وإمكانيات

١ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٢٤١.

قبيلتهم، وسخروها في سبيل الحصول على الملك، وعلى التلقب بلقب ملك، فقالوه^(١).

ولست قيادة القبيلة بأمرٍ سهلٍ، لاسيما إذا كانت القبيلة كثيرة العدد ذات عشائر وأرهاط منتشرة في مواضع مبتعدة. فإن رؤساء العشائر يستغلُّون فرصة ابتعادهم عن أرض القبيلة الأم ويعلنون انفصالهم عنها وتولِّيهم أمرهم بأنفسهم. فيحدث الانقسام والانقسام، عندئذٍ ربما يعلن الرئيس حربًا على العشيرة المنشقة، ولهذا يُعدُّ سيد القبيلة الذي تجتمع له رئاسة قبيلة كبيرة من المحظوظين؛ ولا شك أن حظهُ هو ثمرة ذكائه ومواهبه وقابلياته. ومن هؤلاء المحظوظين الذين دَوَّن أهل الأخبار أسماهم: خالد بن جعفر بن كلاب، وعروة الرِّحَال بن عتبة بن جعفر، والأحوص بن جعفر، وعامر بن مالك بن جعفر بن كلاب، اجتمعت عليهم هوازن، ولم تجتمع هوازن كلها في الجاهلية إلا على هؤلاء الأربعة من بني جعفر بن كلاب^(٢). مما يدلُّ على صعوبة

١- حسين مولوي: الإدارة العربية، ترجمة: إبراهيم العدوي، القاهرة، المطبعة النموذجية، د. ط. ١٩٥٨م، ص ١١؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٣٤٣؛ موسى بناي علوان: الشورى في الجزيرة العربية قبل الإسلام، مجلة الدارة، ع ٣، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٤م، ص ٥١.

٢- ابن حبيب: المحبر، ص ٢٥٣-٢٥٤.

انقياد عشائر هوازن لزعامه رجلٍ واحد. وذكر أهل الأخبار أن جَهَبَل بن ثعلبة اليشكري، وعمرو بن شيبان بن ذُهَل، وعمرو بن قيس الأصم، وبشر بن عمرو بن مسعود، وهَمَّام بن مُرَّة بن ذُهَل، والحارث بن عُبَاد، وقد اجتمعت حولهم بنو بكر بن وائل، وانضوت تحت لوائهم، وذلك في مناسباتٍ أشار إليها أهل الأخبار، مثل وقوع بعض الأيام^(١). ولولا هذه الأيام والمناسبات التي اضطرت القبيلة على التكتُّل فيها حول زعيمٍ واحدٍ؛ ليخلصها من المخاطر لما تجمَّعت حوله؛ لأن التجمُّع لا يتلاءم مع طبع أهل البادية الذين جبلتهم الطبيعة على التفرُّق. ومثل هذا الانقياد لرئيسٍ واحدٍ، معناه - في نظر رؤساء العشائر - خضوعهم لغيرهم، واستدلالهم له، وتنازلهم عن حريتهم وعن استقلالهم في إدارة شئون عشائرهم لغيرهم، ولو كان هذا الرئيس منهم، أضف إلى ذلك الخسائر المادية التي قد يصابون بها من هذا الانقياد.

ويروي أهل الأخبار شعراً زعموا أن لقيطاً بن يَعْمُر بن خارجة الإياديَّ قاله في كيفية الحكم وسياسة أمور الرعية، يقول في هذه الأبيات:

١- ابن حبيب: المصدر السابق، ص ٢٥٤-٢٥٥.

وقلِّدوا أمركم، لله دُرُكُم رَحَبَ الذراعِ بِأمرِ الحربِ مضطلعا
لا مترقًا إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عَصَّ مكرؤه به خشعا
ما زال يحلبُ دَرَّ الدهرِ أشطره يكون مُتَّبِعًا طورًا ومُتَّبِعًا
حتى استمرَّت على شزرٍ مريته مستحصد الرأي لا فحماً ولا ضرعاً^(١)

وقد عُرفت قبائل ربيعة خاصة بتباغضها وتحاسد رؤسائها، لذا لم
تقبل في الغالب بتملُّك رئيسٍ منها عليها، بل كان ساداتها يراجعون
تابعة اليمن على ما يقوله أهل الأخبار لتمليك سيدهم منهم عليهم. وقد
ذكر أهل الأخبار أن من أسباب تعيين حُجْر بن عمرو الكندي ملكًا
على بني أسد وتعيين أعمامه ملوكًا على القبائل الأخرى، هو تناحر سادة
ربيعة فيما بينهم وتباغضهم وتفرُّق كلمتهم، حتى أن كل واحدٍ منهم
يرى أنه أولى من غيره بالملك، فدبَّ الخلافُ بين القبائل وتطاول
السفهاء على الأشراف وأهل البيوتات، عندئذ وجد سادة القبائل أن
الأمن لا يرجع إليهم إلا بذهابهم إلى كندة لتنصيب ملوكٍ منها عليهم.

١- ديوان لقيط بن يعمر الإيادي، تحقيق: عبد المعيد خان، بيروت، دار الرسالة، د.ط،
١٩٧١م، ص ٤٧-٤٩؛ المرشد: الكامل في اللغة والأدب، ج ٢، ص ٦٨٢؛ أبو الفرج
الأصفيهاني: الأغاني، ج ٢٢، ص ٣٥٧؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٦١، ص ٢٩٣؛
عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٤٤١؛ النويري: نهاية الأرب في فنون
الأدب، ج ٦، ص ١٧.

فكان ما كان من تنصيب حُجْر بن عمرو على بني أسد، وأعمامه على القبائل الأخرى، إلا أن الأمن لم يستتب طويلاً بين هذه القبائل المتنازعة^(١). ومن سادات ربيعة في الجاهلية الأفكل عمرو بن الجُعَيْد من بني الدليل، وكان ذا بغيٍّ، فسارت إليه بنو عَصْر فقتلوه^(٢). والحارث بن الأَصْحَم بن عبد الله بن ربيعة بن دَوْفَن، من بني دَوْفَن، كان قديم السؤدد فيهم، وإليه كانت تُجْبَى إتاواتهم^(٣). وعامر الصَّحْيَان بن سعد بن الخزرج بن تيم بن النمر بن قاسط، وكان سيد بني النمر بن قاسط في الجاهلية، وصاحب المربع فيهم^(٤).

١- ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، ص ١٦٦؛ المفضل الضبي: المفضليات، ص ٤٢٩؛ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ٢، ص ٦٣، ج ٨، ص ٦٤؛ ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، ص ٤٢٧؛ عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٣٩٩-٤٠١؛ ابن خلدون (ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن الحضرمي الإشبيلي): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (ج٧)، تحقيق: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ط ٢، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ج ٢، ص ٣٢٩.

٢- ابن دريد: الاشتقاق، ص ١٩٧؛ أبو الفرج الأصفهاني: المصدر السابق، ج ٢٤، ص ٢١٧؛ ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ص ٢٩٩؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٣، ص ١٢٢.

٣- ابن دريد: المصدر السابق، ص ١٩٣؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٣، ص ٣٠٧؛ أبو الفرج الأصفهاني: المصدر السابق، ج ١٧، ص ٢٠٣؛ ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ص ٢٧٥.

٤- ابن حبيب (أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية): أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية

وقد أشار الأخباريون إلى رجالٍ تمكَّنوا من حُكم مَعَد وربيعة، ومعنى ذلك أنهم كانوا من ذوي الشخصيات القوية، وبذلك تمكَّنوا من فرض أنفسهم على هذه القبائل المتباغضة. من هؤلاء حذيفة بن بدر الفزاري، وهو من سادات غطفان وبيتهم، وقد قاد حذيفة هذا بني فزارة ومُرَّة يوم النसार ويوم الجفار وفي حرب داحس والغبراء حتى قُتِلَ فيها في يوم الهباءة، وقد عُرِفَ في الجاهلية بـ«رب مَعَد»^(١)، وما كان يُعرَف بذلك لو لم يكن من أصحاب القوة والمكانة حتى ساد قبائل مَعَد.

ولا ينال الحكم في المجتمعات البدوية وفي المجتمعات الصغيرة التي لم تبلغ مرحلة متقدِّمة من الحضارة، والتي لم تنل حظاً من الغنى والمهارة في العمل وفي كثرة الانتاج وتنوعه، إلا مَنْ كان ذا قابلية عالية وذو شخصية قوية، وذو أسرة متجانسة متألِّفة متماسكة كثيرة العدد،

والإسلام، تحقيق: سيد كسروي حسن، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٤١؛ ابن دريد: المصدر السابق، ص٢٠٢؛ ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ص٣٠١.

١- أبو عبيدة (معمربن المثنى التيمي البصري): كتاب النقائض (٢ج)، تحقيق: خليل عمران المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج١، ص٧٢-٧٦، ١٧٤-١٧٩؛ ابن حبيب: المحبر، ص٢٤٩، ٤٦١؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج١، ص٥٥٠؛ ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص٣٠٢؛ ابن عبد ربه: المصدر السابق، ج٣، ص٣١٦-٣١٧، ج٦، ص٢٢، ٩٩.

وذا عشيرةٍ أو قبيلةٍ تندفع في تأييده لمزاياه المذكورة أو لخوفها منه، أضف
 إلى ذلك: العصبية والرغبة في كسب المال عن طريق الاندفاع معه في
 غزو القبائل الأخرى. فمجتمع من هذا النوع تكون قيادته بيد سادته،
 وقد يفرض أحدهم نفسه على الآخرين - طوعاً أو كرهاً - فيكون
 حكومةً تُنسب - في الغالب - إليه، قد يطول أجلها إذا جاء من بعده
 حكّامٌ أكفأ لهم قابلية وشخصية، وقد تموت بموته؛ لعدم كفاءة مَنْ
 يخلفه، ولأنه كَوّن دولته بشخصيته، وليس عن دوافع أخرى مثل إيمانٍ
 بعقيدة وإخلاصٍ لها، أو وجود وعيٍ مشتركٍ وحسٍّ بوجوب التكاتف
 والتآزر لتأليف مجتمعٍ متكاتفٍ يعيش فيه المواطنون عيشة مؤاخاة
 ومواطنة بالعدل والإنصاف، حتى يطول عُمرُ تلك الحكومة، ولما كانت
 تلك الدولة قد تكوّنت إما عن مصلحةٍ أو عن خوفٍ وقهرٍ أو عن
 طمعٍ، وقد زالت هذه بموت صاحبها، لذلك يصيبها التفكُّك وانهار
 البناء. ومما يؤيد ذلك ردّةٌ من ارتدّ من قبائل العرب بعد وفاة النبي ﷺ؛
 فقد كانت حُجَّتهم في ردّتهم أنهم بايعوا الرسول ﷺ وآمنوا به، ولم
 يبايعوا غيره، وبوفاته انتهى حكم البيعة، فلم يُرد بعضهم أن يخضع
 لغيره، ولم يُرد بعضهم أن يدفع صدقةً أو زكاةً رأوا أنها خاصة للنبي ﷺ
 لا لأحد غيره.

وحكم سيد القبيلة يتوقَّف على شخصيته ومكانته؛ فإذا كان سيد القبيلة قويًّا حازمًا مهيبًا، رفع مكانة القبيلة، وجعل لها منزلةً بين القبائل، وقد يفرض إرادتها على غيرها من القبائل، أما إذا كان ضعيفًا فاتر الهممة باردًا بليدًا، طمع فيه الطامعون، وقد يكون سببًا في تشتُّت وحدة القبيلة وتجزئتها وهبوط مكانتها بين القبائل. فالرئيس هو الذي يخلق القبيلة ويعزِّز مكانتها، وهذا هو سرُّ ظهور قبائل كبيرة بصورة مفاجئة، ثم اختفاء أمرها وهبوط منزلتها. وسرُّ ذلك أن الذي يرفع من شأن القبائل أو يخفض من منزلتها هو رئيس القبيلة؛ فهو روحها والذي يمنحها الحياة^(١).

وتُعَدُّ الأسرات الحاكمة التي ينشأ فيها عددٌ كبيرٌ من الملوك والحكَّام أسرًا عريقةً في الشرف، ويُنظر إليها نظرة احترامٍ وتقديرٍ؛ لأنهم ورثوا المجدَ أبا عن أبٍ. وينطبق ذلك على سادات القبائل الذين يرثون سيادة قبائلهم أبا عن جدٍّ، فإنهم يفتخرون بذلك على غيرهم؛ لأنهم ليسوا من أولئك الذين انتزعوا السيادة فصاروا سادةً، في حين كان آباؤهم وأجدادهم من الخاملين.

وقصد بعض سادات القبائل وشعرائها الكبار الملوك، ورحلوا إليهم من منازلهم وتقرَّبوا إليهم، وتوسَّطوا لديهم لبعض الناس. وقد

١ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٢٣٨.

عُرِفَ هؤلاء بـ«الرَّحَال». ولهذا نجد في الكتب أنها إذا تعرَّضت لمثل هؤلاء قالت عنهم أنهم من الرَّحَال؛ فقد عُرِفَ عروة بن عتبة بن جعفر الهوازنيُّ بـ«عروة الرَّحَال»، وقيل: "وإنما سُمِّيَ الرحال لرحلته إلى الملوك"، كما عُرِفوا بـ«زَوَّار الملوك»، ومنهم أبو زيد الطائي^(١).

والسيادة منزلة ودرجة، ولا تأتي أحدًا إلا باعتراف قومه له بسيادته عليهم وبتنصيبهم له سيدًا عليهم. ولتعظيم ساداتهم أُطْلِقَ عليه لقب «القرم»، ويعني السيد الكريم من الرجال، وأصله الفحل من الإبل يُكرم ولا يُمتهن بالحمل^(٢). وأشرف الناس هم الذين نالوا الشرف والسؤدد بين قومهم فسادوهم. والسيد هو الرئيس، ويُطلق على الرب والمالك والشريف والفاضل والكريم وعلى مَنْ ساد قومه. وذُكِرَ أن السيد هو الذي فاق غيره بالعقل والمال والدفع والنفع، المعطي ماله في الحقوق، المعين بنفسه. وذُكِرَ أن السيد: الحليم الذي لا يغلبه الغضب. ويُقال لسيد القبيلة: المسوَّد. وذكر بعضهم أن السيد يطلق على

١- البلاذري: جمل من أنساب الأشراف، ج ١، ص ١٠١؛ عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٤٦٨؛ السويدي (أبو الفوز محمد أمين بن علي بن محمد سعيد العباسي):

سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، بيروت، دار إحياء العلوم، د.ط، د.ت، ص ٤٤٨.

٢- الخطابي (أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم البستي): غريب الحديث (٣ج)، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزاوي، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، د.ط، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ج ٢، ص ١٩٣.

محتمل أذى قومه والزوج والمقدّم، وسيد القبيلة هو رئيسها، والعرب تقول: "فلان سيدنا"، أي رئيسنا والذي نعظمه، وتقول: "ساد قومه"، أي صار سيدهم ورئيسهم^(١). وهي من الألفاظ المستعملة عند عرب الحجاز ونجد وبلاد الشام والعراق، أما في اليمن وبلاد العرب الجنوبية، فقد استُخدمت ألفاظٌ أخرى بدلاً منها^(٢). ويُقال لسيد القبيلة: رئيس القوم، والرئيس: سيد القوم، والرياسة: السيادة، ويُقال: فلان رأس أو رئيس القوم^(٣). ورؤساء القبائل هم ساداتها والمتولون لأموورها، فاللفظتان مترادفتان وفي معنى واحدٍ. وقد وردت لفظة «زعيم» بمعنى سيد القوم ورئيسهم، كما وردت الزعامة بمعنى الشرف والرياسة^(٤)، ولكن استعمال الزعيم أقل من استعمال رئيس وسيد^(٥).

وإن الاختيار الدقيق للزعامة القبلية ارتقى بهم أن ينظر لهم أفراد القبيلة بمنظور التعظيم والإجلال، وهذا ما نتأمله في النعوت التي أُطلِّقت على شيخ القبيلة؛ فهو رأس القبيلة، والسيد وهو أكثر الألقاب

١- ابن منظور: لسان العرب، ج ٣، ص ٢٢٨.

٢- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٣٤٣.

٣- الأزهرى: تهذيب اللغة، ج ١٣، ص ٦٣؛ ابن منظور: المصدر السابق، ج ٦، ص ٩٢.

٤- ابن سيده: المخصص، ج ١، ص ٥٣٦؛ ابن منظور: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٦٦؛

المرضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٨، ص ٣٢٤.

٥- حافظ أحمد عجاج كرمي: الإدارة في عهد الرسول، ص ٢٩.

شيوعاً، وقد يُنعت الرجل بـ«سيد العرب» وبـ«سيد مُضَر» وبـ«سيد أهل الوبر»، وذلك للتعبير عن سلطانه ومكانته وعن حكمه لقبائل عديدة؛ بدليل نعتهم عمرو الأفكل بن جُعيد الديليّ بـ«سيد ربيعة»^(١)، ونُعت حذيفة بن بدر الفزاريّ بـ«سيد غطفان»^(٢)، ولُقّب عبد المطلب - جدُّ الرسول ﷺ - بـ«سيد قريش»^(٣)، ونُعت قيس بن عدي القرشيّ السهميُّ بـ«سيد قريش»^(٤)، ونُعت النبي ﷺ سعد بن معاذ الأنصاريّ الأوسيّ بـ«سيد الأنصار»^(٥)، وعُرف قيس بن عاصم التميميُّ المنقريُّ بـ«سيد أهل الوبر»^(٦)، بل بالغوا في ذلك في وصفهم كليب وائل بن ربيعة - سيد ربيعة ونزار - فنعتوه بـ«سيد الناس»^(٧).

١- ابن دريد: الاشتقاق، ص ١٩٧.

٢- ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص ٨٣.

٣- الأزرقى: أخبار مكة وما فيها من الآثار، ج ١، ص ١٤٣-١٤٤.

٤- مصعب الزبيري: نسب قريش، ص ٤٠٠.

٥- ابن منظور: لسان العرب، ج ٣، ص ٢٢٩.

٦- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٩٣-٢٩٤، ج ٧، ص ٣٦؛ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١٤، ص ٧٥؛ المزياني: معجم الشعراء، ص ٣٢٤؛ الحاكم النيسابوري: المستدرک على الصحيحين، ج ٣، ص ٧٠٨؛ ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم الإربلي): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (٨ج)، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د.ط، ١٩٧٢م، ج ١، ص ١٨٣، ج ٤، ص ١١؛ ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٢، ص ٥٠٥، ج ٥، ص ٣٦٧، ٣٦٩.

٧- ديوان مهلهل بن ربيعة، تحقيق: طلال حرب، بيروت، دار صادر، د.ط، ١٩٩٦م، ص ٦٧.

وعُرِفَ حاكم تدمر بـ«رَش تدمور»، أي: رأس تدمر ورئيس تدمر، في الكتابات التدمرية القديمة، ثم عُرِفَ بملك في الكتابات التدمرية المتأخرة المدوّنة، وصار اللقب الملكي لحكام تدمر في أيام الزباء بنت عمرو فما بعد، إلى احتلال الرومان لتدمر وإلغاء الحكم التدمري^(١). ولُقِّبَ «أذينه» - ملك تدمر - نفسه بـ«ملك ملكا» أي ملك الملوك أيضًا؛ تشبُّهًا بملوك الفُرس وبمَن حكموا قبلهم مثل الملوك الآشوريين، واتخذ لنفسه ألقابًا يونانية ولاتينية تقليدًا للرومان^(٢).

وكانت العرب إذا سوّدوا شخصًا عَصَبوه، والتعصيب هو التسويد، ولهذا كانوا يسمّون السيد المطاع: معصَّبًا، لأنه يُعصَّب بالتاج، أو تُعصَّب به أمور الناس، أي تُرَدُّ إليه وتُدَار به. ورجلٌ مُعصَّب أي مسوّد. ومنه قول المخبّل السعدي في مدح الزبرقان بن بدر التميمي السعدي:

رَأَيْتَكَ هَرَبْتَ الْعِمَامَةَ بَعْدَمَا أَرَاكَ زَمَانًا حَاسِرًا لَمْ تُعَصِّبِ^(٣)

١ - سبستيان رنزلر رحمته الله مال اليسوعي: زينب (الزباء) - ملكة تدمر، مجلة المشرق، عدد ١، ١٨٩٨م، ص ٥٩٠.

2 - W. Caskel, Die Bedeutung der Beduinen in der Geschichte der Araber, Vol II, P. 254.

٣ - حاتم الضامن: المخبل السعدي حياته وأخباره وما تبقى من شعره، العراق، مجلة المورد، المورد، مج ٢، ع ١، ١٩٧٣م، ص ١٢٤؛ الأزهري: تهذيب اللغة، ج ١، ص ٤٧٤؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٢٢٨؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٢، ص ٣٨٥.

وهو مأخوذ من العصابة هي العمامة؛ لأن التيجان للملوك،
والعمائم الحمر كانت للسلادة من العرب. ومنه قول عمرو بن كلثوم
التغليبي:

وسيدُ معشرٍ قد عَصَّبوه بتاجِ المُلْكِ يحمي المحجرينا^(١)
فجعل الملكُ مُعَصَّبًا أيضًا؛ لأن التاج أحاط برأسه كالعصابة التي
عَصَّبَتْ رأسَ لابسها، فيقال: اعتصب التاج على رأسه، إذا استكفَّ به،
ومنه قول عبيد الله بن قيس الرقيات القرشي العامري:

يعتصب التاجُ فوق مَفْرِقه على جبينٍ كأنه الذهبُ^(٢)
والعمائم تيجان العرب، وتُسمَّى العصائب، وواحدتها عصابة.
وكانت عمامة سيد القبيلة يَختلف لونها عن عمائم قومه^(٣)؛ فكان أبو

١- ديوان عمرو بن كلثوم التغليبي، تحقيق: إميل بديع يعقوب، بيروت، دار الكتاب العربي،
ط ١، ١٤١١هـ / ١٩٩١م، ص ٧١؛ الأزهرى: المصدر نفسه؛ ابن منظور: المصدر السابق،
ج ١، ص ٦٠٦؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٠.

٢- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، شرح وتحقيق: محمد يوسف نجم، بيروت، دار
صادر، د. ط، د. ت، ص ٥؛ الأزهرى: المصدر نفسه؛ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ٥،
ص ٨٧؛ ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج ٤، ص ٣٣٧؛ ابن سيده: المحكم والمحيط
الأعظم، ج ١، ص ١٦٦؛ ابن منظور: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٩٦؛ المرتضى الزبيدي:
المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٢.

٣- الأزهرى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١؛ ابن منظور: المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠٧؛
المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٨٦.

أحيحة سعيد بن العاص بن أمية القرشيُّ إذا لبس عمامة لا تلبس قريشٌ عمامةً على لونها حتى ينزعها إعظامًا له، ولُقِّبَ لذلك «ذا العمامة وذي العصابة»، وزعم بعضهم "أن هذا اللقب إنما لزم سعيدًا كنايةً عن السؤدد؛ وذلك أن العرب تقول للسيد: فلانٌ مُعَمَّمٌ، يريدون أن كل جنايةٍ يجنيها الجاني من تلك القبيلة أو العشيرة فهي معصوبةٌ برأسه، وإلى هذا المعنى ذهبوا في تسميتهم سعيد بن العاص: ذا العمامة وذا العصابة"^(١).

والسادات هم الرؤوس، رؤوس الناس، أما من دونهم فهم الأذنان، وعُرفوا بـ«أذنان الناس وذناباتهم»، أي أتباعهم وسفلتهم، والأتباع دون الرؤساء؛ يُقال: جاء فلانٌ بذنِّبه، أي بأتباعه^(٢)، ومنه قول الحطيئة يمدح بني أنف الناقة:

قومٌ همُّ الرأس والأذنانُ غيرهم ومَنْ يُسَوِّي بأنفِ الناقَةِ الذنبا^(٣)

١- الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص ٢٨٢؛ الميداني: مجمع الأمثال، ج ١، ص ١٨٨؛ ابن أبيك الصفدي (أبو الصفاء صلاح الدين خليل بن أبيك بن عبد الله): الوافي بالوفيات (٢٩ ج)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتزكي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ج ١٢، ص ١٥٠؛ القلقشندي: صحح الأعشى في صناعة الإنشا، ج ١، ص ٥١٥.

٢- المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١، ص ٢٥٤.

٣- ديوان الحطيئة، برواية وشرح ابن السكيت، دراسة وتبويب: مفيد محمد قميحة،

والسادات مصايح الظلام ومشاعله، بنورهم يهتدي الفقراء وذوي الحاجات والفاقة، فينالون منهم ما يخفف كربهم وفقيرهم؛ فيطعمون الناس في الحضر والسفر، فهم سادة الناس وملاذهم حين تغلق كل الأبواب بأوجه الأذنان البائسين. ويُقال لأشراف القوم والبارزين منهم: وجوه القوم ووجهاء القوم، وقد وَرَدَ قولهم: "وكان من وجوه القرشيين"، و"كان من وجوه قريش"، وأما «سروات»، كقولهم: "سروات الأنصار"، و"سروات قريش"، ففي هذا المعنى أيضاً، ووجه الأنصار وأشرفهم ووجه قريش وأشرفهم. والسَّرِيُّ: هو الرئيس^(١). وتعني كلمة «النواصي» خيار العرب وأشرفهم؛ فيقال: هو ناصية قومه، وهو من ناصيتهم ونواصيهم، و«الناصية» من القوم هم الخيار الأشراف^(٢). ويُعرف الأشراف المعرقون بـ«النجوم»، وواحدتها: «نجم». وقد أشار إليهم حسان بن ثابت الأنصاري بقوله:

بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٣٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ص ٤٥؛ محمد بن سلام (أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبد الله بن سالم الجمحي البصري): طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، جدة، دار المدني، ط ١، ١٩٧٤م، ص ١١٤؛ الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٤، ص ٣٨؛ ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، ص ٣٢٧؛ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ٢، ص ١٨١؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢، ص ٣٣٥.

١- المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ١٠، ص ١٧٦.

٢- المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١٠، ص ٣٧٠.

لم تطلق حملة العواتق منهم إنما يحمل اللواء النجوم^(١)
فذكر حسان أن الذين يحملون اللواء، أي لواء الحرب، هم
النجوم. ويُقال لسادة الناس: «الجحاح»، وأشير إليهم في قول حسان
بن ثابت:

ويسودُ سيدنا جحاحَ سادةً ويُصيبُ قائلنا سواءَ المفصل^(٢)
ويُقال لهم: «العُرى»، وهم سادات الناس الذين يعتصم بهم
الضعفاء والمساكين، ويعيشون بعُراهم؛ شَبَّهوا بعُرى الشجر التي تعصم
الماشية من الموت زمن الجذب^(٣). ويُقال لهم: «الخطَر»، وهم الأشراف
من الرجال عظيمي القدر والمنزلة، والواحد منهم يُقال له: الخطير.
ويُقال للرجل الشريف: عظيم الخطر، وقومٌ خطيرون: قومٌ أشراف^(٤).
ويُقال أيضًا للسيد الكامل والشديد القوي من الرجال: «العُبقرى»،
وهو سيد القوم وكبيرهم الذي ليس فوقه شيء^(٥).

-
- ١- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: وليد عرفان، بيروت، دار صادر، د. ط. ١٩٧٤م، ص ٢٢٤؛ ابن هشام: سيرة النبي ﷺ، ج ٣، ص ٦٥٥؛ الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢، ص ٣٢٦؛ عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ١١، ص ١٦٣.
 - ٢- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ص ١٨٥؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ١٢، ص ٤٢٥؛ ابن أبيك الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ١١، ص ٢٧٥.
 - ٣- ابن منظور: لسان العرب، ج ١٥، ص ٤٦.
 - ٤- المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٨٤.
 - ٥- المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٧٩.

وعُرِفَ سادة قريش ووجوهها بـ«خضراء قريش»؛ فلما صعد النبيُّ ﷺ الصفا يوم فتح مكة سنة ١٠هـ / ٦٣٢م، وجاءت الأنصار فطافوا بالصفا، فجاء أبو سفيان وقال: "يا رسول الله أبيدت خضراء قريش! لا قريش بعد اليوم"^(١). يقصد نخبة قريش وأهل خاصتها، في مقابل «أوباش قريش»، الذين قال عنهم الرسول ﷺ للأنصار: «يا معشر الأنصار! هل ترون أوباش قريش»^(٢).

ومن ألقاب سادات القبائل التي تُفصح عن الإجلال والتعظيم فيما يُقال لهم: "عقال المئين"، أي الشريف الذي إذا أُسِرَ فُدِيَ بمئتين من الإبل، ويُقال: "فلانٌ قيد مائة"، إذا كان فداؤه مائة من الإبل^(٣). وكان فداء سادة القبائل من الأسر أعلى فداء؛ فالمقْلُ مائتي بعير، والمكثر أربعمائة بعير؛ إذ افتدى بسطام بن قيس - سيد بني شيبان - نفسه من أسر عتيبة بن الحارث التميميِّ اليربوعيِّ بأربعمائة ناقة وثلاثين فرساً^(٤)،

١- أحمد بن حنبل: المسند، ج ٢، ص ٥٣٨؛ صحيح مسلم، ص ٩٠١؛ التقي الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج ١، ص ٥٤؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ١٠، ص ٣٠.

٢- صحيح مسلم، ص ٩٠٢؛ التقي الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج ١، ص ٥٢.

٣- ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، ج ١، ص ٢٠٦؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١١، ص ٤٦٢؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١٥، ص ٥٠٧.

٤- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٥، ص ١٩٨؛ الزمخشري: المستقصى في أمثال العرب، ج ١، ص ٢٦٣؛ الميداني: مجمع الأمثال، ج ٢، ص ١٩؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢، ص ١٣٢.

وافتدى حاجب بن زُرارة التميميُّ الدارميُّ نفسه من أسر بني عبسٍ
بألفي ناقةٍ وألف أسير يُطلقهم لهم^(١)، ويُقال: إن أغلى فداءً كان من
الأشعث بن قيس الكندي؛ حين غزا قبيلة مذحج فأسير، ففدى نفسه
بثلاثة آلاف بغير^(٢).

ولما كانت رئاسة القبيلة نوعاً من السلطة الأبوية التي يُطاع
صاحبها ليس بسببٍ ما لديه من قدرةٍ وقوةٍ على قهر الناس، وإنما بحكم
ما يتمتع به في نفوس أفراد قبيلته "من الوقار والتجلة"، كان من
الواجب أن يتحلَّى بمجموعةٍ من الصفات التي تنتزع احترام الناس
وإعجابهم به بصورةٍ طواعيةٍ، تقودهم إلى طاعته وتنفيذ قراراته. فعلى
مَن يسود في قومه أن يتحلَّى بخلالٍ حميدةٍ وسجايا طيبةٍ، تجعل الناس
يعترفون بسيادته عليهم، كأن يتحمَّل أذى قومه، ولذلك قيل للسيد:
"محمَّل أذى قومه"^(٣)، وأن يكون شريفاً في أفعاله حليماً، يغضُّ طرفه
عن أعمال الحمقى والجهلة، وأن يتجاهل السفلة والسفهاء والجاهلين،

١- أبو عبيدة (معمر بن المثنى التيمي البصري): كتاب النقائص (٢ج)، تحقيق: خليل
عمران المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ج٢، ص٦٦٩؛
المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ج٣، ص٥٩٧؛ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج١١،
ص١٥٠؛ الزمخشري: المصدر نفسه.

٢- الميداني: المصدر السابق، ج٢، ص٦٦؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١،
ص١٧٦.

٣- ابن منظور: المصدر السابق، ج٣، ص٢٢٨.

فلا يغضب ولا يثور، وأن يكظم غيظه^(١)؛ فقد جاء في المثل: «احلم تسد»^(٢). يعبر عن ذلك قول سلمى بن نوفل بن معاوية الكناني الديلي: "أما نحن فلا نسود إلا من بذل لنا ماله وأوطأنا عرضه وامتهن في حاجتنا نفسه"، وكانت القبيلة ترى من حقها مشاركة سيدها ماله؛ فقال بعضهم: "نحن لا نسود إلا من يوطئنا رحله ويُفرشنا عرضه ويملكنا ماله"^(٣).

وعلى السيد أن يحترم الناس مهما كانت منازلهم، وأن يؤلف بينهم ويكتسب محبتهم وأن يكون ملاذهم، وأن يفتح قلبه للجميع^(٤)، وأن يجعل بيته بيتاً للجميع ومضيفاً لكل من يقد إليه، فالإي جانب الحلم لا بد من الغنى؛ إذ أن المجتمع القبلي كثيراً ما نظر إلى الفقير نظرة ازدراء، فقد

١- الآلوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج ١، ص ١٨؛ إبراهيم أحمد العدوي: النظم الإسلامية، ص ١١-١٢؛ حافظ أحمد عجاج كرمي: الإدارة في عهد الرسول، ص ٢٩.

٢- الأبشيهي (شهاب الدين أبو الفتح محمد بن أحمد بن منصور): المستطرف من كل فن مستظرف، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، بيروت، دار الأرقام بن أبي الأرقام، د. ط، د. ت، ص ٢٠٣؛ السيوطي (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر الخضير): الكنز المدفون والفلك المشحون، تحقيق: محيي الدين الصغير، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ص ٢٠١٥، ص ١٢٧.

٣- ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، ج ٣، ص ٢٢٦؛ المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ج ١، ص ١٢٨، ١٦٦؛ الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج ١، ص ١٧٩.

٤- هنري لامانس: نفسية البدو قبل الإسلام، ص ١١٠.

أوصى قيس بن عاصم المنقريُّ بنيه الحرص على استصلاح المال لأنه قيمة الكريم^(١)، لذا وجدنا المغيرة بن حَبْنَاء الحنظليَّ يشترط اجتماع الشراء والوجود معاً من أجل الرئاسة، يعبرُ عن ذلك بقوله:

إذا المرءُ أثرى ثم قال لقومه أنا السيدُ المفضي إليه المعممُ
ولم يعطهم خيراً أبوا أن يسودهم وهان عليهم رغمه وهو أظلمُ^(٢)
وعلى الرئيس أن يكون في مقدّمة القوم في الحروب والغزو، وأن يكون شجاعاً يدفع بروحه إلى القتال فلا يهاب الموت، حتى يكسب النصر لنفسه ولقومه، وعليه أن يكون قائد قبيلته وواضع خطط الحرب؛ لأنه رمز القبيلة ورمز النصر وباعث الهمم في نفوس أبنائه، وهو أبُ القبيلة. فإذا لم يكن قدوة لأبنائه في ساعات الشدة والخطر فترت همم أبناء القبيلة. ولا يثير القبائل إلا الشعارات والنخوة وإلهاب

١- البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم): الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار البشائر، ط١، ١٩٨٩م، ص٣٢٨؛ الحاكم النيسابوري: المستدرک على الصحيحين، ج٣، ص٦١٢؛ ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي): التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد في حديث رسول الله ﷺ (١٧ج)، تحقيق: بشار عواد معروف، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط١، ١٤٣٩هـ/٢٠١٧م، ج٣، ص٣٠٨.

٢- الجاحظ: البيان والتبيين، ج٢، ص٦٧؛ الزجاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي): الأمالي، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٢٦؛ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج١٤، ص٨٢.

المشاعر؛ حتى تندفع اندفاعاً في القتال. والرئيس هو روح القبيلة وشعارها، فإذا أصيب بمكروهٍ أو جَبُنَ في القتال، وإذا خرَّ صريعاً في المعركة تراجعت قبيلته القهقري أو هربت في الغالب، إلا إذا وُجِدَ في القبيلة مَنْ يُوَجِّجُ فيها نار الحماسة ويبثُّ فيها العزيمة للوقوف والصمود. ويكون مثل هذا الرجل من الشجعان الأقوياء أصحاب الإرادة القوية الذين يعرفون نفسية قبيلتهم، وإلا فليس من السهل على رجلٍ التأثير على قبيلة وهي في مثل هذا الوضع. ولأثر الرئيس في مصير الحرب، كان الفرسان يوجهون كل قوتهم نحو الرؤساء، لأنهم على علمٍ إن تمكّنوا من الرئيس فقتلوه، غلبوا عدوّهم في الغالب وقضوا عليه، فهو الروح المعنوية عند الأعراب^(١)، يليه حامل اللواء فإذا سقط حامل اللواء قتيلاً أسرع مَنْ عيّن ليكون خليفته في التقاط الراية وحملها، وإذا سقط هذا أيضاً أسرع مَنْ يأتي بعده، وهكذا؛ فإن سقوط الراية معناه هزيمة منكرة ستحقيق بالقبيلة التي سقطت رايتها، ولهذا كانوا يختارون

١- يأتي في هذا المعنى قول خفاف بن ندبة السلمي:

تيممتُ كبشَ القوم لما رأيتَه وجانبتُ شبّانَ الرجال الصعالكا

ديوان خفاف بن ندبة السلمي، جمع وتحقيق: نوري حمودي القيسي، بغداد، مطبعة المعارف، د. ط، ١٩٦٧ م، ص ٦٣؛ أبو الفرج الأصفهاني: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٩، ج ١٥، ص ٨٨؛ أبو الحسن البصري: الحماسة البصرية، ج ١، ص ٢١٥.

رجالاً شجعاناً يولونهم أمر اللواء، بحيث إذا سقط أحدهم أخذ من يليه مكانه، وهكذا حتى النصر^(١).

إن ما تقدّم يتطلّب أن يكون رئيس القبيلة ممثلاً لأفضل الصفات والمثّل التي يؤمن بها أفراد قبيلته، وأن تكون سياسته وتصرفاته مطابقةً لرأي وتطلّعات غالب أفراد القبيلة، ومن ثمّ يكون حكمه لقبيلته هو بمثابة حكم القبيلة نفسها بنفسها. وإننا لا نملك نصّاً جاهليّاً فيه شيءٌ عن الشروط التي يجب أن تتوفر في الرجل كي يكون رئيساً لقبيلته. ولا نجد في روايات أهل الأدب والأخبار نصوصاً واضحةً صريحةً عن طريقة تويّي الرئاسة عند العرب قبل الإسلام. وقد أوردت المصادر كثيراً من الصفات الواجب توافرها في شيخ القبيلة، وهي تتفاوت فيما بينها في تعداد هذه الصفات وفي ترتيبها؛ وذلك لأن المصادر كانت تتحدّث عن حالاتٍ خاصة، ولم تحاول استخلاص صفاتٍ عامة من خلال دراستها لهذه الحالات^(٢). وقد لخصّ الجاحظ هذه الصفات فقال: "وكان أهل الجاهلية لا يسوّدون إلا من تكاملت فيه ستُّ خصالٍ: السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان"^(٣). ولكن

١- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٣٤٥.

٢- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٨٦-٢٩٠.

٣- الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج ١، ص ١٩٨؛ عبد القادر البغدادي: خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ٣، ص ٨٨.

يمكننا إرجاع هذه الخصال الست في ثلاث خصالٍ، هي: العقل والكرم والشجاعة؛ وذلك لأن الحلم والصبر والتواضع والبيان كلها من مظاهر قوة العقل وحُسن التفكير، أما النجدة فهي من علامات الشجاعة، وأما السخاء فهو يعني به الكرم.

وقد عبّر قيس بن عاصم المنقريُّ عن معظم هذه الصفات حينما سُئِل: "بم سُدتَ قومك؟ قال: ببذل الندى، وكفِّ الأذى، ونصرة المولى، وتعجيل القرى"^(١). كما تتردَّد هذه المعاني نفسها في قول عرابة بن أوس بن قَيْظِي الأنصاري حينما سأله معاوية بن أبي سفيان: "بأي شيء سُدتَ قومك يا عرابة؟ قال: لستُ بسيدهم، ولكني رجلٌ منهم. فعزم عليه فقال: أعطيتُ في نائبتهم، وحلمتُ عن سفيهم، وشددتُ على يد حلیمهم، وعطفْتُ على ذي الخلة منهم. فمَن فعل فعلي فهو مثلي ومَن قصَّر عني فأنا أفضل منه، ومَن تجاوزني فهو أفضل مني"^(٢). أضف إلى ذلك عراقة النسب؛ لنفور طباع العرب من أن يحكم القبيلة أحدٌ من غيرها^(٣).

١- الراغب الأصفهاني: المصدر نفسه؛ عبد القادر البغدادي: المصدر نفسه.

٢- المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ج ١، ص ٧٥؛ القالي (أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون): الأمالي (٤ج)، تحقيق: محمد عبد الجواد الأصمعي، بيروت، دار الثقافة الجديدة، ط ٢، ١٩٨٧م، ج ١، ص ١٣٠؛ الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج ١، ص ١٩٨-١٩٩.

٣- عز الدين ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري): أسد الغابة في معرفة الصحابة (٨ج)، تحقيق: علي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية،

ويبدو أن مدى توافر هذه الصفات وكيفية مسألة نسبية تختلف من سيد إلى آخر ومن قبيلة إلى قبيلة؛ فقد تختلف إحدى هذه الصفات بالنسبة لأحد السادة لتعوض عنها صفة أخرى تكون موضع رضى وإعجاب الناس به. لذا فقد روى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: "ما رأيتُ شيئاً يمنع من السؤدد إلا قد رأيناه في سيد"^(١). وقد كانت العرب تُسوّد على أشياء: أما مُصّر فتسوّد ذا رأياها، وأما ربيعة فمن أطعم الطعام، وأما اليمن فعلى النسب"^(٢). إلا أن الرجل الذي تسوّده قبيلته لا يسودونه إلا لشيء من هذه الخصال الحميدة؛ فقد "يسود الرجل بالعقل والعفة والأدب والعلم. وقال بعضهم: السؤدد اصطناع العشيرة، واحتمال الجريرة"^(٣).

-
- ط ١، ١٩٩٦م، ج ١، ص ١٣٦؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٦، ص ٧٥.
- ١- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ١، ص ١٨٠؛ التوحيدي (أبو حيان علي بن محمد بن العباس): البصائر والذخائر (٢ج)، تحقيق: محمد السيد عثمان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠١٤م، ج ٢، ص ١٤٥، عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ٣، ص ٩٠.
- ٢- الراغب الأصفهاني: المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٨.
- ٣- ابن عبد ربه: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤؛ الآبي: من نثر الدر في المحاضرات، ج ٢، ص ٧٠؛ الراغب الأصفهاني: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٩؛ عبد القادر البغدادي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٨٨.

لذا فإننا لا نستطيع البت في موضوع شروط انتقال الرئاسة من رئيس قبيلة متوفى أو مخلوع إلى رئيس جديد. وهل كانت الرئاسة وراثية عن طريق انتقال العروش في النظام الملكي، أم كانت اختياريًا وشورى، بمعنى أن الرئيس يكون برأي من رؤساء القبيلة، وليس بسنة الإرث. والذي ظهر لنا من دراسة روايات أهل الأدب والأخبار في هذا الموضوع أن عرب ما قبل الإسلام كانوا قد ساروا على سنة الإرث كما ساروا على طريقة الاختيار في تولي رئاسة القبيلة^(١).

أما أنها كانت رئاسة وراثية، فلأنها رئاسة مثل سائر الرئاسات عند العرب قبل الإسلام كرئاسة المكاربة والتبابعة والملوك والأقيال والأذواء والأقيان وكل الرئاسات الجاهلية الأخرى. وقد كانت هذه الرئاسات وراثية غالبًا، لذا كانت رئاسة القبيلة بالوراثة أيضًا، تنتقل الرئاسة من الأب إلى الابن البكر. ويؤيد هذا الاستنتاج ما نجده في أكثر روايات القبائل، وتولي الأبناء رئاستها بعد الآباء^(٢).

١- ينفي عبد العزيز الدوري طريقة الوراثة في رئاسة القبائل، ويحتج على ذلك بقوله: "لأن ظروف الحياة في القبيلة كانت تتطلب أن يقودها ألمع أفرادها وأقدرهم". عبد العزيز الدوري: النظم الإسلامية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ٢٠٠٨م، ص ١٦.

٢- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٣٤٩.

وأما أنها بالنص والتعيين، فكالذي ذكروه من اختيار حصن بن حذيفة بن بدر الفزاربي ابنه عيينة لرئاسة قومه من بعده. ولم يكن عيينة أليق من غيره من إخوته العشرة بأن يكون سيد قومه، وكان حصن بن حذيفة قد طعنه كرز بن عامر العقيلي، فاشتد مرضه وشعر بدنو أجله، فاستدعى أولاده، وأراد أن يمتحنهم من يطيعه بعد موته، فسألهم أن يقتلوه بأن يضعوا سيفه في صدره فيقتلوه، فأبوا جميعاً، وكان جوابهم: وهل يقتل الرجل أباه! إلا ما كان من عيينة قال له: "يا أبت، أليس لك فيما تأمرني به راحةٌ وهوى، ولك فيه مني طاعة؟ فمُرني كيف أصنع؟ قال: ألقِ السيف يا بُني؛ أنت خليفتي ورئيس قومك من بعدي. ثم قال لقومه بني بدر: لوائي ورياستي لعُيينة"، فسمعوا له وأطاعوه، ثم أوصاهم بما يجب أن يفعلوه على عادات السادات عند اشتداد المرض بهم وشعورهم بدنو أجلهم، من وجوب التكتل والتهيؤ للقتال، وعدم التجرؤ على الملوك؛ فإن أيديهم أطول من أيدي الرعية^(١).

وأما أنها شورى ورأي وانتخاب، فعند عدم وجود عقب للرئيس المتوفى، أو عند وجود تنافسٍ وتباغضٍ بين أبناء الرئيس المتوفى بسبب

١- الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات، ص ٥٠٠؛ الشريف المرتضى: الأمالي، ج ١، ص ٥٣٠-٥٣١؛ ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٤، ص ٦٤٠.

كونهم من زوجاتٍ مختلفاتٍ فيما بينهن، فيُخشى عندئذٍ من انقسام القبيلة على نفسها، ويُحسم الخلاف باختيار أحزم الأبناء أو تنصيب رجلٍ قريبٍ أو بعيدٍ عن الرئيس، يجدونه أهلاً وكفوّاً لتوليّ الرئاسة فيولّونها إياه. وقد يلجأون إلى الرأي في حالة تشتت شمل القبيلة، بظهور رجالٍ ذوي شرفٍ فيها، لهم كفاءاتٍ وشهرةٍ تفوق شهرة أسرة الرئيس المتوفى يطمعون في الرئاسة، فينتخبون أكفأهم وأقواهم ليكون الرئيس الجديد. وقد لا تجتمع كلمة المتنافسين على الرئاسة ولا تتفق على اختيار رئيس، فلا يكون أمام القبيلة في مثل هذه الحالة سوى اللجوء إلى الملوك في الغالب لتعيين رئيسٍ عليهم يختارونه من جماعتهم وينصّبونه سيّداً عليهم. إلا ما كان من شأن قبائل معدّ في الغالب؛ إذ كانت قبائلها متبدّية متنافرة ذات رؤساء متحاسدين لا يقرّون برئاسة واحد منهم، لذلك كانوا يلجأون إلى ملوك اليمن لتعيين رئيسٍ من غيرهم عليهم، وبذلك يجلُّ الخلاف^(١).

على أن هذه السيادة التي كانت بالشورى والانتخاب والرأي أو بالنصّ والتعيين لم تكن مذهب العرب ودينهم أبداً؛ إذ نجد في شعر عامر بن الطفيل الهوازني الكلابي العامري - وهو أحد مشاهير فرسان

١ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٣٤٩-٣٥٠.

العرب وساداتها - تغنيًا بفعاله وبشجاعته وبدفاعه عن قومه، وتبجُّحًا بسيادته على قبيلته، واعتزازًا بأن سيادته هذه لم تأتِ عن وراثته، وإنما جاءت بفعاله وبدفاعه عن قومه وبذِّبَه عن حماهم، فسوِّدوه عليهم من أجل هذه الخلال، ولم يسوِّدوه لأنه ابن سيد بني عامر؛ إذ يقول:

وإني وإن كنتُ ابنَ سيدِ عامرٍ وفي السرِّ منها وفي الصريحِ المهذبِ
فما سوِّدتني عامرٌ من وراثته أبى الله أن أسمو بأُمِّ ولا أبِ
ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمني من رماها بمنكبِ^(١)

وفي هذا الشعر دلالةٌ على أن الرئاسة كانت بالوراثة، وأن الطفيل - والد عامر - كان سيِّدًا، فأراد عامرٌ أن يتبجَّح بنفسه على غيره بأنه ليس من أولئك الرؤساء الذين يرثون السيادة، فلا دخل لهم بمجيئها إليهم، وإنما أخذها عن جدارة واستحقاق، ولو لم يكن أبوه سيِّدًا لجاءته السيادة تسعى؛ لما فيه من محامد ومكارم. فسيادته سيادة وراثته لأنه ورثها عن أبيه، وسيادة جدارة لما فيه من خصال الشرف.

١- ديوان عامر بن الطفيل العامري، جمع وتحقيق: عمر فاروق الطباع، بيروت، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٤م، ص ٢١؛ ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، ج ١، ص ٣٢٩؛ المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ج ١، ص ٢١٢؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٩١.

وقد ظهرت بعض العوائل التي أنجبت عدة شيوخ، فصار يُعترف لها بنوع من السيادة. ويُلاحظ أن شيخ القبيلة لم يكن له مطلق الحرية في إدارة القبيلة؛ فهو ابتداءً لا بد أن ينال رضا أفراد القبيلة، إذ أن بعض القبائل لم تكن تحبّد مبدأ الوراثة في تولية شيخ القبيلة، فقد يعزلون شيخ القبيلة إذا أحسّوا منه بهذا الميل؛ لأنه يؤدي إلى تقييد حرية البدوي، ويولّون رئيسًا آخر من أسرة أخرى، أو أن تنتقل الرئاسة إلى ابن أخيه أو إلى فخذٍ آخر^(١). ويظهر أن الذين توالى الرئاسة في نسلهم ثلاثة أجيالٍ نادرة. وقد علّل ابن خلدون ذلك بقوله: "إن الرئاسة تأتي من قوة العصبية، وشرف النسب والخلال الكريمة، وهذه خلال تضعف من الابن إلى الحفيد، حتى إذا كان الرابع ابتعد عن طريقهم، وأضاع الخلال الكريمة الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها، وتوهم أن ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف، وإنما هو أمرٌ واجبٌ لهم منذ النشأة بمجرد انتسابهم، فيربأ بنفسه عن أهل عصبيته، ويرى الفضل له عليهم"^(٢).

وقد لاحظ ابن خلدون أن بقاء الرئاسة في بيتٍ واحدٍ أمرٌ في غاية الصعوبة؛ لذا فقد توصّل أن نهاية الحسب في العقد الواحد أربعة آباءٍ في

١- صالح أحمد العلي: محاضرات في تاريخ العرب، الموصل، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ط ١، ١٩٨١م، ص ١٥٧؛ إبراهيم أحمد العدوي: النظم الإسلامية، ص ١١-١٢.

٢- ابن خلدون: المقدمة، ج ٢، ص ٤٩٢.

الغالب^(١). وعَلَّل ذلك بما نقله عن أبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م) أن كسرى سأل النعمان بن المنذر: هل في العرب قبيلة تتشرف على قبيلة؟ قال: نعم، قال: بأي شيء؟ قال: مَنْ كان له ثلاثة آباءٍ متواليَّة رؤساءٍ، ثم اتصل ذلك بكمال الرابع، فالبيت مَنْ قبيلته فيه، ويُنسب إليه. فطلب ذلك فلم يجده إلا في خمسة بيوت: آل حذيفة بن بدر الفزاريين بيت قيس عيلان، وآل ذي الجدين بيت شيبان، وآل الأشعث بن قيس من كندة، وآل حاجب بن زرارة، وآل قيس بن عاصم من تميم^(٢).

وفي ضوء ما تقدَّم يمكننا القول أن العرب كانوا يأخذون بمبدأ الوراثة في اختيار سيد القبيلة عند توافر شروط السيادة في ابن سيد القبيلة المتوفى، ولكن عند عدم توافر هذه الشروط فإنهم يلجأون إلى انتخاب رئيسٍ لهم من بين الأشخاص الذين تتوافر فيهم هذه الشروط سواء من بيته أو من أحد البيوت الشريفة الأخرى.

والرئيس الناجح، هو الرئيس الفطن الذي تكون له قدرة وقابلية على التصرف بذكاءٍ وحذرٍ وفقاً لعقلية القبائل؛ فيعرف كيف يعامل كل

١- ابن خلدون: المصدر نفسه.

٢- الأغاني، ج ١٧، ص ١٠٦-١٠٧؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٩٣.

شخصٍ يأتي إليه المعاملة التي تلائمه وتليق به: بحلمٍ وبصبرٍ وأناةٍ،
وبقسوةٍ وغلظةٍ لإخافة أتباعه أحياناً، ولخوف القبائل من الباطش
الغشوم. على ألا يسرف في ظلمه، ويؤمن في غيِّه، فيقع له ما وقع
لكليب وائل وأمثاله من الذين أسرفوا في الاعتماد على أنفسهم وعلى
قابليتهم، فأهلكوا أنفسهم. ولهذا كان شأن عُقلاء سادة القبائل عرض
المنازعات والخصومات القبلية للحكم فيها، وبذلك يخلصون أنفسهم
من مشكلاتٍ صعبةٍ كانت ستقع تبعثها على أكتافهم فيما انفردوا بالنظر
فيها دون سائر الرؤساء^(١).

ومثلما كان لسيد القبيلة حقوق كان عليه واجبات، فمن واجباته
أن يعمل على تحقيق أهداف القبيلة التي يعجز كل فردٍ من أفرادها
لوحده عن الاضطلاع بها. وعلى شيخ القبيلة أن يقوم بإدارة شؤون
قبيلته فيعين الضعفاء والمنكوبين، ويفتح بيته لإقامة ضيوف القبيلة
ومندوبي القبائل الأخرى، وإجارة المستجيرين الذين يلجأون إلى
القبيلة^(٢). فشيخ القبيلة - على ما ذكرنا - أبٌ لكل أفرادها، وليس ملكاً
متسلطاً عليها، وإلى ذلك يشير معاوية بن مالك سيد بني كلاب:

١ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٣٥١.
٢ - أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، ص ٢٨؛ عبد العزيز
الدوري: النظم الإسلامية، ص ١٦.

نعطي العشيْرَةَ حَقَّهَا وحقِيقَتِهَا فيها، ونغفر ذنبها، ونسودُّ
 وإذا تُحَمَّلْنَا العشيْرَةَ ثقلها قمنا به، وإذا تعود نعودُ
 وإذا نوافق جراًة أو نجدةً كنا سُمِّيَ، بها العدوُّ نكيْدُ
 بل لا نقول إذا تبوأ جيرةً: إن المحلَّةَ شعبها مكدودٌ^(١)

ولم يكن هذا بواجب هيِّن، بل كان على سيد القبيلة تحمُّل الكثير من التضحيات، ومن أمثلة ذلك ما ذكِرَ عن سلمى بن نوفل الديلي - سيد كنانة - حين اعتدى رجلٌ على ابنه وابن أخيه فجرحهما، فأرسل إليه وسأله: "ما الذي فعلت؟ أما خشيت انتقامي؟ قال: فلم سؤدناك إذن، إلا أن تكظم غيظك، وتعفو عن الجاني، وتحلم عن الجاهل، وتحمّل المكروه في النفس والمال؟ فخلّى سبيله"^(٢).

وكان يقع على عاتق سيد القبيلة اختيار منازل قبيلته إذا كانت بدوية؛ فقد رُوِيَ أن كليب وائل "كان هو الذي يُنزلهم منازلهم

١- الأصمعي (أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك): الأَصْمَعِيَات، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، دار المعارف ط٥، د.ت، ص ٧٥ المفضل الضبي: المفضليات، ص ٣٥٥-٣٥٦.

٢- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٢٨؛ أبو بكر القاضي (أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري المالكي): المجالسة وجواهر العلم (١٠ ج)، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، بيروت، دار ابن حزم - جمعية التربية الإسلامية، ط ١، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م، ج ٢، ص ١٧٧.

ويُرَحِّلهم، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره"^(١)، كما كان "لا يُحمى حمى إلا بأمره، وكان إذا حمى حمى لا يُقرب"^(٢). أما إذا كانت القبيلة حضرية من أهل المدر، فإن عليه تنظيم سكناهم وإدارة شئونهم العامة، كما فعل قصيُّ بن كلاب القرشيُّ حين ولي أمر مكة "جمع قومه من منازلهم إلى مكة، وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه... فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، فحاز شرف مكة كله، وقطع مكة رباعاً بين قومه، فأنزل كل قومٍ من قريش منازلهم من مكة التي اصطلحوا عليها"^(٣).

ولما كانت المنازعات والخصومات بين البشر من طبيعتهم ومن شيم النفوس التي جُبلوا عليها، فإنه لم يُحلَّ مجتمعٌ من المجتمعات من الخصومات والمنازعات. لذا فإن من أهم واجبات رؤساء القبائل أن يعملوا على حلِّ الخلافات وتسوية المنازعات التي تنشأ بين أفراد القبيلة^(٤). ولم تساعد بساطة الحياة في شبه الجزيرة العربية على نشأة

١- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ٥، ص ٣٤.

٢- أبو الفرج الأصفهاني: المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٥؛ الثعالبي: ثار القلوب في المضاف والمنسوب، ص ١٠٠؛ الزمخشري: المستقصى في أمثال العرب، ج ١، ص ٢٤٦.

٣- ابن هشام: سيرة النبي ﷺ، ج ١، ص ١٢٤-١٢٥؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٥٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٢٣٦-٢٣٧؛ التقي الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج ٢، ص ٨٤-٨٥؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٤، ص ٢٢١.

٤- ابن خلدون: المقدمة، ج ٢، ص ٥٠٠-٥٠١.

قوانين ومؤسساتٍ إداريةٍ وقضائيةٍ لإدارة المجتمع وتطبيق قوانين العدالة بين الناس. لذا فقد تولى رؤساء العشائر والقبائل هذه المهمة، فكانوا يقومون بتسوية المنازعات استنادًا إلى ما استقرَّ في مجتمعهم من أعرافٍ وتقاليدٍ^(١).

وكانت أصعب المسائل التي تواجه أفراد القبيلة أنه حينما يرتكب أحد أفرادها جناية قتل ضد أحد أبناء قبيلةٍ أخرى، وذلك لأن العُرف يقضي بقتل القاتل، ومن ثمَّ تواجه القبيلة مأزقًا كبيرًا يهدد وحدتها، إذ كيف تسمح لنفسها بقتل أحد أبنائها وهي المكلفة بحمايته وحفظ دمه. لذلك كانت تلجأ القبيلة في مثل هذه الحالة إلى خلع الجاني وطرده منها، فيصبح مذمومًا مهدور الدم، لا أحد يحميه أو يدافع عنه، فربما يضطر إلى أن يتحوَّل إلى قاطع طريق أو أن يلتجئ إلى قبيلة الأخرى طالبًا حمايتها والانتساب إليها. وعلى الرغم من ذلك فقد كان على سيد القبيلة تقع كل جنايةٍ يجنيها أبناء القبيلة؛ فهي وإن صدرت من غيره لكنها تقع في النهاية على رأسه، فعليه وحده إيجاد حلِّ لها. ومن هنا كانت العربُ تكنِّي عن سيد القبيلة بقولها: «سيد مُعَمَّم»، يريدون أن كل جنايةٍ يجنيها جانٍ من قبيلته معصوبة برأسه^(٢).

١- صالح أحمد العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص ١٥٨-١٥٩.

٢- الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢، ص ٦٤؛ ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، ج ١، ص ٢٢٦؛ الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص ٢٨٢؛ صالح أحمد العلي: المرجع السابق، ص ١٦٢-١٦٣.

هذا ما كان على شيخ القبيلة أن يفعله في حال السلم، أما في الحرب فهو يتقدّم الصفوف، ويساعد من لا عتاد له، ويضع خطط المعركة، وأن يكون رمزاً لأفراد قبيلته وبعثاً لهممهم، ومن ثمّ كانت الشجاعة من ألزم الصفات له؛ فقد سأل عبد الملك بن مروان ابن مطاعِ العنزّي عن مالك بن مَسُوع البكريّ، فقال: "لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه في أي شيء غضب. فقال عبد الملك: هذا والله السؤدد"^(١). وقد كان بعض رؤساء القبائل من الأبطال والفرسان، لذا كانوا يفخرون بالدفاع عن قومهم، يعبر عن ذلك قول عامر بن الطفيل: ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب^(٢) أما إذا لم يكن رئيس القبيلة فارساً، خاصةً إذا كان متقدماً في السن فإن له أن يعقد القيادة في الحرب إلى أحد فرسان القبيلة، لذا يذكر ابن إسحاق أن قريشاً لم تكن تعقد لواءً لحرب إلا في دار قصي بن كلاب، كما ذكر أن قصياً حينها عهد لابنه عبد الدار بزعامة قريش قال له: "ولا يُعقد لقريشٍ لواءٌ لحربها إلا بيدك"^(٣).

١- ابن قتيبة الدينوري: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٨؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٨٧؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج ٦، ص ٩١.

٢- ديوان عامر بن الطفيل العامري، ص ٢١؛ ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، ج ١، ص ٣٢٩؛ المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ج ١، ص ٢١٢؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٩١.

٣- ابن هشام: سيرة النبي ﷺ، ج ١، ص ١٣٣، ١٣٦؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١،

هذا وللسن أهمية كبيرة عند العرب؛ لأن الإنسان إذا ما تقدّمت
سنه ازدادت حكمته وتجاربه في الحياة ورجّح عقله، لذلك يكون مرجعاً
لمن هو دونه في العمر، وملاًداً في المشورات، ويعبّر عنهم بالذوي
الأسنان^(١)، وهم الطبقة الذكية الفطنة المجربة من ذوي المكانة في
الناس، لذا نجد القبائل تتمسك بأخذ الرأي والمشورة من ساداتها
المسنين وحكائها المعمّرين؛ لأنهم عركوا الحياة وخبروها وعرفوا ما
فيها من حلّ ومُرٍّ، لذلك جعلوهم في الطبقة العليا من الناس.

ويرى جواد علي أن الذي يجمع شمل العرب ويقوّيها ويأخذ بيدها
ثلاثة أركان: إله أو آلهة، يدافع عنها أو تدافع عن الحاكم ورعيته؛
وحاكم قد يكون كاهناً أو ملكاً أو أميراً أو سيد قبيلة، واجبه حكم
رعيته وسياستهم وإرشادهم وقيادتهم في السلم والحرب؛ ثم رعية طيعة
طائعة تدين بالولاء للآلهة وللحكّام، ليس لها الاعتراض على (حقّ
الحكم)؛ لأنه حقّ إلهيٌّ مقرّر، ولا اعتراض على قدر الآلهة ومقدّراتها،
ومن يُخالف أوامر السلطان، كان عاصياً كمن يُخالف أمر ربّه، خارجاً
عن سواء السبيل، فيجب تأديبه، ولو بالقتل؛ لأن جزاء من يخرج على
أمر الآلهة القتل^(٢).

ص ٥٨؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٢٥٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣،
ص ٢٣٧.

١- المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١٣، ص ٢٢٢.

٢- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ١٨٥.

الفصل الثالث

حقوق سيد القبيلة ومكاته

تشير المصادر إلى أن القانون القبلي ضمن لرئيس القبيلة مجموعة من الحقوق الأدبية والمادية. فأما المادية: فهي مجموعة الامتيازات التي يمتاز بها سيد القبيلة عن أفراد قبيلته، فله المربع وهو ربع المغنم التي تحصل عليها القبيلة في الحرب^(١)، وأخذ المربع هو من أمارات الفخر والجاه والرئاسة عند العرب، ولذلك كان يتباهى به من له هذا الحق، ويفتخر أهله بهذا الحق، لأنه من أمارات الرئاسة ودلائل الشرف^(٢). وقد افتخر الزبيرقان بن بدر التميمي أمام النبي ﷺ بذلك، حين قال:

نحن الكرامُ فلا حيُّ يعادلنا منا الملوك، وفينا يُقسم الربع^(٣)
 أي أنهم كانوا يأخذون ربع الغنيمة خالصاً لهم. وكان عدي بن حاتم الطائي ممن يأخذ المربع^(٤)، ويروى أن النبي ﷺ قال له: «إنك

١- مجد الدين ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج ٢، ص ٦٢؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٩، ص ٤٥٧؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٥، ص ٣٤٠.

٢- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٢٦٤-٢٦٥.

٣- ابن هشام: سيرة النبي ﷺ، ج ٤، ص ٢٠٨؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ١١٦؛ ابن عساکر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٩، ص ١٨٨، ج ١٠، ص ٢٧٣، ج ١٢، ص ١٠٩، ج ٤٠، ص ٣٦٢؛ مجد الدين ابن الأثير: المصدر نفسه؛ ابن منظور: المصدر السابق، ج ٨، ص ١٠١.

٤- ابن هشام: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٧٨؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج ٤، ص ٣٧٨؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٦٤٢؛ الطبري: المصدر السابق، ج ٣، ص ١١٢؛ المرزباني: معجم الشعراء، ص ٢٥٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٥، ص ٦٣-٦٤.

لتأكل المربع وهو لا يجل لك في دينك»^(١). ومن أكل المربع: عامر الضَّحْيَان بن سعد بن الخزرج النمريُّ، وكان سيد بني النمر بن قاسط وصاحب المربع فيهم^(٢).

والمربع حقٌّ قديمٌ نجده عند أكثر القبائل، وظلَّ إلى مجيء الإسلام لا يستطيع أحدٌ من القبيلة أن ينازعها فيه، فكان آل الحارث بن عبد الله بن بكر بن يشكر المعروفون بالغطاريف يأخذون ربع ما يغنم الأزد؛ لأن الرئاسة في الأزد كانت لهم^(٣). وقد عُرفَ سادات القبائل الذين يأخذون المربع بـ«ذوي الآكال»^(٤)، ولهم مقامٌ عندهم بالطبع، ومن ثمَّ

١- ابن هشام: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٨١؛ ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٦٤٥؛ أحمد بن حنبل: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٥٧؛ الطبري: المصدر السابق، ج ٣، ص ١١٤؛ ابن عساکر: المصدر السابق، ج ٤٠، ص ٧٤-٧٥؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٤٦.

٢- ابن حبيب: أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام، ص ٤١؛ ابن دريد: الاشتقاق، ص ٢٠٢؛ ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، ص ٣٠١؛ السمعاني: الأنساب، ج ٥، ص ٥٢٥.

٣- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١٢، ص ٤٨.

٤- ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا): المعجم في اللغة، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، بيروت، مؤسسة الرسالة ط ٢، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ١٠٠؛ نشوان الحميري (أبو الحسن وأبو سعيد نشوان بن سعيد بن سعد بن أبي حمير): شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (١١ج)، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري وآخرون، دمشق، دار الفكر، ط ١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ج ١، ص ٢٩٣؛ السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٤١٣.

مُنحوا امتيازاتٍ في المغنم فَوَقَّتْهم على سائر الناس. وذوو الآكال: سادة الأحياء الآخذين للمرباع وغيره. قال الأعشى:

حولي ذوو الآكالٍ من وائلٍ كالليلِ ذو بادٍ وذو حاضرٍ^(١)

وقد ذكرهم محمد ابن حبيب البغداديُّ (ت ٢٤٥هـ / ٨٥٩م) فقال: "ذوو الآكال من وائل. وهُم أشراف، كانت الملوك تقطع لهم القطائع. فأما مُضَر، فكانوا لقاحًا لا يدينون للملوك إلا بعض تيم ممن كان باليامة وما سابقها. فذوو الآكال: قيس بن مسعود [الشيبياني]... وكان كسرى أطعمه الأبلَّةَ وثمانين قريةً من قراها. ويزيد بن مُسَهِر [الشيبياني]... والحارث بن وَعَلَةَ [الذُّهلي]"^(٢).

ولسيد القبيلة حَقُّ آخر مفروضٌ على قبيلته، هو حَقُّ «الصفايا»، وهو ما يصطفيه رئيس القبيلة لنفسه من الغنيمة من فرسٍ وسلاحٍ وجارية وغير ذلك من الأموال قبل القسمة. وقد اصطفى النبي ﷺ سيفَ مُنَبِّه بن الحجاج يوم بدر، وهو ذو الفِقَار، وكانت صفية بنت

١- ديوان الأعشى الكبير، ص ١٤٥؛ أبو مسحل الأعرابي: النوادر، ص ٧٩؛ ابن دريد: جمهرة اللغة، ج ٢، ص ٥٠٦؛ ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج ١، ص ١٢٤؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٧، ص ٢١٠.

٢- ابن حبيب: المحبر، ص ٢٥٣.

حَيِّي في جملة الصفايا التي اصطفاهَا ﷺ لنفسه يوم خيبر. وقيل: الصفايا: ما يصطفيه الرئيس لنفسه دون أصحابه، وما لا يستقيم أن يُقسم على الجيش لقلته وكثرة الجيش. وظلَّ الصفيُّ في الإسلام على تلك الحالة^(١).

ثم له حقُّ النشيطة، وهو ما أصاب من الغنيمة قبل أن يصير إلى مجتمع الحي. وقيل: النشيطة من الغنيمة، ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصير إلى بيضة القوم. وقيل: ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل بلوغهم المواضع التي قصدوها، أو ما نشط من الغنائم، ولم يوجفوا عليه بخيلٍ ولا ركابٍ^(٢).

وأما الفضول، وهو حقٌّ آخر من حقوق سيد القبيلة، فهو ما عجز أن يُقسم لقلته وما فَضِّلَ عن القسم فيخصص به، كالبعير والفرس ونحوهما^(٣).

١- أبو يوسف القاضي (يعقوب بن إبراهيم بن حبيب البجلي الكوفي): الخراج، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ١، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ٢٢؛ ابن قتيبة الدينوري: المعاني الكبير، ج ٢، ص ٩٤٨؛ مجد الدين ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج ٢، ص ٢٦٨، ٢٩٢؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٩، ص ٤٥٧؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٥، ص ٢٣٢، ج ١٠، ص ٢١١.

٢- ابن قتيبة الدينوري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٤٩؛ ابن منظور: المصدر السابق، ج ٧، ص ٤١٤؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٣١.

٣- ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، ج ٢، ص ١٣٧؛ ابن منظور: المصدر السابق، ج ٧،

وقد أُشيرَ إلى حقوق سيد القبيلة المذكورة في بيتٍ منسوبٍ إلى الأَفوه الأوديِّ، أو إلى عبد الله بن عَمَّة الضبيِّ يرثي بسطام بن قيس الشيبانيَّ:

لك المرباعُ منها والصفايا وحُكمك والنشيطة والفضولُ^(١)
كذلك كان لسيد القبيلة حقُّ الحِمى، وهو من أمارات عزّه وشرفه وسيادته. فقد كان من حقه إذا مرَّ برمضةٍ أو بغديرٍ أو أرضٍ أعجبه، أعلن حمايته عليها أو إلى جزءٍ معيّنٍ منها يعينّه ويشتهه، فلا يقترب أحدٌ من ذلك الحد، وهو في ذلك مثل الملوک في هذا الحق. ولهذا لا يتمتع بهذا الحق إلا سادات القبائل الكبار أصحاب العز والجاه وكثرة العدد، مثل كليب وائل سيد مُصَر وربيعة، وكان من عزه أنه إذا مرَّ بمكانٍ أعجبه كَنَع كليباً له ثم رمى به هناك في وسط الأرض، فلا يسمع عواء ذلك الكليب أحدٌ فيقترب من الموضع، فكان يُقال: «أعزُّ من كليب وائل»^(٢).

ص ٤١٤، ج ١١، ص ٥٢٥؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٦٣.
١- الأصمعي: الأصمعيات، ص ٢٨؛ أبو تمام (حبيب بن أوس بن الحارث الطائي): ديوان الحماسة، تحقيق: أحمد حسن بسج، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ص ١٨٣؛ ابن قتيبة الدينوري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٤٨؛ أبو منصور الأزهري: تهذيب اللغة، ج ٢، ص ٣٦٩، ج ١١، ص ٣١٤.
٢- الفضل بن سلمة (أبو طالب الفضل بن سلمة بن عاصم الضبي): الفاخر في الأمثال، تحقيق: محمد عثمان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠١٢م، ص ٧٥؛ ابن عبد ربه:

وذكر أن كليباً كان متغطراً، حتى كانت غطرسته هذه سبب قتله. وإلى ظلمه وتعسفه وأخذه الحمى أشار العباس بن مرداس السلمي بقوله:

كما كان يبغيها كليبٌ بظلمه من العز حتى طاح وهو قتيلاً
على وائلٍ إذ يترك الكلبَ نابحاً وإذ يمنع الأقنأءَ منها حلولها^(١)
ويرى جواد علي أنه لا يُعقل أن يكون كليب وائل أول من حمى
جمي في الجاهلية. ويرى أن شطط كليب وتعسفه في الإكثار من الحمى،
وشدة منعه الناس الغرباء من الرعي في أممائه، جعل أهل الأخبار
ينسبون مبدأ الإهماء إليه. وقد تكون لفظة كليب التي صارت وكأنها
اسم كليب - مع أنها لقب في الأصل - هي ما أوحى إلى أهل الأخبار
بابتكار قصة استنباح كليب جرّوا؛ ليكون مدى انقطاع سماع نباحه
وعوائه نهاية الحمى، أي حدوده. ونجد بعض الأخباريين يجعلون
حدود الحمى المواضع التي تصل إليها الخيل وهي جارية، فتقف عندها
من التعب. فيكون الحمى بهذه الطريقة أكبر وأوسع من الحمى المحدد
بنباح كلب^(٢).

العقد الفريد، ج ٦، ص ٧٠؛ عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ٢، ص ١٤٦.

١ - الجاحظ: الحيوان، ج ١، ص ٩٧؛ الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٦٣؛ الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج ٣، ص ٣٢.
٢ -: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٢٧٠.

وعلى كل حالٍ، فإنَّ الحِمَى، هو الأرض التي تُحمى من الناس فلا يُرعى فيها إلا بموافقة مَنْ حماها. وجعله بعضهم: موضعٌ فيه كلاً يُحمى من الناس أن يُرعى. وذكروا أنه "كان الشريف من العرب في الجاهلية إذا نزل بلدًا في عشيرته استعوى كلبًا فحمى لخاصته مدى عواء الكلب لا يشركه فيه غيره، فلم يرعه معه أحد" (١).

ويظهر من غرابة الأخبار الواردة عن الحِمَى أنه كان على نوعين: حِمَى دائم أو طويل الأجل، وهو الأرض المخصصة الجيدة المنتبة التي تتوفر فيها المياه، أو تكون المياه فيها قريبة من سطح الأرض، فينتقيها كبار سادات القبائل ويجعلونها حِمَى دائماً لهم ولأسراتهم، وقد يجولونه إلى مُلكٍ لهم، يتوارث توارث الإرث، ويكون لمن هو من الأسرة التي حمته، أو لمن خصص الحِمَى باسمه. ومن هذا القبيل: «حِمَى صَرِيَّة»، وهو مراعي إبل الملوك (٢). وحِمَى آخر يكون قصير الأجل بالنسبة للحِمَى الأول؛ فقد يُحمى لموسمٍ وقد يُحمى لمواسم، فأجله مرتبطٌ بأجل

١- الشافعي (أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس القرشي المطليبي): الأم (١١ ج)، تحقيق: رفعت فوزي عبد المطلب، المنصورة، دار الوفاء، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ج٣، ص٢٧٠؛ الأزهري: تهذيب اللغة، ج٢، ص٢٠٥؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٠٨؛ مجد الدين ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج١، ص٢٩٧؛ ابن منظور: لسان العرب، ج١٤، ص١٩٩؛ السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ج٢، ص٢٢٤؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج١٠، ص٩٩.

٢- ابن منظور: المصدر نفسه؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج١٠، ص١٠٠.

الغيث الذي ينزل عليه. فإذا جادت السماء وأنبتت الأرض بقي حامي الحمى به، وإن انحسب المطر وجفَّ كل شيء به وظهرت عبوسة الرمال فقد يهرب حاميهِ منه ليفتس عن أرضٍ أخرى يعيش عليها، فيصير الحمى عندئذٍ بلا حامٍ، إلا إذا عاد الغيث إليه، وعاد صاحبه ليجدد العهد به ويثبت حقَّ حمايته عليه، وإلا فقد يصير في حماية شخص آخر قد ينزل به قبله، ويكون لديه من القوة والمنعة ما لا يستطيع أحد من زعرته عنه^(١).

ولا بد وأن تحدّد حدود الحمى وأن تثبت له أنصابٌ وعلامات؛ ليكون الناس على بينة من حدوده فلا يدخلونه. ونجد في الكتب التي دونها النبي ﷺ للوفود التي زارته، والتي حمى لها أحمية، حدوداً ومعالم دُوّنت أسماؤها فيها، وقد تثبت مساحتها في بعض الكتب، مما يدلُّ على أن ما يرويه أهل الأخبار من قصة تعيين حدود الحمى بعواء كلبٍ أو بر كضة فرسٍ قد تكون من مختلقات أهل الأخبار.

ومن أشهر مواضع الحمى في شبه الجزيرة العربية: حمى صرّية، وقد عُرِفَ في أيام ملوك كِنْدَةَ بـ«الشرف» وهو «كبد نجد»، وكانت به منازل الملوك من بني آكل المرار، ثم عُرِفَ بـ«صرّية» في وقتٍ لاحقٍ لا نستطيع تحديده تماماً. ويذكر علماء اللغة أن صرّية امرأة سُمِّيَ الموضع

١ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٢٦٨.

بها، وهو بأرض نجد، وبه بئر. ويظهر أن اسم ضَرِيَّة كان معروفاً في أيام ملوك كندة من بني آكل المرار، ولكنه كان اسم موضعٍ من مواضع الشرف ثم اشتهر به، فسُمِّيَ به هذا الحِمَى: حِمَى ضَرِيَّة. وذكر بعض أهل الأخبار أن ضَرِيَّة أكبر الأحماء، وسُمِّيَ بِضَرِيَّة بنت ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان^(١). وقال الأصمعي وابن السكيت (ت ٢٤٤هـ/ ٨٥٨م): "الشرف: كبد نجد، وكان من منازل الملوك من بني آكل المرار من كندة. وفي الشرف حِمَى ضَرِيَّة، وضَرِيَّة بئر. وفي الشرف الرَبْدَة، وهي الحِمَى الأيمن"^(٢). ويظهر من هذا الوصف أن الشرف أرضٌ واسعةٌ بنجد، منها الرَبْدَة، وهو الحِمَى الأيمن لمن يتجه إلى الجنوب فيوجّه وجهه نحو بحر العرب، ويجعل قفاه إلى العراق وبادية وبلاد الشام، ومنها حِمَى ضَرِيَّة الشهير^(٣).

١- البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٢٢؛ أبو عبيد البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج ٢، ص ١٣٤؛ الخطيب التبريزي (أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني): شرح ديوان الحماسة (٢ج)، تحقيق: غريد الشيخ وأحمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج ١، ص ٦٠٧؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٥١٩.

٢- ابن دريد: الاشتقاق، ص ١٨٠؛ أبو عبيد البكري: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٥؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٢١؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٩، ص ٢٠٩؛ السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ج ٢، ص ٢٢٣؛ ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٥، ص ٤٤؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٦، ص ١٥٢.

٣- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٢٦٨.

ومن الحَمَى: حَمَى فِيد، قُرب أجأ وسلمى جلي طيء، على طريق حاج العراق إلى مكة. وَذَكَرَ أَنَّ فِيداً فَلَائَةً فِي الْأَرْضِ بَيْنَ أَسَدٍ وَطَيْءٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا قَدِمَ زَيْدُ الْخَيْلِ بْنِ مَهْلَهْلِ الطَّائِيِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَقْطَعَهُ فِيد. وَبِهَا قَرْيَةٌ فِيدٌ مِنْ قَرْيَةِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَيُرَى بَعْضُ الْأَخْبَارِيِّينَ أَنَّهَا سُمِّيَتْ بِفَيْدِ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحٍ، وَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ نَزَلَهَا^(١).

وقد أشار ياقوت الحمويُّ إلى أحماءٍ أخرى؛ منها: حَمَى الرَبْدَةِ، وَحَمَى النَّيْرِ، وَحَمَى ذِي الشَّرَى، وَحَمَى النَّقِيعِ^(٢). وَفِي أَرْضِ بَنِي أَسَدٍ حَزْنٌ بَنِي يَرْبُوعٍ كَانَتْ تَرَعَى فِيهِ إِبِلُ الْمَلُوكِ، وَهُوَ قَفٌّ غَلِيظٌ بَعِيدُ الْمِيَاهِ، فَلَيْسَ تَرَعَاهُ الشِّيَاهُ وَلَا الْحُمْرُ، وَلَيْسَ فِيهَا دِمْنٌ وَلَا رُوثٌ، وَهُوَ أَطْيَبُ الْبَادِيَةِ مَرَعَى، وَإِلَيْهِ يَشِيرُ الْأَعْشَى بِقَوْلِهِ:

مَارَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزْنِ مُعْشِبَةٌ خَضِرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَاطِلٌ^(٣)

١- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٥٣؛ السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ج ٢، ص ٢٣١-٢٣٢؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٢، ص ٤٥٧.

٢- ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥٣، ج ٥، ص ٢٤٦، ج ٨، ص ٣١٢، ص ٣٥٦.

٣- ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، ج ٣، ص ٢٢٥؛ أبو عبيد البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج ٢، ص ٤٤١؛ ابن منظور: المصدر السابق، ج ١٣، ص ١١٣؛ عبد القادر البغدادي: خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ١١، ص ٣٠؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٧٤.

يرى جواد علي أنه من خلال دراسة ما أورده أهل الأخبار عن الحمى، أن الأحماء لم تكن بالأرض الصغيرة المحدودة بمدى سماع عواء الكلب، بل أنها كانت أكثر من ذلك بكثير؛ كانت مقاطعة تضمّ آباراً وعيوناً وقرى في بعض الأحيان، وقد حصل عليها أصحابها من الحروب والغزو في الأصل؛ فعندما يغزو سيد القبيلة قبيلة أخرى، كان يختار لنفسه خيرة الأراضي فيجعلها في حماه. فنشأ الحمى في الأصل من الغنائم التي تقع في يد المنتصر في الحرب، ومن الهبات التي يعطيها ملكٌ لقادته وأشراف شعبه فتحمى لهم، ولا يدخلها أحدٌ غيرهم، فصار حكمها حكم الملك^(١).

وأما حقوق سيد القبيلة الأدبية: فأهمها توقيره واحترامه، وطاعته والدفاع عن عرضه وشرفه^(٢)، وهو ما نعبر عنه هاهنا بالقداسة. وأغلب الظن عندي أن معتقدات العرب الاجتماعية قبل الإسلام، هي في مجملها موروثه من سلسلة أجيالٍ متعاقبةٍ عبر العصور، بعضها من العرب القدماء، ويمتدُّ بعضها الآخر إلى المعتقدات الاجتماعية لإنسان الشرق الأدنى القديم. لكن المعتقدات هذه بمجموعها تشكلت في اللاوعي الجمعي للعرب قبل الإسلام، فأعادوا تطويعها حسب

١- الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٢٧٠-٢٧١.

٢- ابن خلدون: المقدمة، ج ٢، ص ٥٠١.

واقعهم الموضوعي، وفي الأغلب وصلتنا متشكِّلةً بأساطير وخرافات كثيرة، منها تقديسهم لشخصيات ارتقوا بهم في الأغلب إلى مستوى التأليه.

أما الموروث المحلي لبدايات تقديس العرب قبل الإسلام للأشخاص، فتمثَّلت بعبادة الأسلاف التي عليها قوم نوح آنذاك، ويتجلَّى هذا المعتقد فيما ذكره ابن الكلبي: "كان [ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر] قومًا صالحين ماتوا في شهر، فجزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجلٌ من بني قاييل: يا قوم هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم غير أني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحًا، قالوا: نعم، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم، فكان الرجل يأتي... فيعظِّمه ويسعى حوله حتى ذهب ذلك القرن الأول... ثم جاء قرنٌ آخر فعظِّموهم أشد من تعظيم القرن الأول، ثم جاء من بعدهم القرن الثالث، فقالوا: ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله فعبدوهم وعظم أمرهم"^(١).

١- ابن الكلبي (أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب بن بشر بن عمرو): الأصنام، تحقيق: أحمد زكي باشا، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٣، ١٩٩٥م، ص ٥١-٥٢.

وفي سياق الدلالة نفسها عن تقديس الأسلاف وعبادتهم، ما نطالعه من قصة إساف وناثلة من أنهما رجلٌ وامرأةٌ زنيا بالكعبة، فمُسَخَّحًا حجريين، فأخْرِجَا من الكعبة ونُصِبَا على الصفا والمروة ليعتبر بهما مَنْ رآهما وليزدجر الناس عن مثل ما ارتكبا، فلم يزل أمرهما يدرس ويتقدم، حتى صارا صنمين يُعبدان، وقيل: إن عمر بن لُحَي دعا الناس لعبادتهما، بقوله: "إنما نُصِبَا هاهنا أن آباءكم ومَنْ قبلكم كانوا يعبدونها"^(١). ومن الروايات الأخرى عن تقديس الأشخاص وعبادتهم كأصنام، عبادة اللات، وذكروا أنه كان رجلاً صالحاً؛ ورووا عن مجاهد بن جبر (ت ١٠٤هـ / ٧٢٢م) قال: "كان رجلٌ في الجاهلية على صخرةٍ بالطائف، وعليها غنم، فكان يسلو من رسلها، ويأخذ من زبيب الطائف والأقط (لبن مجفف يابس)، فيجعل منه حيساً (خليط الأقط بالتمر يُعجن بالخبز)، ويُطعم مَنْ يمرُّ به من الناس، فلما مات عبده"^(٢). وعن ابن عباس قال: "إن اللات لما مات، قال لهم عمرو بن

١- ابن الكلبي: المصدر السابق، ص ٩؛ ابن هشام: سيرة النبي ﷺ، ج ١، ص ٨٢؛ الأزرقى: أخبار مكة وما فيها من الآثار، ج ١، ص ١٥٠.

٢- الفاكهي: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ج ٥، ص ١٦٤؛ ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٠، ص ٦٤٦؛ السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج ١٤، ص ٣١.

لُحْي: إنه لم يمّت ولكنه دخل صخرةً فعبدوها وبنوا عليها بيتاً وكانت اللات بالطائف" (١).

ولعلّ من المفيد أن نجدّ لظاهرة تقديس الملوك في الشرق الأدنى القديم، لما لها من تأثيرٍ تقادميٍّ على العرب في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، ففي بلاد الرافدين ترجع جذور تقديس العرب الملوك وسادة القبائل إلى عصر فجر السلالات السومرية (٢٨٠٠: ٢٣٧١ ق.م)، فاعتقد الإنسان العراقي القديم أن الملوكية لها أصلٌ إلهيٌّ؛ إذ جاء في قصة الطوفان السومرية ما نصّه: "بعد أن أنزلت الملكية من السماء، وبعد أن أنزل التاج والعرش الخاصان بالملكية من السماء" (٢).

ووفق أقدم وثيقة تاريخية هي أثبات الملوك السومرية التي يرجع زمنها إلى سلالة أور الثالثة (٢١١٢: ٢٠٠٤ ق.م) أو لعله قبيل ذلك، ما يشير إلى أن الملوكية هبطت من السماء، فكانت مدينة «أوريدو» مركز الملوكية، وفي الطوفان صعدت الملوكية ثانيةً إلى السماء، وبعد الطوفان هبطت وحلّت في مدينة «كيش» (٣).

١- الفاكهي: المصدر نفسه؛ ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج ٨، ص ٤٧٨؛ السيوطي: المصدر السابق، ج ٦، ص ١٦٣؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٣، ص ٤٢.

٢- صموئيل نوح كريم: من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، مراجعة وتقديم: أحمد فخري، بغداد، دار الوراق للنشر، ط ١، ٢٠١٠ م، ص ٢٦٧.

٣- طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (٢ ج)، بغداد، شركة بيت الوراق للنشر،

وكانت الآلهة تختار الملك وتنصّب حاكمًا على البلاد، كما في اختيار «جلجامش» (حكم في حدود سنة ٢٦٥٠ ق.م) - خامس ملوك أسرة الوركاء - إذ نقرأ في «ملحمة جلجامش» الشهيرة ما جاء على لسان «أنكيديو» صديق «جلجامش»: "إن رأسك عالٍ فوق جميع الرجال، وقدّر إليك «إنليل»^(١) الملكية على البشر"^(٢).

وقد ادّعى ملوك الشرق الأدنى القديم أنهم أبناء الآلهة، وهذا ما نجده في كتابات الملك «ميسليم» - حاكم مدينة «كيش» - (في حدود سنة ٢٥٠٠ ق.م)^(٣) ما نصه بأنه^(٤): "الابن المحبوب لـ«نخرساج»^(٥)".

-
- ط ٢، ٢٠١٢ م، ج ١، ص ٢٨٩-٢٩٠، ٢٩٩.
- ١- إنليل: وتعني بالسومرية السيد، وعُدَّ تجسيدًا للهواء الذي يفصل بين السماوات والأرض، وأنه نظّم الكون، وينفّذ أوامر الآلهة، وخالق البشر. سامي سعيد الأحمد: المعتقدات الدينية في العراق القديم، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، د.ط، ١٩٨٨ م، ص ٢١؛ نائل حنون: حينما في العلي - قصة الخليقة البابلية، دمشق، دار الزمان، د.ط، ٢٠٠٦ م، ص ٢٢٣.
- ٢- سامي سعيد الأحمد: جلجامش، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، د.ط، ١٩٩٠ م، ص ١٣٢.
- ٣- جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى والحضارات المبكرة، ترجمة: عامر سليمان، الموصل، د.ط، ١٩٨٦ م، ص ٨٤.
- ٤- طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج ١، ص ٣٠٦-٣٠٧.
- ٥- نخرساج: تمثل الأرض، ويعني اسمها سيدة الجبل، ولقبها المشهور: أم البلاد. صموئيل نوح كريم: السومريون - تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، ترجمة وتحقيق:

وفي العصر الأكدي (٢٣٧١: ٢٢٣٠ ق.م) اتخذ الملك ألقاباً إلهية؛ فقد تلقب الملك «نارام سين» (٢٢٩١: ٢٢٥٥ ق.م) بلقب «إله أكد»، وادّعى الألوهية، فكتب اسمه مسبقاً بالعلامة الدالة على الألوهية الدنكر (النجمة)^(١)، وارتدى لباس الآلهة، فتمثّل في المنحوتات بارتداء التاج المقترن^(٢). واستمر تلقيب الملوك في العراق القديم بألقاب إلهية، فلقب «ملك الجهات الأربع»، تلقب به الملوك: «نارام سين» و«أوتو حيكال» (حكم في حدود ٢١٢٠: ٢١١٢ ق.م)، وأحياناً «شولجي» (حكم في حدود ٢٠٢٩: ١٩٨٢ ق.م)، و«حمورابي» (١٧٩٢: ١٧٥٠ ق.م)^(٣).

وتجسّدت قدسية الملوك في الأساطير التي نُسجت عن مولد بعضهم؛ فالملك «سرجون الأكدي» (٢٣٤٠: ٢١١٢ ق.م) جاء من طقس الزواج المقدّس؛ إذ تقوم فيه المرأة بتمثيل دور الإلهة «عشتار»،

فصل الوائلي، بيروت، مكتبة الحضارات، ط١، ٢٠١٢م، ص١٦٢-١٦٣؛ مريم عمران موسى: الفكر الديني عند السومريين في ضوء المصادر المسارية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٦م، ص٨٤.

١- طه باقر: المرجع السابق، ج١، ص٣٦٩.

٢- طه باقر: المرجع السابق، ج١، ص٣٧٠.

٣- أحمد مالك الفتيتان: نظام الحكم في العصر الآشوري الحديث، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩١م، ص١٠٦.

والرجل يمثل فيه دور الإله «تموز». وكان المعتقد أن هذا الزواج يسبب وفرة المحاصيل وكثرة الثروة الحيوانية، وكان العراقيون القدماء يمارسونه كل سنة، والطفل الذي يُولد عن هذا الزواج يُعد من مرتبة الآلهة؛ لأنه وُلِدَ في لحظةٍ مقدّسةٍ ومن أبوين يمثل كلُّ منهما دور الإله^(١). وفي التاريخ المصري القديم لم يكن الملك ممثلاً للآلهة كما في التاريخ العراقي، وإنما كان إلهًا؛ إذ يذكر «هيرودوت»: "كان حكام مصر آلهة يعيشون مع البشر، وكان صاحب السلطان دائمًا واحدًا من الآلهة"^(٢). وكان الإله يتجسّد في الملك، فيصبح الإله الملك، أي أن الملك هو أحد الآلهة وممثل البلاد والوسيط الرسمي بين الناس والآلهة، ويتجسّد في شخصه عددٌ من الآلهة في آنٍ واحدٍ؛ فهو «سيا» إله الإدراك، وهو «رع» إله الشمس، وهو «خنوم» خالق البشر على عجلة الفخار، وهو «باستت» الإلهة الحامية، وهو «سخمت» إلهة العقاب^(٣). وقد أظهرت الأهرامات - وهي من قبور المصريين القدماء - ما يدل على أزلية الملك

١- فوزي رشيد: سرجون الأكدي - أول امبراطور في العالم، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام - دار ثقافة الطفل، ط ١، ١٩٩٠م، ص ١٧-١٨.

٢- هيرودوت: هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة: محمد صقر خفاجة، تقديم: أحمد بدوي، القاهرة، دار القلم، د.ط، ١٩٦٦م، ص ٩٦.

٣- جون ويلسون وآخرون: الحضارة المصرية، ترجمة: أحمد فخري، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، د.ط، ١٩٥١م، ص ٨٢؛ ه. فرانكفورت: ما قبل الفلسفة، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، القاهرة، مكتبة الحياة، د.ط، ١٩٦٠م، ص ٨٢.

وُسُلطته التي لا تنتهي بموته؛ إذ أن الشكل الهرمي من مميزات الملكية من ناحية الحجم والمظهر الخارجي، وأنه يرمز إلى حاكمٍ بالغ القوة، يوصف عادةً بالإله الأعظم «نثرعا»، أو الإله الطيب «نثر نفر»، ويمثّل الهرم خير احترامٍ ومهابة للفرعون (الملك الإله)^(١).

أما في اليمن القديمة، فقد شهدَ تقديس حكام بلاد العرب الجنوبية من تسميهم بـ«المكربين»، ويُعدُّ المكرب «سمه علي» أقدم مكرب وصل إلينا اسمه؛ فقد حكم بحدود سنة ٨٠٠ ق.م و ٨٢٠ ق.م^(٢)، وربما يعني لقب مكرب كلمة مقرب في لهجتنا، وأن اللفظة على التقريب من الآلهة، فكان المكرب هو مقرب أو وسيط بين الآلهة والناس، أو واسطة بينها وبين الخلق^(٣). فكان الحاكم كاهناً ذا صفةٍ دينيةٍ يُطلق عليه لفظة مكرب في الكتابات السبئية^(٤)، أو تعني «أمير الكهنوت» أو «أمير القربان»^(٥).

١- سير ألن جاردنر: مصر الفراعنة، ترجمة: نجيب ميخائيل وعبد المنعم أبو بكر، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ط، ١٩٧٣م، ص ٩٦.

2 - J. Hastings, Dictionary of the Bible, P. 504; J. Hastings, Encyclopedia of Religion and Ethics, Edinburgh, 1908-1921, Vol I, P. 2632.

٣- جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٢، ص ٢٦٨-٢٧٠.

4 - Le muséon, Société internationale des lettres et des sciences, Université Catholique de Louvain Institut Orientaliste, Société des lettres et des sciences (Louvainl, Belgium) 1949, P. 248.

٥- ديلتف نلسون وفريتز هومل: التاريخ العربي القديم، ترجمه وزاد عليه: فؤاد حسنين، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، د.ط، ١٩٥٨م، ص ١٢٤.

وتأتي قدسية الكلمة في عربية القرآن «الكروبيون»، وهم سادة الملائكة سكان السماء السابعة^(١)، وقيل: منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل^(٢)، ومنهم حملة العرش أيضًا^(٣). وأصبح الحاكم يُلقَّب بالملك بعد انفصال السلطتين السياسية والدينية رسميًا، وهي إحدى نعوت الإلهة الزهرة ابنة إله «المقه» القمر (الزوج)، والإلهة الشمس (الزوجة)، وبذلك فالملك اليميني يعتبر نفسه ابنًا للإلهة^(٤). وما يؤكِّد قدسية ملوك اليمن اتخاذهم ألقابًا إلهيةً مثل: «يثع» بمعنى المنقذ، و«يصدق» بمعنى الصادق أو العادل، و«وقه» بمعنى الحبيب أو الأغر، و«ريام» بمعنى السامي^(٥).

-
- ١- أبو الشيخ الأصبهاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان): العظمة (٥ج)، تحقيق: رضا الله بن محمد إدريس المباركفوري، الرياض، دار العاصمة، د.ط، ١٤٠٨هـ ج٢، ص٧٠٩.
 - ٢- مجد الدين ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج٤، ص١٦١؛ ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص٢٠٦؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج١، ص٤٥٣.
 - ٣- مقاتل (أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي): تفسير مقاتل بن سليمان (٣ج)، تحقيق: أحمد فريد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج٣، ص٣٩٣.
 - ٤- جواد مطر الحمد: الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في اليمن القديم، الشارقة، دار الثقافة المصرية، ط١، ٢٠٠٢م، ص٧٥.
 - ٥- جواد مطر الحمد: المرجع السابق، ص٧٨.

ويتماثل اعتقاد العرب قبل الإسلام عن الملوك بأنهم منزّلون من السماء مع الاعتقاد السائد في العراق القديم بهبوط الملكية من السماء، فيرتقي الملك من بشرٍ إلى إلهٍ في أفعاله، ويتجسّد هذا المضمون في مخاطبة الشاعر علقمة الفحل الملك الحارث بن جبلة بن أبي شمر - ملك الغساسنة (٥٢٨: ٥٦٩ م) - بقوله:

ولستُ للإنسيِّ ولكن لملائكٍ تنزّل من جوِّ السماءِ يَصُوبُ^(١)

وقد نسجوا الأساطير عن شرف الأصل وقدسيتها سادات القبائل أيضًا؛ نستدل على ذلك فيما زعموه عن جرهم (الأب الأعلى لقبيلة جرهم)، إذ ذكروا أنه كان نتاج زواجٍ بين الملائكة وبنات آدم، وكان ملاكٌ من الملائكة قد عصى ربه في السماء، فأهبطه إلى الأرض في صورة رجلٍ، فتزوَّج امرأةً من الإنس، ولدت جرهمًا^(٢).

١- شرح ديوان علقمة الفحل، شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر، تقديم: زكي مبارك، القاهرة، المطبعة المحمودية، ط ١، ١٣٥٣هـ / ١٩٣٥م، ص ١٦؛ الخطيب التبريزي (أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني): شرح اختيارات المفضل الضبي (ج ٣)، تحقيق: فخر الدين قباوة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ج ٣، ص ١٥٩٠؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٥٣٤؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١٣، ص ٦٣٤.

٢- الجاحظ: الحيوان، ج ١، ص ١٨٧؛ إبراهيم بن محمد البيهقي: المحاسن والمساوي،

وامتدادًا للمعتقد السائد في الشرق الأدنى القديم من أن الملوك يهبون الحياة، وذلك ما يمكن أن نستشفه أيضًا من مخاطبة أبناء المملكة الآشورية للملك «آشور آخ إدن» (المشهور بأسرحدون) (٦٨٠: ٦٦٩ ق.م)؛ إذ أشار إليه أحدهم قائلاً: "الملك سيدنا منحنا الحياة، وقد زرع عطر الحياة في أنوفنا"^(١).

ولا يتعد هذا المعتقد عند العرب قبل الإسلام؛ إذ يتشابه كثيرًا مع وصف النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر - ملك الحيرة (٤٦٢: ٤٧١ م) - بقوله:

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيعُ الناسِ والشهرُ الحرامُ^(٢)
فجاء وصفه بأنه كالربيع في الخصب لمجتيده، والشهر الحرام لجاره الذي لا يصل إليه أحدٌ من الناس، كما لا يصل إلى أحدٍ في الشهر الحرام^(٣).

تحقيق: عدنان علي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٩ م، ص ٨٢.
١- علي ياسين الجبوري: نظام الحكم، (بحث منشور في موسوعة الموصل الحضارية)، مج ١، جامعة الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٩١ م، ص ٢٣٢.
٢- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ط ٢، د.ت، ص ١٠٦؛ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١١، ص ٢٦؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٢٤٩، ٣٩٠؛ عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ٧، ص ٥١١، ج ٩، ص ٣٦٣.
٣- أبو الفرج الأصفهاني: المصدر السابق، ج ١١، ص ٣٢.

ومثلما ترسّخ في ذهن العربي قبل الإسلام المعتقد السائد أن الملوك يهبون الحياة، فإنهم يسلبونها أيضاً، وحُكمهم يشير إلى تألُّهم، وهذا ما نقرأه في سيرة الملك عمرو بن المنذر بن امرئ القيس (المشهور بعمرو بن هند) - ملك الحيرة (٥٥٤: ٥٦٩ م) - ونعته بلقب «المُحرِّق»^(١)؛ إذ جاء هذا اللقب لأنه أحرق بني دارم من تميم بالنار، وكان بنو دارم قد قتلوا أخاه أسعد بن المنذر^(٢)، فأقسم أن يقتل منهم مائة بالنار، وكان هذا الحادث في يوم أواره من ناحية البحرين، إذ أمر لهم بأخدودٍ فحُفِر، ثم أضرم ناراً، فلما تطلّبت واحتدمت أمر فُقذِفوا فيها فاحترقوا^(٣). وليس من المستبعد أن ترجع تسميته بـ«المُحرِّق» إلى إلقائه ضحاياه في نار قربانٍ مقدّسة^(٤)، أو لحرقه نخل اليمامة^(١)، أو ربما سُمِّي مُحْرَقًا من صنمٍ يحمل

١- شرح ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق: إحسان عباس، الكويت، وزارة الإعلام، ط٢، ١٩٨٤م، ص٢٦٣؛ أبو الفرج الأصفهاني: المصدر السابق، ج٢٢، ص١٩٤؛ المرزباني: معجم الشعراء، ص٢٠٥؛ ابن رشيقي القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج٢، ص٢٠٥، ٢١٦؛ أبو عبيد البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج١، ص٢٠٧؛ ابن منظور: المصدر السابق، ج١٠، ص٤٢.

٢- حمزة الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ص٧٢؛ العوتبي: الأنساب، ج١، ص١٧٥.

٣- تاريخ اليعقوبي، ج١، ص١٧١؛ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، ص٢٣؛ عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١، ص٢٦٦؛ عبد القادر البغدادي: المصدر السابق، ج٣، ص١٤٠.

٤- أحمد كمال زكي: الأساطير - دراسة حضارية مقارنة، بيروت، دار العودة، ط٢،

الاسم نفسه، تعبده بني بكر بن وائل كان في موضع يُسَمَّى سلمان^(٢).
وتزيدنا الشواهد عن قدرة الملوك على سلب حياة الناس في قصة المنذر
الأكبر بن امرئ القيس ماء السماء بن النعمان - ملك الحيرة (٥١٤):
٥٥٤م) - حين جعل يومين في السنة يجلس فيها عند «الغريين» يسمِّي
أحدهما يوم البؤس والآخر يوم النعيم، فأول مَنْ يطلع عليه يوم نعيمه
يعطيئه مائة الإبل، وأوّل مَنْ يطلع عليه يوم بؤسه يأمر به فيذبح ثم
يُعزِّي بدمه الغريان^(٣).

ولا يتعد وصفهم الملوك بأوصاف الآلهة؛ ففي تاريخ العراق

١٩٧٩م، ص ٩٨.

١- المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٢٧، ص ١٥٧.

٢- ابن الكلبي: الأصنام، ص ١١١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٧، ص ٣٩٣؛
المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٦، ص ٣١٣؛

J. Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, Berlin, 1927, P. 57.

٣- الغريان: يُنسب إلى المنذر بن ماء السماء بناء الغريين في بعض الروايات، وكان السبب في ذلك أنه كان له نديان من بني أسد، أحدهما خالد بن المضلل والآخر عمرو بن مسعود، فشمالاً ليلّة، فراجعا الملك ليلتهما في بعض كلامه، فأمر بهما وهو سكران فحفر لهما حفيرتان فدفنا حين، فلما أصبح استدعاهما، فأخبر بالذي أمضاه فيهما، فغمّ ذلك، وقصد حفرتيهما، وأمر ببناء طربالين عليهما، وهما صومعتان. فقال الملك: ما أنا بملك إن خالف الناس أمرى، لا يمر أحد من وفود العرب إلا بينهما، وجعل لهما في السنة يومان بؤس ونعيم. محمد بن سلام: طبقات فحول الشعراء، ص ٣١؛ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ٢٢، ص ٩٠-٩١؛ القالي: الأمالي، ج ٣، ص ١٩٥؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٨٣.

القديم كانت الإلهة «إنانًا» عند السومريين، أما البابليون فأسموها «عشتار»، وهي إلهة الخصب والحرب لدى الأكديين والبابليين، وصُوِّرت في بعض المنحوتات وعن شهاها سيف^(١). ويمكن أن نلمس الوصف عينه في مدح النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر؛ عندما شَبَّهه بالربيع رمز الخصوبة والعطاء، وفي المقابل فهو سيفٌ من سيوف الموت؛ بقوله:

وأنت ربيعٌ ينعشُ الناسَ سيبه وسيفٌ أغيرته المنية قاطع^(٢)
ومن مظاهر تقديس الملوك الاعتقاد بقدسية دمائهم؛ إذ أنها تشفي من داء الكلب ومن الجنون^(٣)، نستدلُّ على ذلك ما جاء في قتل الزبَّاء - ملكة تدمر (٢٦٧: ٢٧٢م) - جذيمة الأبرش - ملك الحيرة (٢٣٣: ٢٦٨م) - عندما سقطته الخمر وأخذ مأخذه منه، فقطعت رواهشته، فجعل دمه يسيل في طست من ذهب^(٤)، وقالت له: "أنبئتُ أن دماء

١ - قتيبة أحمد سلمان: عقائد الخصب في حضارتي بلاد الرافدين ووادي النيل، (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية التربية، جامعة واسط، ٢٠١٠م، ص ٣٧-٣٨.

٢ - ديوان النابغة الذبياني، ص ٣٨؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٥٦؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٣، ص ٢٦١؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٧، ص ٢٧٩.

٣ - الجاحظ: الحيوان، ج ٢، ص ٧؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٦٠.

٤ - ابن حبيب: أسماء المعتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام، ص ٣٢.

الملوك شفَاءً من الكلب"^(١). وأودع مضمون هذا المعتقد الشاعر ابن عياش الكندي حين هجا بني أسد لقتلهم حُجر بن عمرو - ملك كندة - بقوله:

عبيد العصا جئتم بقتل رئيسكم تُريقون تامورًا شفَاءً من الكلب^(٢)
وأغلب الظن أنه لو لم يكن للجاهليين رأيٌ خاص في الملوك
الأشراف، وفي وجود تفوقٍ لهم على سواد الناس، لما اعتقدوا مثل هذا
الاعتقاد، وبعدم شفاء دم غيرهم لهؤلاء المرضى^(٣). وربما أنهم حرصوا
على ألا تضيع قطرةٌ من دم الملك؛ لأنه إذا أُصيبَ أدرك الثأر كله^(٤)،
ووقع الشفاء بعده؛ لأن الكلب هو الغيظ والغضب، ولأنه ليس هناك
دمًا في الحقيقة يُشرب^(٥)، لذا يمكن النظر إلى ما فعلته الزبَاء في قتلها
جذيمة الأبرش، قد قيل لها: "احتفظي بدمه فإن أصاب الأرض قطرةٌ
من دمه طَلَبَ ثأره"، ومن ثمَّ حرصت على عدم التفريط بشيءٍ من دمه

١- الزمخشري: المستقصى في أمثال العرب، ج ٢، ص ٢٩٤؛ الميداني: مجمع الأمثال، ج ٢١،

ص ٣٤٥-٣٤٦؛ عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٢٦٧.

٢- الجاحظ: المصدر السابق، ج ٢، ص ٦-٧.

٣- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٥٤٣.

٤- قدامة بن جعفر (أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة البغدادي): الخراج وصناعة
الكتابة، تحقيق: محمد حسين الزبيدي، بغداد، دار الرشيد، ط ١، ١٩٨١م، ص ٤٤١.

٥- الجاحظ: المصدر السابق، ج ٢، ص ٨.

كي لا يحدث الثأر ضمن المعتقد السائد: أن دم الملوك تشفي من الكلب أي (الثائر)^(١).

ونسج العرب عن تقديس الملوك أوهاماً تجلّت في زعمهم أنهم لا يموتون، وربما نبع اعتقادهم هذا أنهم من نسل الآلهة؛ والبدال على اعتقادهم بأزلية الملوك حين زعموا بأن الفرس لا يموتون، فكانوا يتهيّبون قتالهم؛ ففي يوم ذي قار حمل حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجليّ على رجلٍ منهم فقتله، فقال لأصحابه: "ويلكم إنهم يموتون"^(٢). وظلّ هذا الزعم راسخاً في ذاكرة العرب الجمعية؛ إذ ظهر في واجهة معارك الفتح الإسلامي، ففي معركة القادسية ١٥هـ / ٦٣٦م حمل عمرو بن معد يكرب على رجلٍ من الفرس فقتله ثم صاح: "يا معشر بني زيد، دونكم فإن القوم يموتون!"^(٣)، وأنه تعجّب لما رأى مقتلة أعدادٍ من الفرس، فارتجز عندئذٍ قائلاً:

١- نشوان الحميري: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، ج ١، ص ٣٠٢؛ أبو الفتح العباسي (بدر الدين عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد): معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (٤ج)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، عالم الكتب، د. ط، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م، ج ١، ص ٣١٣-٣١٤.

٢- ابن دريد: جمهرة اللغة، ج ١، ص ٤٦؛ الخطيب التبريزي: شرح ديوان الحماسة، ج ١، ص ٢٠٨.

٣- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٦، ص ٢٧٠-٢٧١؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٦٣؛ الأصفهاني: الأغاني، ج ١٥، ص ١٤٢؛ ابن عساکر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٦، ص ٣٧٨.

أنا أبو ثور وسيفي ذو النون أضربهم ضرب غلام مجنون

يال زبيد إنهم يموتون^(١)

ومن شواهد تعظيم الملوك أن العرب لم يقولوا لقوام الملوك سَدَنَةً، بل قالوا لهم: الْحَجَبَةُ^(٢). ويتجلى مضمون تقديس الملوك في توزيع آبائهم في القبائل؛ من باب تقديس آبائهم، وهم أبناء مقدّسون كذلك، فوجودهم في القبائل من قبيل ممارستهم الدينية، كأنهم من نسل آلهة^(٣)؛ فكان للمنذر بن المنذر بن امرئ القيس بن النعمان - ملك الحيرة (٥٨٠: ٥٨٥م) - ثلاثة عشر ابناً يسمون الأشاهب^(٤)، دفع باثنين منهم إلى القبائل لينشئوهم؛ فدفع بابنه النعمان إلى آل عدي بن زيد بن حماد

١- ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي، جمعه: مطاع الطرابيشي، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ط ٢، ١٩٨٥م، ص ١٨٦؛ أبو الفرج الأصفهاني: المصدر السابق، ج ١٥، ص ٢١٧؛ ابن عساكر: المصدر السابق، ج ٤٦، ص ٣٨٤؛ الخطيب التبريزي: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٦.

٢- الجاحظ: الحيوان، ج ١، ص ٣٢٩.

٣- أبو عبيدة (معمّر بن المنثري التيمي البصري): كتاب أيام العرب قبل الإسلام - دراسة مقارنة لملاحم الأيام العربية (٢ج)، القسم الأول، جمع وتحقيق ودراسة: عادل جاسم البياتي، بيروت، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٣م، ج ١، ص ٢٧٤.

٤- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ١٩٤؛ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ٢، ص ١٠٦؛ عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٢٨٥؛ المقرئ: الأسعاع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، ج ١٤، ص ١١٥؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١، ص ٣٢٧.

التميمي فهُم الذين أرضعوه وربُّوه وينشئوه نشأةً أميريةً، ودفع ابنه الأسود إلى آل عدي بن أوس بن مرينا من أشراف الحيرة اللخميين المقدمين عند كسرى^(١).

وقد جرت العادة عند بعض القبائل، أنهم كانوا يصطحبون في معاركهم مقدِّسًا بمثابة الإله يتبرَّكون به، مثلما حدث في «يوم الزويرين» بين بني بكر بن وائل وتميم؛ حين أقبلت تميم ببعيرين مجلِّدين مقيدَين، وتركوهما بين الصَّفَّين معقولين، وسمَّوهما «زورين» يعني إلهين، وقالوا: "لا نفرَّ حتى يفرَّ هذان البعيران"، فلما رأى سيد بني بكر بن وائل عمرو الأصم بن قيس بن مسعود البعيرين سأل عنهما، فأعلمَ حالهما، فقال: "أنا زويركم"، أي إلهكم، وجلس بين الصَّفَّين، وقال: "قاتلوا عني ولا تفرُّوا حتى أفر"، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فوصل بنو بكرٍ إلى البعيرين فأخذوهما فذبَّوهما، واشتد القتال عليهما وانهمت تميم، فقال الأغلب العجليُّ مرتجزًا:

جاءوا بزورِيهم وجئنا بالأصمَّ شيخٌ لنا كالليث من باقي إرم^(٢)

١- ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص ٢٨٣؛ ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، ج ١، ص ٣٣٠؛ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ٩٩؛ أبو الفرج الأصفهاني: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٠٦؛ المقرئ: المصدر السابق، ج ١٤، ص ١١٤.
٢- الأزهرى: تهذيب اللغة، ج ٦، ص ٥٤٥؛ عز الدين ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٨٠-٤٨١؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص ٣٣٨؛ المرتضى الزبيدي: المصدر

ويبدو أنهم نسجوا عن شيخهم عمرو الأصم الأساطير حين أرجعوه إلى بقايا عاد قوم هود. ومن صور التبرُّك بسادات القبائل في المعارك، فبعد انتصاراتهم ترتفع قداسة ساداتهم إلى مستوى التأليه، ففي المعركة التي دارت رحاها بين بني بغيض بن ريث بن غطفان حين خرجوا من تهامة، ساروا بجمعهم، فتعرَّضت لهم صداءٌ - وهي قبيلةٌ من مذحج - فقاتلوهم، وبنو بغيض سائرون بأهلهم وبأموالهم، فقاتلوهم على حريمهم، فانتصروا على صداءٍ وفتكوا بهم، فُعزَّت بنو بغيضٍ بذلك وأثرت وكثرت أموالها، فلما رأوا ذلك قالوا: "والله لتتخذن حرمًا مثل مكة، لا يُقتل صيده ولا يُهاج عائده"، وجعلوه لساداتهم بني مرة بن عوف^(١).

وتتجسّد مظاهر تقديس وتعظيم سادات القبائل ليس في حياتهم فحسب، وإنما بعد موتهم أيضًا؛ فمن أمارات تكريم الميت الشريف، تجمُّع الناس عند بيته؛ احتفالًا به لنقله إلى موضع دفنه. وإذا كان الميت

السابق، ج٦، ص٤٧٨، ج١٧، ص٤٢٠؛ السويدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، ص٤٥٦.

١- عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١، ص٣٩٢؛ السويدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، ص٤٦١.

خطير الشأن كان الجمع أكبر، وهو يتناسب في كثرته مع مكانة ودرجة الميت في المجتمع. فيذكر الأخباريون أن عبد المطلب بن هاشم عندما مات، قامت قريش بغسله بالماء والسدر وتكفينه، ولُفَّ في حُلَّتَيْنِ من حُللِ اليمن قيمتها ألف مثقالٍ ذهبًا، وطُرِحَ عليه المسك حتى ستره، وحُمِّلَ على أيدي الرجال عدة أيامٍ إعظامًا وإكبارًا لتغييبه في التراب^(١). ويتبيّن هذا التعظيم كذلك فيما فعله بنو لأمٍ من طيء عندما قدّست قبر سيدها حارثة بن لأم، إلى الحد الذي كان يُخلف به؛ وذلك من قول بشر بن أبي خازم الأسدي:

جعلتم قبرَ حارثةَ بن لأمٍ إلهاً تحلفون به فجورًا^(٢)
وكان من عادة أهل مكة في الجاهلية أنه إذا مات لهم سيدٌ كبيرٌ
أغلقوا أسواقهم إعظامًا لموته، وتعبيرًا عن تقديرهم له^(٣). وقد أشار
أهل الأخبار إلى أن بعض قبور سادات العرب قبل الإسلام كان الناس
يفدون إليها، ويعظمونها، ويطوفون حولها، ويحلقون عندها شعورهم،
كالذي كانوا يفعلونه عند الأصنام، منها قبر «تميم» بموضع «مُر

١- تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ١٠٩.

٢- ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، ص ٩١.

٣- البلاذري: جمل من أنساب الأشراف، ج ١، ص ٨٧.

الظهران»^(١). وكانت قبور بعض ساداتهم حمى يستجير به الخائف وطالب الأمن؛ نستدلُّ على ذلك بما فعلته بنو عامر حول قبر سيدهم عامر بن الطفيل، عندما وضعوا أنصاباً ميلاً في ميل حمى على قبره، لا تدخله ماشية، ولا تنتشر فيه راعية، ولا تُرعى، ولا يسلكه راكبٌ ولا ماشٍ، وكان جبَّار بن سلمى بن عامر العامريُّ غائباً عندما مات عامر بن الطفيل، فلما قدم، قال: "ما هذه الأنصاب؟ قالوا: نصبناها حمى على قبر عامر. فقال: ضيقتم على أبي علي"^(٢).

ومن دلائل تقديس ساداتهم، أنهم كانوا يعقرون (يذبحون) على قبورهم الذبائح إجلالاً لهم في حياتهم وإكراماً لهم مماتهم، ومثل هذا المعتقد تجسَّد فيما كان يُذبح على قبر حاتم الطائي^(٣)، وما يُذبح عند قبر ربيعة بن مكرم الكناني الفراسي^(٤)، وما يُذبح عند قبر كليب وائل بن

1 - J. Wellhausen, *Reste Arabischen Heidentums*, P. 184; William Smith, *A Dictionary Of The Bible*, P.19.

٢- أبو الفرج الأصفهاني: الأغانى، ج٦٦-٦٧؛ الميداني: مجمع الأمثال، ج٢، ص١٠٤؛ الزخسري: المستقصى في أمثال العرب، ج١، ص٢٦٩؛ ابن أبيك الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٦، ص٣٣٠-٣٣١؛ عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج٣، ص٨١.

٣- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، ص٢٩٧.

٤- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج١، ص١٠٥؛ السمعاني: الأنساب، ج٤، ص٣٣٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج١، ص٤٤٧؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٧، ص٢٨٦.

رببعة، فضلاً عما أضافوه على قبر الأخير من مظهرٍ آخر للقداسة؛ عندما بنوا على قبره القباب^(١)، وكانوا ينضحون قبورهم بالخمير، نستدلُّ على ذلك من قول قس بن ساعدة الإيادي لصديقيه وهو يرثيها:

أصبُّ على قبريكما من مدامةٍ فإن لم تذوقاها أبلُّ ثراكما^(٢)

ولم يكتفوا بذلك ولكنهم كانوا يوصون أهلهم بصب الخمر على قبورهم؛ نستدلُّ على ذلك من قول حاتم الطائي وهو يوصي زوجته بذلك:

أماويَّ! إمامتُ، فاسعي بنطفةٍ من الخمرِ، ربِّاً، فانصَحْنِ بها قبري^(٣)
ولقداسة سادات القبائل وأشرفها، زعمت العرب أن المقلات:
وهي المرأة التي تلد واحداً ثم لا تلد، أو التي لا يعيش لها ولد، إذا وطئت قتيلاً شريفاً سبع مراتٍ بقي ولدها^(٤)، وفي ذلك قول بشر بن أبي

١- ديوان مهلهل بن رببعة، ص ٦٧.

٢- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١٥، ص ١٩٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٩٥؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٠؛ أبو الحسن البصري: الحماسة البصرية، ج ١، ص ٢١٥؛ عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ٢، ص ٧٦.

٣- ديوان حاتم الطائي، تحقيق: أحمد رشاد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٣، ٢٠٠٢م، ص ٢٠.

٤- ابن قتيبة الدينوري: غريب الحديث، ج ٢، ص ٥٦٥؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص ٧٢؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٥، ص ٤٢.

أبي خازم الأسدي:

تظُلُّ مقاليتُ النساءِ يطأنه يقلن: ألا يُلقى على المرء مئزرٌ^(١)

وربما مبعث هذا الاعتقاد، أن الروح تنتقل فوراً من الجسد الفاني إلى الجنين في أحشاء المرأة^(٢). وكانوا يقولون للرجل الشريف يُقتل: «العقيرة»^(٣).

ولم يختلف معتقد تقديسهم للملوك عند عرب وسط شبه الجزيرة العربية وشمالها قبل الإسلام عما كان سائداً في الشرق الأدنى، والنظر إليه برهية واحترام، وتاريخهم وأشعارهم فيها من الشواهد ما يؤكّد ذلك؛ منها أن العرب كانوا يسجدون للملوكهم، ذلك ما يُستشفُّ من قول الأعشى:

فلما أتانا بُعيدَ الكرى سجدنا له ورفعنا عمّاراً^(٤)

١- ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، ص ٨٨؛ الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج ١، ص ١٧٦؛ الفلقلشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١، ص ٤٦٣؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٣، ص ١١٩؛ المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠٨.

٢- أنور عليان أبو سويلم: دراسات في الشعر الجاهلي، بيروت، دار الجليل، د.ط، ١٩٨٧م، ص ٩٣.

٣- المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤١٥.

٤- ديوان الأعشى الكبير، ص ١١٥.

والعمارة: إكليل أو عمامة تُجعل على الرأس^(١)، يُحياها به الملوك برفعها عن رؤوسهم إعظاماً لهم، وفي قولٍ آخر: يُحياها بها الملوك في قولهم: عمَّرَك اللهُ، أو رفع الصوت بالتعمير - أي بالدعاء عمَّرَك اللهُ - بمعنى عَش ألف سنة^(٢). وهذه تشبه تحية العجم للملوكهم: "وزى ده هزار سأل"، أي عش عشرة آلاف سنة^(٣)، وهو دعاء بطول الحياة وطيبها بالسلامة^(٤). وفي معنى آخر لكلمة «العمار» لا يبتعد عن تعظيم الملوك وتميُّزهم عن الآخرين، تعني الرقعة التي تنزيّن بها مظلات الملوك^(٥).

ومن تحيات العرب للملوكهم نستشفُّ منها العظمة في قولهم: اسلم وانعم، وهي تحية للبقاء والعظمة، وللسلامة من الآفات والنقص^(٦). وكذلك تتمثل قداسة الملوك بتنزيههم من الخطأ، بتحيّتهم بالقول:

١- ابن دريد: جهرة اللغة، ج ٢، ص ٧٧٢.

٢- المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١٣، ص ١٣٢.

٣- بدر الدين العيني (أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين العيني الخنفي): عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٥ ج)، تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م، ج ٦، ص ١١١.

٤- ابن العربي (أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري): أحكام القرآن (٤ ج)، تحقيق: محمد عبد القادر محمد عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٣، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ج ١، ص ٥٨٩.

٥- الزمخشري: أساس البلاغة، ص ٤٣٥.

٦- بدر الدين العيني: المصدر نفسه.

"أبيت اللعن"، حسبها جاء في قول الأعشى في مدحه النعمان بن المنذر
ملك الحيرة:

إليك، أبيت اللعن، كان كلالها إلى الماجد الفرع الجواد المَحْمَد^(١)
وفي قول عبد المطلب بن هاشم - جد النبي ﷺ - في وفادته إلى
سيف بن ذي يزن (٥٧٠: ٥٧٤م) ليهنئه بطرد الأحباش من اليمن ما
نُصّه: "وأنت - أبيت اللعن - رأس العرب وربيعها الذي تخصب به،
وأنت أيها الملك رأس العرب الذي إليه تنقاد، وعمودها الذي عليه
العماد، ومقلها الذي تلجأ إليه العباد"^(٢). فضلاً عما جاء في هذا
الوصف من الارتقاء بالملك إلى أنه واهب الخصوبة للحياة، كذلك رفع
العرب الملوكة في قولهم: أبيت اللعن، إلى مصاف الآلهة بتنزيههم من
الأفعال السيئة، أي أبيت أن تأتي من الأخلاق المذمومة ما تُلعن عليه^(٣).
ومن سموّ تحياتهم لملوكهم قولهم: "يا خير الفتيان"، يتبين ذلك في
مخاطبة يزيد بن عبد المدان الحارثي الحارث بن جبلة الغساني^(٤)، ومخاطبة

١- ديوان الأعشى الكبير، ص ١١٥.

٢- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ٩٠؛ الأزرقى: أخبار مكة وما فيها
من الآثار، ج ١، ص ١٥١؛ البيهقي: دلائل النبوة، ج ٢، ص ٩؛ ابن عساکر: تاريخ مدينة
دمشق، ج ٣، ص ٤٤٢.

٣- عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ٢، ص ٤٠٧.

٤- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١٢، ص ١١.

ومخاطبة امرأة امرئ القيس له بقولها: "يا خير الفتیان"^(١). ومما يُذكر أن التحيّات جمع تحية مرادفة لكلمة الملّك وتعني البقاء، وقيل: العظمة، وقيل: الحياة، وإنما قيل: التحيات بالجمع لأن ملوك العرب كان كل واحدٍ منهم تحييه أصحابه بتحيةٍ مخصوصة^(٢)؛ فمثلاً لحم وجُدام كانت تقول في تحية ملوكها: أبيت اللعن، بينما ملوك غسان تتم تحيتهم بالقول: يا خير الفتیان، وتحية بعض القبائل بقول: اسلم كثيراً^(٣).

ولقدسية الملوك عند العرب قبل الإسلام، كان الملك إذا مرض حملته الرجال على أكتافها يتعاقبونه، فيكون كذلك على أكتاف الرجال؛ لأنه عندهم أوطأ من الأرض^(٤). ومن دلائل ذلك أنه عندما تُقَلَّ المرض على النعمان بن المنذر حُمِلَ على أكتاف الرجال تعظيماً له^(٥). ومن صور تقديسهم للملوكهم، كان الملك لا يُقتل بضرب العنق إلا في قتالٍ إكراماً

١- أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل): جبهة أمثال العرب (٢ج)، تحقيق: أحمد عبد السلام ومحمد سعيد بن بسويو زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ج١، ص١٩٣.

٢- النووي (محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري): صحيح مسلم بشرح النووي (١٨ج)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٣٩٢هـ، ج٤، ص١١٦.

٣- الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج٢، ص١٨٩.

٤- أبو الفرج الأصفهاني: المصدر السابق، ج١١، ص٣٢.

٥- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج١١، ص٣١؛ عبد القادر البغدادي: خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج٩، ص٣٦٧.

له^(١). وكانت العرب تكني عن قتل الملك بـ«الإشعار»؛ إذ يعظم عليهم أن يقولوا: قُتِلَ فلان، وإنما تكني عن القتل بالإشعار^(٢)، لذا نُحِصَّ القول عند قتل الملوك بأنهم أشعروا، ولا يقولون قُتِلَ إلا للسوقة (العامة)، حتى أنهم أطلقوا على الملوك لفظ: «المشعرة»، من قولهم: "دية المشعرة ألف بعير". وإذا ما حاولنا أن نتابع هذا المعتقد، فإننا سنجدُه متأثراً عن طقوسٍ مقدَّسةٍ للحجج من إشعار البدن، وهو أن تُطعن في الجانب الأيمن من سنامها حتى يسيل الدم ليُعلم أنه هَدْي، ثم كُنِّي به عن قتل الملوك إكباراً لهم عن أن يُقال: قُتِلَ فلان^(٣).

ومن مظاهر تعظيمهم لملوكهم التورية عن آفات الملوك، وتكنية بعضهم على غير ما هم عليه؛ فكان جذيمة الأبرش أفضل ملوك العرب رأياً وأبعدهم مُغاراً، وأشدَّهم نكايَةً، وهو أول من استجمع له الملك بأرض العراق^(٤)، كان يُقال له جذيمة الأبرص (أبقع)، فلما ملك قالوا

١- الميداني: مجمع الأمثال، ج ١، ص ٢٣٤؛ عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٢٦٧.

٢- الخطابي: غريب الحديث، ج ٣، ص ١٣٧.

٣- الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر) (ت ٥٣٨هـ / ١١٤٣م): الفائق في غريب الحديث (٤ج)، تحقيق: علي البجاوي، بيروت، دار المعرفة، ط ٢، د.ت، ج ٢، ص ٢٥٠-٢٥١.

٤- ابن حبيب: أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام، ص ٢٩؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ١، ص ٣٠٨، ٣١٧، ٦١٢؛ ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب،

على كناية عن الأبرص: جذيمة الأبرش، فلما عَظَمَ شأنه قالوا: جذيمة الوضّاح، ولم يقولوا: جذيمة الأوضح؛ لأنهم يضعون هذه الكلمة كناية عن البرص، وليس في العرب أبرص يُقال له الوضّاح غير جذيمة^(١).
ولمكانة الملك وعظمته كان يصعب الوصول إليه، لذا سمّته العرب «الحصير»، لأنه محبوبٌ عن الناس، وهذا ما يؤكّده قول لبيد بن ربيعة:

وَمَقَامَةٍ غُلِبِ الرَّقَابِ كَانَهُمْ جِنٌّ لَدَى طَرْفِ الْحَصِيرِ قِيَامٌ^(٢)
ومن ألقاب الملوك سُمُوا بها مجازًا «الآكل»، وقد جاء هذا في حديثٍ منسوبٍ إلى الرسول ﷺ قال: «مَأْكُولٌ حَمِيرٌ خَيْرٌ مِنْ أَكْلِهَا»^(٣)، فالرعية هم المأكولون، يأكلهم ملوكهم؛ بما يأخذونه منهم من حقوق،

ص ٣٧٩.

١- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الليثي الكناني البصري): البرصان والعرجان والعميان والحولان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الجليل، ط ١، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ص ١٠٥-١٠٦؛ حمزة الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ص ٦٤؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٥، ص ١٣.
٢- شرح ديوان لبيد بن ربيعة، ص ٢٩٠؛ القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص ٣٣؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص ٢٦٢.

٣- أحمد بن حنبل: المسند، ج ٤، ص ٣٨٧؛ الحاكم النيسابوري: المستدرک على الصحيحين، ج ٤، ص ٩١؛ محد الدين ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج ١، ص ٥٩؛ ابن منظور: المصدر السابق، ج ١١، ص ٢١؛ ابن حجر الهيتمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ١٠، ص ٤٣.

ومما يفرضونه عليهم من واجبات، والآكلون هم الملوك؛ لأنهم يأكلون ولا يُعطون^(١).

وتبدو مظاهر عظمة الملوك بارتفاع دياتهم، حتى بلغت ألف بعير^(٢)؛ يتبين ذلك بما عرضته بنو أسد بعد قتلهم حُجر بن عمرو - ملك كندة - إلى ابنه امرئ القيس على أن يعطوه ألف بعير دية أبيه، أو يقيدوه من أي رجلٍ شاء من بني أسد، أو يُمهلهم حولاً، فقال: "أما الدية فما ظننتُ أنكم تعرضونها على مثلي، وأما القود فلو قِيدَ إِلَيَّ أَلْفٌ من بني أسد ما رضيتهم ولا رأيتهم كفوًّا الحُجر"^(٣).

وعلى الرغم مما تقدّم إلا أن هناك استثناءات تجاوزت ذلك المقدّس بمقتل بعض الملوك، منهم عمرو بن هند الذي قُتِلَ على يد عمرو بن كلثوم التغلبي في قصة مشهورة يطول شرحها^(٤)، ومثل هذا الاستثناء نطالعه في افتخار الحارث بن ظالم المرّيّ بقتله سبعة ملوك كانوا نائمين في كهفٍ على وسائد الريحان بقوله:

القاتلين من المناذر سبعةً في الكهفِ فوق وسائدِ الريحان^(٥)

١- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٢٣٩.

٢- الزمخشري: الفائق في غريب الحديث، ج ٢، ص ٢٥١.

٣- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ٢٢، ص ٨٧.

٤- راجع: أبو الفرج الأصفهاني: المصدر السابق، ج ١١، ص ٥٦.

٥- ديوان الحارث بن ظالم المري، منشور ضمن كتاب (دراسات في الشعر الجاهلي)، دراسة

وفي المعنى ذاته قال جابر بن حنِيّ التغلبيُّ يوم الكلاب الأول^(١):
 نعاطي الملوك السلمَ ما قصدوا بنا وليس علينا قتلهم بمَحَرَمٍ^(٢)
 وربما خرق خرافة تحريم قتل الملك راجعُ إلى ما يراه أحد الباحثين:
 من قِبَلِ بعض القبائل التي يُطلق عليها «لقاح»، أي الذين لا يخضعون
 للملك^(٣)، أو يُحتمل أن ولاءهم كان لسادة قبائلهم، وتعضُّبهم لها جعلهم
 لا يتوانون عن قتل بُغاة الملوك، وما يؤكِّد الاحتمال هذا محاولة الملك
 عمرو بن هند إذلال عمرو بن كلثوم - سيد قومه تغلب - وكذلك أمه
 ليل بنت المهلهل بن ربيعة - أعز العرب - أمام وجوه تغلب، مما أثار
 حفيظة عمرو بن كلثوم، ودفعه إلى قتل عمرو بن هند^(٤).

وتحقيق: عادل البياتي، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، د. ط، ١٩٨٦م، ص ٢٧٢؛ الزبير بن
 بكار: جهرة نسب قريش وأخبارها، ج ١، ص ٥٧.

١- يوم الكلاب الأول: أحد أشهر حروب العرب في الجاهلية، وهي حربٌ وقعت بين
 شرحبيل وسلمة ابني الحارث بن عمرو بن حُجر الكندي ومَن والاهم من قبائل العرب،
 فتواعدا عند ماء الكلاب، فأقبل شرحبيل في بني ضبة والرباب كلها وبني يربوع وبكر بن
 وائل، وأقبل سلمة في تغلب وعليها السفاح سلمة بن خالد التغلبي والنمر بن قاسط وبهراء
 ومَن تبعه من بني مالك بن حنظلة وعليهم سفيان بن مجاشع. ابن عبد ربه: العقد الفريد،
 ج ٥، ص ١٩٣؛ ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج ٢، ص ٢٠٥-٢٠٦؛
 عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٥٤٩.

٢- المفضل الضبي: المفضليات، ص ١٩٧؛ أبو عبيدة: كتاب النقائض، ج ٢، ص ٢٤٠؛
 القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص ٣٤٩؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٣،
 ص ١٦١.

٣- أبو عبيدة: كتاب أيام العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٢٧١.

٤- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١١، ص ٥٦.

وأحاطت شخصية الملك هالة من التقديس عندما أُله، فكان العربُ يخاطبون ملوكهم بالأرباب^(١)، والربُّ مالكُ كل شيء^(٢)، وربوب جمع رب أي الملوك^(٣)، وهو ما يتجلى في تقديس سادات القبائل عند مخاطبتهم بالرب أيضًا، وأما لفظة الرب التي تعني بعلًا أيضًا، وهي من الألفاظ السامية التي وردت في معظم لغات الساميين^(٤)، وقد أطلقت في لغة المسند على السيد والشريف، لتعبّر عن معاني التفخيم والاحترام، وقد جاءت في عربيتنا بمعنى الملك والسيد والمدبر، وأطلقت بمعنى الملك كذلك، وكانت العرب قبل الإسلام يطلقونها على الملك^(٥)؛ والرب هو الرئيس والمرجع، ومن تكون إليه الطاعة. والأرباب هم السادات؛ فقد قال الملك المنذر بن ماء السماء - ملك الحيرة - يوماً لنديمه خالد بن نضلة الأسدي، وهم على الشراب: "يا خالد، من ربك؟ فقال خالد: عمرو بن مسعود ربي وربك"^(٦). ولهذا

١- السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٢٣٧.

٢- الفخر الرازي (فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين القرشي التيمي البكري): التفسير الكبير ومفاتيح الغيب (٣٢ج)، دمشق، دار الفكر، ط ١، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ج ١، ص ٢١٥.

٣- ابن سيده: المخصص، ج ٥، ص ٢٢٧.

٤- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٥٦١.

٥- المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١٣، ص ٢٢٢.

٦- ابن حبيب: أسماء المعتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام، ص ٥٥؛ عبد القادر

كان يقول العبد لسيده: ربي. وتقول حاشية السيد والمملك لسيدها ومملكها: ربنا^(١)؛ فكان يُقال لحذيفة بن بدر الفزاري - سيد غطفان - «رب معد»^(٢)، وعُرف هشام بن المغيرة القرشي المخزومي بـ«رب قريش»، ونُسبت إليه قريش في الجاهلية^(٣)، ويتجسّد ذلك أيضًا في قول المهلهل بن ربيعة التغلبي في رثائه أخيه كليب وائل سيد ربيعة:

قتلوا ربهم كليبًا سفاهاً ثم قالوا: ما إن نخاف عويلاً^(٤)
وهذا ما نتأمله في قول امرئ القيس واصفاً ملوك كندة بالأرباب:
ما يُنكر الناس منّا حين نملكهم كانوا عبيداً وكنا نحن أرباباً^(٥)
وقد جاء هذا المعنى أيضًا في وصف لبيد بن ربيعة العامري الملك حُجر بن عمرو بـ«رب كندة»؛ وذلك في قوله:
وأهلكن يوماً رب كندة وابنه ورب معد بين خبثٍ وعرعير^(٦)

البغدادي: خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ١١، ص ٢٩٠.

١- الجاحظ: الحيوان، ج ١، ص ٣٢٨.

٢- أبو عبيدة: كتاب النقائض، ج ١، ص ٧٢-٧٦، ١٧٤-١٧٩؛ ابن حبيب: المحبر، ص ٢٤٩، ٤٦١؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٥٥٠؛ ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص ٣٠٢؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٣، ص ٣١٦-٣١٧، ج ٦، ص ٢٢، ٩٩.
٣- ابن دريد: الاشتقاق، ص ٩٤.

٤- ديوان مهلهل بن ربيعة، ص ١٥٨؛ ابن عبد ربه: المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٣.

٥- ديوان امرئ القيس، ص ٢٧٩؛ ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج ١، ص ٩٢.

٦- شرح ديوان لبيد بن ربيعة، ص ٥٥؛ الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١،

وَنَعَتَ الحارث بن حلزة اليشكُرِيُّ في معلقته ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء بـ«الرب»^(١)، ونعت أيضًا أحد أمراء الغساسنة بـ«رب غسان»^(٢). ويعلقُ «تيودور نولدكه» على أن الحارث بن حلزة افتخر بقبيلته بني يشكر لأنهم انتقموا لمقتل لمنذر بن ماء السماء بدم «رب غسان»^(٣). كما جاء نعتُ الملك بـ«الرب» في قول امرئ القيس حين سمع بمقتل أبيه حُجر بن عمرو بقوله:

بقتل بني أسدٍ ربهم
ألا كل شيءٍ سواه جَلَلٌ^(٤)

ص ٤٧؛ ابن سيده: المخصص، ج ٧، ص ٧٦٨؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٨، ص ٣٩٥.

١- ديوان الحارث بن حلزة اليشكري، صنعة: مروان العطية، دمشق، دار الإمام النووي - دار الهجرة، ط ١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، ص ٧٠؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣١٥؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٣٣٩، ج ٤، ص ٢٢٦؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٢، ص ٤٥٩؛ عبد القادر البغدادي: خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ٤، ص ٣٣٤.

٢- ديوان الحارث بن حلزة اليشكري، ص ٧٣؛ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١١، ص ٥٠؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج ١٥، ص ٤٩.

٣- تيودور نولدكه: أمراء غسان من آل جفنة، ترجمة: بندلي جوزي وقسطنطين زريق، بيروت، المكتبة الكاثوليكية، د. ط، ١٩٣٣م، ص ٢٠.

٤- ديوان امرئ القيس، ص ٢٦١؛ ابن هشام: سيرة النبي ﷺ، ج ٣، ص ١٠٠؛ ابن حبيب: أسساء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام، ص ٣٤؛ أبو الفرج الأصفهاني: المصدر السابق، ج ٩، ص ٨٨؛ عبد القادر البغدادي: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٤.

وفي المعنى ذاته نُعِتَ النعمان بن امرئ القيس بن عمرو اللخميّ - ملك الحيرة (٣٩٠: ٤١٨ م) - بـ«رب الخورنق»^(١). وهناك شواهدٌ كثيرةٌ من هذا القبيل، لا يتسع المجال لإيرادها جميعاً؛ خشية الإملال. ولكن مما يُذكر أن وصف الملك بـ«الرب» ظلَّ حتى بعد الإسلام؛ نستشفُّ ذلك من قول حسان بن ثابت الأنصاري في وصف جبلة بن الأيهم - ملك الغساسنة - بـ«رب الشام»، بقوله:

لم ينسني بالشام إذ هور بها كلا، ولا منتصراً بالروم^(٢)
ومن شواهد تأليه العرب ساداتهم، كان الزبرقان بن بدر التميميُّ السعديُّ يُرفع له بيتٌ من عمام وثياب، ويُنضح بالزعران والطيب، وكانت بنو تميم تعظّم ذلك البيت وتُحجُّ إليه؛ يتبين ذلك من قول المخبل السعدي:

وأشهد من عوفٍ حلولاً كثيرةً يحجُّون سبَّ الزبرقان المزعفرا^(٣)

١- ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص ٦٤٧.

٢- ديوان حسان بن ثابت، ص ٤٣٩؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ١، ص ٣١٥؛ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١٥، ص ١٦٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٨، ص ٧٢؛ ابن فضل الله العمري: مساك الأَبصار في ممالك الأمصار، ج ١٤، ص ١٦٨.

٣- ديوان المخبل السعدي، ص ٢٩٤؛ ابن دريد: جمهرة اللغة، ص ٨٦؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص ٧٧٩؛ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١٣، ص ١٨٧؛ عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ٨، ص ٩٨.

وسبُّ الزبرقان المزعفر - المذكور في البيت - أي عمامته^(١).
وكانت العرب قبل الإسلام تصبغ عمام ساداتهم بالزعفران^(٢).

ومن أمارات تعظيم سادات القبائل، أنهم كانوا يضربون لهم قبابًا رمزًا للسيادة والجاه، وترجع جذور ذلك التعظيم منذ عهد نزار بن معد بن عدنان؛ إذ كانت له قبة حمراء، فلما حضره الموت أوصى بنيه، وقسم ماله بينهم، قال: "يا بني هذه القبة - وهي قبة من آدم حمراء - وما أشبهها من مالي إلى مُصر، فسُميت مُصر الحمراء"^(٣)، دلالة على انتقال السيادة إليهم. وفي شاهدٍ آخر عن تخصيص القباب الحمر لسادات القبائل رمزًا للتعظيم، ما نطالعه في قول عبيد بن الأبرص الأسدي:

أهل القبابِ الحمرِ وال
نعيمِ المؤبِّلِ والمدامه^(٤)

ويذكر أن النعمان بن المنذر كان إذا أراد تعظيم رجلٍ ضرب له قبةً من آدمٍ حمراء، وكان الملك إذا فعل ذلك برجلٍ عرف قدره منه ومكانه عنده^(٥). والذي نلاحظه مما تقدّم أن اللون الأحمر سواءً في القباب التي

١- ابن منظور: المصدر السابق، ج ١٠، ص ١٣٨.

٢- المرتضى الزبيدي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٦.

٣- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ١، ص ٥١٤؛ عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٥٦٣؛ السيوطي: الكنز المدفون والفلك المشحون، ص ٤٤٧.

٤- ديوان عبيد بن الأبرص، شرح وتحقيق: حسين نصار، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه، ط ١، ١٩٥٧م، ص ٣٤؛ ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، ص ٥٥.

٥- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ٩، ص ٦٥-٦٦.

تُضرب، أم العمام الحُمر التي يُعتمَّ بها الرأس، عُدَّ رمزًا للتعظيم والسيادة والجاه الذي عليه سادة القبائل.

وما يدلُّ على تقديس العرب لساداتهم، الطاعة المطلقة لهم، ربما تصل إذ بالغوا إلى طاعة الرب؛ من ذلك ما مُحدِّثنا به الأخبار عن عمرو بن لُحي - سيد خزاعة - فكان فيهم سيِّدًا شريفًا مُطاعًا، ما قال لهم فهو دينٌ متبعٌ لا يُعصى^(١)؛ ذكر أنه أول من غيَّر دين إبراهيم، وجاء بالصنم «هبل» فجعله في الكعبة^(٢)، وجاء بأصنام قوم نوح (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا) التي واراها الطوفان وظهرت عند ساحل جدَّة، ودعا العرب إلى عبادتها فأطاعوه^(٣). وفي ذات المعنى يمكن أن نستدل على طاعة سادة القبائل المطلقة، ما نقرأ في الأخبار عن مالك بن مَسِيع البكري، أنه "لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيفٍ لا يسألونه في أي شيء غضب"^(٤). والأمر كذلك مع الأحنف بن قيس التميمي

١- ابن الكلبي: الأصنام، ص ٥٨؛ الأزرقى: أخبار مكة وما فيها من الآثار، ج ١، ص ٨٨، ١٩٣.

٢- الأزرقى: المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٣-١٩٤.

٣- ابن الكلبي: المصدر السابق، ص ٥٣-٥٤؛ الفاكهي: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ج ٥، ص ١٥٤.

٤- ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، ج ١، ص ٣٢٨؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٨٧؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج ٦، ص ٩١.

السعديّ، الذي ذكر الأخباريون عنه أنه إذا غضب، غضب لغضبه مائة ألفٍ من بني تميم لا يدرون فيم غضب^(١). وما جاء في الحديث عن كليب وائل بن ربيعة التغلبي - سيد ربيعة ونزار كلها - أنه لُقّب كليباً لأنه كان إذا سار أخذ معه جرواً، فإذا مرّ بروضةٍ أو موضعٍ يعجبه ضربه ثم ألقاه في ذلك المكان فحيث بلغ عواء ذلك الجرو كان حمى لا يرمى به أحد^(٢).

ومما شاع عن تعظيم العرب لساداتهم، ما جرت عليه عاداتهم ألا يتولّى تقرير العهد ونقضه إلا سيد القبيلة وكبيرها^(٣). وكان الرجل إذا أراد سفرًا أخذ عهداً من سيد القبيلة، فيأمن به ما دام في تلك القبيلة حتى ينتهي إلى الأخرى^(٤).

-
- ١- ابن قتيبة الدينوري: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٠؛ ابن خلكان: فيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٤٠٩؛ ابن أبيك الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ١٦، ص ٢٠٦.
 - ٢- المفضل بن سلمة: الفاخر في الأمثال، ص ٧٥؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٦، ص ٧٠؛ عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ٢، ص ١٤٦.
 - ٣- المباركفوري (أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم): تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي (١٠ ج)، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ج ٨، ص ٣٨٧.
 - ٤- أبو عبيد الهروي (القاسم بن سلام بن عبد الله): غريب الحديث (٤ ج)، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، حيدر آباد - الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط ١، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م، ج ٤، ص ١٠٢.

ومن علامات العظمة كانت لسيد القبيلة قبةً، يدخلها الخائف أو طالب الأمان فيُستأمن، ففي وادي عوف الذي كان لآل ملحَم بن ذُهَل قبةً عُرِفَتْ بـ«قبة المعادة»، مَنْ دخلها أو لجأ إليها أعادوه، ومن أشهر رجالاتهم عوف بن ملحَم بن ذُهَل بن شيبان، كان مشهوراً في العرب بدمية الجوار، وكان مروان القرظ بن زبِيع العبسيُّ يطلبه الملك عمرو بن هند، فدخل مروان قبة عوف بن ملحَم فلم يجده، ووجد ابنته مُجماعة بنت عوف فأجارتها، وبعد أن حضر عوف بن ملحَم، أبى أن يسلمه إلى عمرو بن هند الذي قال: "لا حُر بوادي عوف" (١).

وامتدَّ ببعض سادات العرب إلى أنهم لم يكتفوا بإعطاء الإنسان الأمان، وإنما أجازوا الحيوان؛ فكلب وائل بن ربيعة بعد أن نصَّبته جُموع مَعَد على قومه، كان يحمي مواقع السحاب، فلا يُرعى حماه، وإذا جلس لا يمرُّ أحدٌ بين يديه إلا بإذنه، ولا تورِد إبل أحدٍ مع إبله، وكان يُجير على الدهر فلا تُخفَر ذمته أبداً، وكان يجير الحيوان، فيقول: "وحش أرض كذا في جوارِي"، فلا يُهاج، وكان يحمي الصيد فيقول: "صيدٌ كذا أو كذا في جوارِي"، فيأمن ولا يصطاد منه أحدٌ شيئاً، ولا يُرفع الصوتُ

١- ابن حبيب: المحبر، ص ٣٥٠؛ الأزهرى: تهذيب اللغة، ج ٢، ص ٤٢٢؛ الميداني: مجمع الأمثال، ج ٢، ص ٢٣٦؛ الزخشرى: المستقصى في أمثال العرب، ج ٢، ص ٢٦٢.

عنده، ولا توقد مع ناره للأضياف نازراً في أحماهه وفيما يقرب من منازلها^(١).

وإذا أردنا أن نخترل تقديس سادات القبائل في شخص، فحسبنا شخصية عبد المطلب بن هاشم - سيد قريش - إذ حكّمته قريش في أموالها، فأطعم الناس والطيور والوحش، ووصفوه بـ«إبراهيم الثاني»^(٢)، ونُسِجت الروايات عن كراماته، تمثّلت في حلمه المقدّس بحفر زمزم^(٣)، ومنها ما حُكي عنه عندما خاصمته قريش أثناء حفر زمزم، فتحاكموا إلى كاهنة بني سعد بأطراف الشام، فركبوا وساروا حتى إذا كانوا ببعض الطريق نفد ماؤهم فظمئوا وأيقنوا الهلاك، فانفجرت تحت حُفّ راحلة عبد المطلب عين ماء فشربوا منه، وقالوا: "قد قضى الله لك علينا، لا

١- أبو عبيدة: كتاب النقائص، ج ٢، ص ٧٧٣؛ الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص ٩٩؛ الميداني: مجمع الأمثال، ج ١، ص ٣٤٢؛ الزمخشري: المستقصى في أمثال العرب، ج ١، ص ٢٤٦؛ عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٤١١؛ أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود): المختصر في أخبار البشر (٤ج)، تحقيق: محمد زينهم ويحيى سيد، تقديم: حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، ط ١، د.ت، ج ١، ص ١٢٦؛ السويدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، ص ٤٤٣.

٢- تاريخ البعقوبي، ج ١، ص ١٠٨.

٣- ابن هشام: سيرة النبي ﷺ، ج ١، ص ١٤٣؛ الأزرقى: أخبار مكة وما فيها من الآثار، ج ٢، ص ٤٠؛ الفاكهي: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ج ٢، ص ١٥-١٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١٥٥؛ السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج ١، ص ١٢٥.

نخاصمك فيها أبداً، إن الذي سقاك الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم"، فانصرفوا وحفر زمزماً^(١). ومهما يكن من أمر هذه الروايات، فإنها تعطي انطباعاً عن تجسّد المقدّس في شخصية عبد المطلب، خاصّة برؤياه الصادقة التي هي إحدى وسائل الاتصال بالغيب، كذلك عندما انبثق الماء من تحت خفّ راحلته بفعلٍ غيبيّ.

وتتلخّص نظرة العرب قبل الإسلام لحُكم الملوك فيما يأتي: الملك مالك والتابع مملوك، واجبه تقديم حقوق الملك، وحق الملك الطاعة، وفي ضمن الطاعة: الإخلاص له، والعمل بما يفرضه على التابع من حقوقٍ وواجبات. وليس للرعية الامتناع عن دفع ما في عنقها من حقوقٍ للموكها أو لسادات قبائلها، وليس لأحد حق مطالبة ملكه بدفع مالٍ له؛ فالملوك والسادات أحرار، لهم أن يُعطوا ولهم أن يُمسكوا، وما يدخل خزائنها وما يأتيهم من ربحٍ من تجارةٍ أو مغنمٍ من حروبٍ أو من عشورٍ ومكوسٍ وضرائبٍ أخرى، هو من حقّهم ومن ملكهم الخاص.

١- ابن هشام: المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٤-١٤٥؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٦٥؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٨، ص ١٣٤-١٣٥؛ عز الدين ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٥١-٥٥٢؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٤؛ العصامي (عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي المكي): سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي (٤ج)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨ م، ج ١، ص ٢٦٧-٢٦٨.

وكل ما يعود للحكومة هو لهم؛ لأنهم هم الحكومة، والحكومة الرؤساء^(١).

وللحكم الملكي صلةٌ كبيرةٌ بحياة الاستقرار والاستيطان؛ فهو لا ينمو ولا يظهر إلا في المجتمعات المستقرّة وفي المواضع الغنية بالماء وفي القرى والمدن، فنرى أن حكام فلسطين ومدنها كانوا قد لُقّبوا بلقب ملك منذ أزمنةٍ قديمةٍ جدًّا مع أنهم لم يكونوا إلا رؤساء قرى أو مدن، وقد كان أكثرهم كهنة - في الأصل - أي حكام حكموا رعيّتهم باسم الآلهة، فكان لهم الحكم في الدين، وفي تدبير أمور الرعية من الناحية الدنيوية، ثم عافوا هذا المركز، وخصّصوا أنفسهم للنظر في الأمور الدنيوية^(٢).

والحاكم، ملكٌ كان أو أمير أو سيد قبيلة، هو حاصل المحيط الذي نشأ فيه والبيئة التي عاش بين أهلها، لذلك نراه مستبدًّا إلى آخر حدٍّ من جهة، ونراه عطوفًا غافرًا للذنوب من جهةٍ أخرى. وهو القانون والسلطة التنفيذية والتشريعية ولا راد لحكمه وقضائه، إلا التوسّلات والوساطات وشفاعات الشفعاء، فإن تأثّر بالشفاعة غير رأيه، وإن أصرَّ على رأيه فلا راد لحكمه. وحكم كهذا شأنه يكون خاضعًا لمزاج الحاكم

١- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٢٣٩.

٢- جواد علي: المرجع السابق، ج ٥، ص ١٨٦-١٨٧.

ولدرجة هدوء أعصابه واتزانته؛ فإن كان الملك عاطفياً منفِعاً سريع التأمُّر، صار عهده عهد مشاكل ومؤامرات. وحُكْمٌ كهذا تكثُر فيه الوشايات والدسائس؛ إذ يستغلُّه الحُساد وأصحاب الذكاء في الإيقاع بخصومهم. وحُكْمٌ كهذا يكون قتل الأشخاص فيه من الأمور البسيطة؛ فإذا أزعجهم شخصٌ أو هجاهم شاعرٌ أو انتقصهم أحد، فقد يكون القتل جزاءً له في الغالب. وإذا أمر الملك بقتل إنسانٍ قُتِل، ما لم يشفع فيه شفيعٌ قويٌّ مؤثّرٌ، وإذا أمر الملك بقتل شخصٍ في الحال قُتِل دون تأخير، ولا راد لحكمه؛ فهو الحاكم وهو المنفَّذ للأحكام، ولا اعتبار لمنزلة الشخص الذي سيقتل، والشيء الذي يؤجِّل الموت أو يبعده عن المحكوم عليه بالقتل، هو هروبه إلى رجلٍ منافسٍ لهذا الحاكم كاره له، أو له دالةٌ عليه، فينقذ جووه إلى ذلك الشخص رقبته من السيف^(١)، ويذكر أهل الأخبار أن الملوك إذا أرادت قتل شخصٍ، لبست جلد النمر وجلست تتفرَّج على مَنْ يُراد قتله، ويُعبَّر عن ذلك بـ«التنمُّر»^(٢).

١- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٢٣٩-٢٤٠.

٢- المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٣، ص ٥٨٧.

الفهرس

المقدمة

٥

الباب الأول

البنى الاجتماعية للعرب قبل الإسلام

- ١٥ الفصل الأول : جغرافية بلاد العرب
- ١٩ • حدود بلاد العرب وأقسامها:
- ٢٨ • العربية السعيدة (Arabia Felix):
- ٣٠ • العربية الصحراوية (Arabia Deserta):
- ٤٦ • العربية الصخرية أو الحجرية (Arabia Petrae):
- ٤٨ • التقسيم العربي لبلاد العرب:
- ٥١ • الحجاز:
- ٨٥ • تهامة:

- اليمن: ٦١
- العروض: ٦٢
- نجد: ٦٨
- الفصل الثاني : طبيعة ومظاهر العقلية العربية قبل الإسلام ٧١
- الفصل الثالث : المجتمع العربي قبل الإسلام ١٤١

الباب الثاني

النظام القبلي

- الفصل الأول : القبيلة ٢٠١
- الفصل الثاني : سيادة القبيلة ٢٣١
- الفصل الثالث : حقوق سيد القبيلة ومكانته ٢٧٥